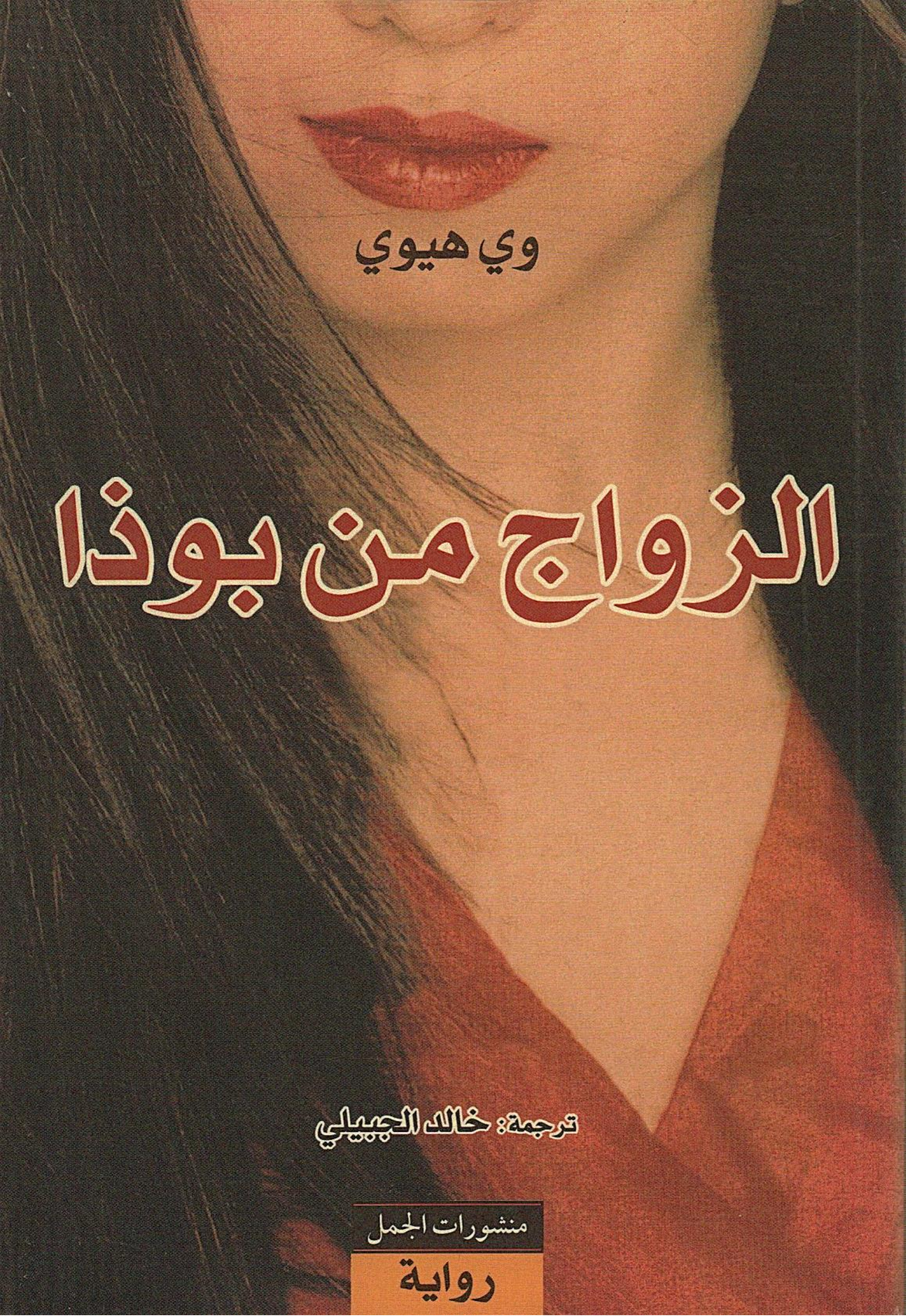


وي هيوي

الزواج من بوذا

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

وي هيوي

الزواج من بوذا

رواية

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

وي هيوي ولدت عام ١٩٧٤. ابنة ضابط حربي، بعد اكمال دراستها للآداب مارست أعمالاً مختلفة كصحافية ومحررة تلفزيونية. روايتها شنغهاي بيبي والتي أحرقت في الصين ومنعت، تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة. صدر لها عن منشورات الجمل: **شنغهاي بيبي**، رواية، ٢٠٠٧.

ولد **خالد الجبيلي** في حلب، سورية عام ١٩٥٤، درس اللغة الإنكليزية وآدابها في جامعة حلب، سورية وتخرّج منها في عام ١٩٧٧. نشر الكثير من الترجمات، منها: **تاريخ حلب الطبيعي** للأخوين باتريك وألكسندر راسل، حلب ١٩٩٧؛ **نشوء الشرق الأدنى الحديث** (١٧٩٢ ـ ١٩٢٣)، مالكولم ياب، دمشق ١٩٩٨؛ **أسرار**، نور الدين فارح، كولونيا ـ بغداد ٢٠٠٧؛ **ربّ الأسرة**، روث براور جهابفالا، كولونيا ـ بغداد ٢٠٠٧؛ **الظاهر**، باولو كويلو، دمشق ٢٠٠٦؛ **فتيات فالكيري**، باولو كويلو، دمشق ٢٠٠٤؛ **مذكرات زوجة السجين**، دمشق ٢٠٠٣؛ **الحميمية**، حنيف قريشي، دمشق ٢٠٠٥؛ **الجسد**، حنيف قريشي، دمشق ٢٠٠٥.

وي هيوي: الزواج من بوذا، رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

١

العودة إلى شنغهاي

في الخامسة عشرة، كنت أنحو إلى التعلّم. وفي الثلاثين، ظللت ثابت العزم. وفي الأربعين، لم تعد لديّ شكوك. وفي الخمسين، عرفت قوانين السماء. وفي الستين، أضحت أذني عضواً مطيعاً لتلقي الحقيقة. وفي السبعين، أصبح بإمكاني أن أتبع ما يمليه عليه قلبي دون أن أتجاوز الحق.

كونفوشيوس، «مقتطفات أدبية».

إن مجرد مكوثي في غرفة مع نفسي يثيرني أكثر مما أحتمل.

كايت برايفرمان

شنغهاي ـ الخريف

بعد عودتي من نيويورك إلى شنغهاي بأيام قليلة، لم يتوقف رأسي عن الدوران. كنت منهكة تماماً، ولم يغمض لي جفن في الليل، وأثناء النهار لم أكن أستطيع أن أبقى يقظة.

لم أكن أعرف إن كنت سأكون سعيدة كما كنت، وفي أيّ طريق سأتجه، أو إن كنت سأتمكن من مواجهة العالم بعينين حكيمتين وجريئتين. لم أكن أعرف إن كان موجو لا يزال يحبني، أو إن كنت أريد أن أنجب منه طفلاً. لم أكن أعرف إن كانت طبقات الأشنة الكثيفة التي تكسو ثنايا ذاكرتي تعني أني لن أكون قادرة على أن أستدير وأن أجري.

لم تتغير شنغهاي. فهي مدينة لا تزال مفعمة بالطموح، وهي تهوي بسرعة كبيرة نحو الرأسمالية. إنها مدينة محمومة أكثر من نيويورك ـ أكثر الأماكن جلبة وضوضاء وإثارة للحيرة في العالم.

ومنذ زمن بعيد، اكتسبت المدينة شهرة بأنها مدينة متألقة وبهية ورومانسية. أما الآن فقد بدأت تظهر معالمها العملية والفظة. وبدا أن الجميع يريدون أن يصبحوا أغنياء بسرعة، وبدأوا يتسابقون للحاق بآخر قطار يوصل إلى الشهرة والثروة. كلّ شيء يتدفق، يتقلب، لا يمكن التنبؤ به، اندفاع محموم في غمرة هلوسة كبيرة. إنه شيء مثير، لكنه جعلني أترنح وأتمايل.

في الأسبوع الثاني من عودتي إلى شنغهاي، عدت أدخن وأشرب وأجرع المهدئات الواحدة بعد الأخرى في الحمّام. بدأت السموم التي ساعدني موجو على التخلص منها عندما كنت في نيويورك، تعود لتملأ جسمي كله ثانية. لكنها عوضاً عن أن تعيد لي الإحساس بالأمان والراحة الذي كنت أصبو إليه، فإنها لم تقدم لي سوى لحظة من الخواء المخدّر يمكنني خلاله أن ألتقط أنفاسي.

بعد عودتي إلى مدينتي، رجعت إلى عاداتي السابقة أيضاً. وبدا أني تحولت مرة أخرى إلى باقة من النرجس المهدئ للأعصاب.

في الأسبوع الأول لم أبرح شقتي المشيدة على الطراز الفرنسي الكولونيالي القديم. وكان هناك مطعم قريب يرسل لي وجبات طعام في فترات منتظمة، وتركت جهاز تسجيل المكالمات شغالاً لأجيب عن المكالمات الواردة من أبي، الذي كان قد قبل منصباً أكاديمياً في سنغافورة، ومن أمّي التي رافقته؛ ومن صديقتي إكسير، وابنة خالتي زو شا، ومن وكيلتي الأدبية، ومن عدد من الأشخاص الآخرين (الذين كنت أعرف بعضهم، ولا أعرف بعضهم الآخر). لقد كان الجميع يحاولون الاتصال بي.

الجميع ماعدا موجو، الذي بقيت انتظر مخابرته بفارغ الصبر.

خلال لحظات عابرة من النقاء وصفاء الفكر، كنت أعجب بإصراري المثير للدهشة عندما يتعلق الأمر بموجو. يمكنك أن تدعوه حبّاً، ربما، أو ربما تستطيع أن تسميه طريقتي في التكفير عن ذنوبي.

اتصلت بي عدة مرات. «مرحباً يا أميرة شنغهاي، ستقام حفلة الليلة. تسمى 'الجنس في المدينة'، ويتوقّع الجميع أن يروك هناك».

«هاي، إنه أنا. أريد أن أذهب للتسوق؟ إذ توجد تنزيلات في محلات بلازا ٦٦». «كوكو، للمرة الأخيرة ارفعي السماعة! أو أقسم بأني لن أتصل بك مرة أخرى...»

«يا إلهي، إنك لم تتغيري أبداً. لا، سأسحب ما قلته. لقد أصبح مزاجك أسوأ من قبل. لم كلّ هذا الإدعاء بأنك ناسكة؟ لنتعشّى معاً هذه الليلة. سآتي وآخذك من أمام بنايتك في الساعة السابعة. وإذا تأخرت سأتركك وأذهب!»

كانت شخصية إكسير تذكرني قليلاً بصديقتي القديمة مادونا، لكنها كانت محبوبة أكثر.

بعد أن غادرت شنغهاي، وقعت مادونا في ورطة بسبب استغلالها علاقاتها مع المسؤولين في البلدية والجمارك لتهريب سيارات من طراز مرسيدس، وبي إم دبليو إس وسيارات فاخرة أخرى إلى الصين. وعندما أصدرت الشرطة مذكرة توقيف بحقها، توارت عن الأنظار وبدا أنها اختفت ولم يعد لها أثر. وقد سمعت مؤخراً أنه لا توجد أخبار عنها.

من مومس إلى أرملة ثرية، من امرأة اجتماعية من مجتمع شنغهاي المخملي إلى مجرمة مطلوبة، ظل جمال مادونا محفوراً في عمق ذاكرتي كالندبة.

أما إكسير، فقد كنت أعرفها قبل أن أتعرف على مادونا بفترة طويلة. إذ التقينا للمرّة الأولى قبل عشر سنوات، عندما كانت لا تزال فتى شاحباً ضعيف البنية يعاني من عذاب حبّ شباب المراهقة ومن العضو الجنسي الذكري بين ساقيها، وكان انفجارهما بين الحين والآخر يهدّد بدفعها إلى حافة الانهيار.

لكنني عندما صادفتها ثانية قبل ثلاث سنوات، بدت وكأنها ولدت من جديد، مثل فراشة انبثقت أخيراً من شرنقتها. فقد اختفى حبّ شباب المراهقة من وجهها، والعضو من بين ساقيها. وأصبح لها صدر واسع، وكبر ثدياها وأصبحا مكورين رائعين يملأن كفّ المرء، رشيقان وشهوانيان ومثيران وجذابان، مثل ثمرتين ناضجتين تستسلمان لإغراء الجاذبية.

وحمداً لله أنه لم يكن لدى إكسير تفاحة آدم بارزة. وسواء كانت تتمشى في الشارع أو تتسكع في ناد ليلي، وهي ترتدي ثيابها بشكل مثير، وتتبرّج كثيراً، كانت تستطيع أن تجتذب نظرات الرجال المعبّرة عن الإعجاب أكثر مما كنت أفعل.

في تلك الليلة، وصلت بسيارتها الخنفساء الصغيرة الخضراء من طراز فولكسواجن لتصطحبني.

خلعت أخيراً بيجامتي الوسخة، أخذت دوشاً، وارتديت ثوباً أبيض بدون أردان. لم أضع مكياجاً، وهبطت الدرج دون أي زينة على وجهي.

عندما رأتني إكسير خارجة من باب البناية، صرخت وضمتني إليها: «يا لك من شنيعة. . . ماذا ستفعلين بدوني؟ كيف يمكنك أن تعيشي بدوني؟؟»

أخذت نفساً عميقاً. كانت محقة. فقد كنت مخلوقة هشة وغريبة

الأطوار. ولن أعيش طويلاً دون فهم الأصدقاء. «اشتقت إليك»، قلت ببساطة.

وقفنا هناك لحظات طويلة، نضحك ونتعانق، تلمس إحدانا الأخرى ونتبادل المديح والمجاملات مثل «يبدو أنك تزدادين جمالاً أكثر وأكثر».

يبدو أن الزمن يتوقف عندما يلتقي الأصدقاء المخلصون. نبدأ نضحك، ونزداد راحة وتسترخي أجسامنا كالحلوى الدافئة. إنه إحساس مختلف عن الإحساس الذي يعتريني كلما أذهب للقاء رجل.

تناولنا العشاء في مطعمها.

إنه يدعى «شنغهاي ١٩٣٣»، وقد توسع ليصبح قاعة للشاي. وهو مزيّن بقصب أخضر فاتح من الخيزران، وفوانيس ورقية، وأقفاص طيور مجدولة بدقة، وأثاث قديم من مناطق مختلفة من الصين وجنوب شرق آسيا، مرتّب ترتيباً جيداً في أرجاء المطعم. وكانت ستائر من الشاش تلامس الأرض وتتمايل برقة مع هبات النسيم، وتنبعث من حاكي قديم أغاني شعبية من شنغهاي تعود إلى الثلاثينات. وكان يسود المطعم سمات صاحبته اللذيذة، الكئيبة بعض الشيء.

حتى المناشف الورقية في الحمّام كانت مزينّة برسوم بالفرشاة بالحبر الصيني، رسومات صممتها إكسير نفسها.

قبل أن تفتتح المطعم، كانت إكسير رسّامة، وكانت قد أصابت شيئاً من النجاح. وقد كتبت عنها صحف النيويورك تايمز، وأساهي شيمبان، وشتيرن مقالات رئيسية، وبثت إذاعة لندن برنامجاً عنها ـ لا لأن لوحاتها كانت رائعة بالضرورة، بل لأنها كانت أول شخص في الصين في فترة ما بعد التحرر يجري عملية تغيير الجنس. وقد اشتهرت في البداية لأنها راحت تتكلم علانية عن ذلك، إلا أنها أصبحت مشهورة لمجرد أنها

كانت مشهورة. وكان بوسعها أن تطلب أسعاراً مرتفعة ثمناً للوحاتها، تمكّنها من شراء ثياب ومجوهرات بإسراف وتدخل إلى جميع النوادي العصرية في شنغهاي.

عندما سئمت إكسير من الرسم، قرّرت أن تفتح مطعماً راقياً. ففي شنغهاي ١٩٣٣، كان ثمن صحن حساء شنغهاي ١٢٥ يوان (١٥دولاراً)، وثمن كأس الشاي الأخضر ١٥٠ يوان (٢٠دولاراً). لا يجرؤ أحد آخر في شنغهاي على طلب مثل هذه الأسعار. وفي كلّ مساء كنت ترى طابوراً من الناس يقف هناك. هذه هي شنغهاي: كلّ شيء ممكن. إذ تنبثق أماكن بين عشية وضحاها وتختفي بالسرعة التي ظهرت فيها.

في كلّ ليلة، عندما تصل إكسير إلى المطعم، وهي ترتدي ثياباً أنيقة، وتضع مكياجاً رقيقاً، كانت تمضي وقتها وهي تتنقّل بين الزبائن، وبين المطبخ وصندوق النقد، تبهر الجميع برشاقتها وخفة حركتها وذكائها في العمل. وسرعان ما أصبح يطلق عليها اسم «المحظية الفتاكة».

جلسنا في ركن هادئ من المطعم، وأخرجت الهدايا التي جلبتها لإكسير من نيويورك: عدّة مجلات بورنو تعرض رجالاً عراة. ألقت إكسير نظرة عليها وضحكت، وشكرتني بقبلة. في هذه الأيام، أصبح كلّ شيء متوفراً في شنغهاي، أما من الناحية القانونية، فلا يزال هذا النوع من المجلات غير شرعي.

طلبت طبق سمك سلمون مشوي، وفطائر صينية بلحم البطّ، وتوفو مشوي، وحساء خضار، وطلبت إكسير من النادل أن يجلب قنينة من النبيذ الأحمر.

’قبل عام واحد لم يكن يخطر ببالي أن نجلس نحن الفتاتين هنا، نتناول طعام العشاء وحدنا»، قلت، وأنا أشعل سيكارة.

«وما العيب في ذلك؟ على الأقل عندما لا يكون معنا رجال، يمكننا أن ننعم بشيء من الهدوء والسكينة. وطلبت إكسير من النادل أن يصبّ النبيذ في دورق زجاجي وأن يضعه جانباً لفترة لكي يتنفس. «إن عدد العازبات في شنغهاي أصبح أكثر بكثير من أي وقت مضى، ولديهن قوة شرائية كبيرة. وأكثر الناس الذين يرتادون مطعمي إما مجموعات من الفتيات العازبات، أو مجموعات من الرجال اللوطيين. وبالطبع هناك دائماً الرجال الصلع البدينون المنحرفون الذين يجلسون في الزوايا ليتمكنوا من ملاطفة مرافقيهم البالغين».

ضحكت. يبدو أنني وإكسير نضحك دائماً عندما نكون معاً.

بالطبع لم نكن نمضي وقتنا كلّه في الضحك. ففي بعض الأحيان، كانت تهرع إلى منزلي في منتصف الليل، وتتمدّد على الأريكة في غرفة الجلوس وتجهش في البكاء حتى يصبح خداها مثل خوختين فاسدتين لأنها لم تعثر على رجل يحبّها حقاً. كانت على وشك أن تموت وهي على طاولة العمليات وكان أبواها لا يزالان يرفضان رؤيتها، إلا أنه بعد المحنة التي مرت فيها لتتحول إلى امرأة، فقدت ثقتها في الرجال فجأة. وبدلاً من ذلك، اكتشفت نفاقهم، وعدم مبالاتهم وأنانيتهم، وجميع أنواع الضحكات الأخرى البارعة البغيضة. وقالت مشتكية إن الرجال حيوانات قذرة. فهم يفكرون بقضبانهم وليس بأدمغتهم. وإنه يجب أن تطلق النار على أي شخص في العالم يحمل قضيباً.

أظن أنها كانت صادقة في قولها هذا. فيجب ألا ننسى أنها قطعت قضيبها.

كنا نحبّ بعضنا كأختين حباً لم نكن نفهمه حقاً. إذ لم نكن نعرف لماذا أحبت إحدانا الأخرى بهذا الشكل. ربما لأننا كنا نشعر بالراحة بوجود كل منا. إذ سمح لنا ذلك أن نغفر لنفسينا بسبب وجود شخص آخر أكثر ضعفاً واضطراباً.

وكنا نتخاصم أيضاً، وكانت إحدانا لا تكلم الأخرى أحياناً إلا مرة في الشهر. ولم تكن إحدانا تحبّ صديق الأخرى، وفي غالب الأحيان، كانت إحدانا تحذّر الأخرى «إنه لا يناسبك تماماً، إنك ترتدين حريراً موّشى باللآلئ أمام خنزير، إنه لا يساوي شيئاً». إلا أن كل ذلك كان عديم الجدوى، لأن المرأة عندما تمارس الجنس أحياناً مع خنزير فإنها تفعل ذلك لتعاقب نفسها، وتنهض بعد ذلك كعنقاء من الرماد. إن هذا بالنسبة للنساء، نوع من تحسين الذات.

ضحكنا كثيراً، احتسينا نبيذاً جيداً، دخّنا سجائر، وأكلنا ما لذ وطاب من الطعام: وجبة طعام رائعة، لم نتحدث خلالها عن الرجال في حياة كلّ منا.

كان واضحاً أن إكسير تعرف من آخر رسالة إلكترونية بعثتها لها أني أنا وموجو لم نكن متفقين. وكنت أعرف أنها تعيش وحيدة منذ فترة من الزمن، وأنها لم تشتهر إلا لأنها غيّرت جنسها، وأن الرجال لم يكونوا يرغبونها إلا لإقامة علاقة عابرة لليلة واحدة. ومنذ انفصالها عن شاب سويدي قبل ستة أشهر، بدا أنها لم تر شاباً آخر.

بما أني لم أكن أرغب في أن أعود إلى البيت بعد العشاء، اقترحت عليّ أن نذهب لتدليك أقدامنا في أحد الصالونات التي كانت تتردّد عليها في شارع فاكسينغ.

«لا تقودي سيارتك الخنفساء ـ لنستقّل سيارة أجرة. إنك ثملة كثيراً». عضضت على شفتي وضحكت. كنت أشعر بالوهن، وكانت عيناي ثقيلتين. كنت أنا أيضاً سكرانة.

جلسنا في سيارة الأجرة، وكانت تحمل بيدها كأساً من النبيذ. كانت إكسير قد أحضرت زجاجة نبيذ جيد من صنع التسعينيات. قالت إنها اعتادت على أن «تدلك قدميها وهي ترشف نبيذاً أحمر. قالت إنها تعتبر

أن هذا الأمر ألذّ بعشر مرات من رعشة الجماع. هكذا كانت تواسي نفسها عندما تشتهي أن تمارس الجنس ولا تجد سوى الإحباط.

غصت في الوسائد الوثيرة على الأريكة في صالون التدليك، في ضوء المصباح الخافت، وفي وسط موسيقى هادئة، كان بوسعي أن أسمع صوت شخير خافت لإحدى الزبونات.

تكرّمت عليّ إكسير وأرسلت لي مدلّكاً شاباً اعتاد أن يدلكّ قدميها، لأجرّب بنفسي أسلوبه الرائع في التدليك. ثم وجدت لنفسها مدلكّة أنثى.

جلسنا إلى جانب بعضنا، نتناوب على صبّ النبيذ في كأس إحدانا الأخرى. وبدلاً من أن نضحك كما كنا نفعل في المطعم، غرقنا في أحلام يقظة واهنة. وبعد أن غمرت الماء المشرّبة بالأعشاب أقدامنا عشر دقائق جُففت برقة. كانت إحدى قدميّ ملفوفة بمنشفة ومستندة إلى مقعد صغير، فيما كانت القدم الأخرى مسترخية فوق ركبة المدلّك الدافئة.

ثم أخذت يدان تفركان نقاط التدليك في باطن قدمي، تقرصه، تدفعه، تضغط عليه وتفركه وتعجنه. كم كنت أحبّ هذا الشعور الذي أعجز عن وصفه والذي يعتريني عندما يقوم أحدهم بتدليك قدميّ ورأسي، إلى درجة أني أشعر أحياناً بالرغبة، عندما أكون في الشارع، في زيارة صالونات التجميل أو محلات الأحذية فقط لأشعر بالراحة الرائعة التي أشعر بها عندما يلامس أحدهم رأسي أو قدميّ. إنها تلك الراحة التي لا يمكن أن يكون الرجال والسجائر بديلاً عنها.

سيل من الحرارة تدفق على فخذيّ فيما بدأ المدلّك الشاب يعدّل مستوى الضغط على قدمي، وغيّر نقاط التدليك، وارتفعت المنشفة الملقاة على ساقيّ نحو خصري. ازداد رحمي دفئاً، وانتفخ فرجي وتدفق الدم إليه يملؤه، تماماً كما يحدث عندما تزداد لكزات القضيب

الإيقاعية أثناء ممارسة الجنس. بدأت كلّ خلية في جسدي تتأوه، ترتعش، وبدأت أتخيّل بتلة الوردة الحمراء بين ساقيّ وهي تفتح وتغلق ببطء. كان شيئاً رائعاً ومريعاً.

واكتملت هذه المتعة الرائعة باحتساء النبيذ الأحمر الصافي. فكّرت في ما قالته إكسير: إن تدليك القدم وأنت تحتسين كأساً من النبيذ ألذّ بعشر مرات من رعشة الجماع.

جرعنا النبيذ رشفة رشفة، وأغمضنا عيوننا، بعد أن أحسسنا أن الأيدي عند أقدامنا تستعبدنا وتستحوذ علينا.

٢

الجنس والسلوى

عندما تخلو من أي شهوة، فإنك تدرك اللغز. وعندما تكون في غمرة الشهوة، فإنك لا ترى إلا التجليات.

لاو - تزو

ربما كان الرجل هو الذي اخترع النار، لكن المرأة هي التي اخترعت اللعب بالنار.

كانداس بيرغن، مسلسل «الجنس والمدينة»

في صباح اليوم التالي أفقت على صوت تغريد العصافير.

كان الهواء يعبق بشذى أشجار الدفلى، والكستناء المشوية، والبنزين، وروائح القلي المنبعثة من المطاعم في الشارع الجانبي - جميع الروائح المعتادة التي يمكن أن تشمها في الصباح في شنغهاي. فتحت عينيّ بتكاسل. ومع أن ستائر غرفة النوم كانت تحجب معظم النور، كنت أعرف أنه سيكون يوماً جميلاً في الخارج.

عندما التفت، صدمت باكتشاف أني لم أكن وحدي في السرير. فقد كان هناك فتى يستلقي إلى جانبي. بدا أنه يغط في سبات عميق. وفي ساحة السرير الشاسعة، بدا أنه شاب مرهف ورقيق للغاية.

استغرقت لحظة لأتذكر أنه الشاب الذي دلّك قدميّ الليلة الفائتة.

أخذت نَفَساً عميقاً لأصحو ويصفو رأسي. يا إلهي، لا أعرف كيف

وصلت إلى البيت ليلة البارحة. هل اغتصبته أنا، أم اغتصبني هو؟ أم كان اغتصاباً متبادلاً؟ حاولت أن أتذكر، لكني لم أتذكّر شيئاً من الليلة السابقة.

كان قد بدأ يستيقظ أيضاً. ولكي أخفف من شدة الحرج، دلفت إلى المطبخ لأعدّ طعام الفطور. تبعني إلى المطبخ، وانتابني شعور بالراحة عندما رأيت أنه ارتدى قميصاً قطنياً وبنطال جينز.

«ما رأيك بقليل من الحبوب والحليب؟ أوه، يبدو أنه يوجد لديّ قليل من البيض أيضاً». حاولت أن أجعل صوتي محايداً، لذلك لم أبدو سعيدة ولا حزينة. لكني كنت في الواقع مضطربة كثيراً. فكم مرة تستيقظين وتجدين شخصاً غريباً مستلقياً إلى جانبك على السرير، وواقيين ذكريين مستعملين، وكدسة من المناديل الورقية المتناثرة فوق السجادة؟ تساءلت لماذا واقيين ذكريين اثنين، وليس واقياً واحداً فقط؟

جلسنا معاً إلى مائدة الفطور. ساعدني الفتى في تقسيم قطعة من البطيخ إلى شرائح. لم ينبس أحدنا بكلمة.

لم أكن واثقة لماذا لم أطلب منه أن يغادر. بل ها أنا أعدّ له طعام الفطور. اللعنة. فحتى عندما أكون وحدي، لا أعبأ بأن أهيئ لنفسي طعام الفطور. وفي الواقع، فإن أحد الأسباب التي جعلت العلاقة بيني وبين موجو تخبو، هي أني لم أكن أجد متعة في الطهي، في حين كان موجو ذواقاً شرهاً للطعام. فعندما كنا نتناقش في أمور الطعام، كان ذلك يفضي إلى الحديث عن الحركة النسائية والحركة ما بعد النسائية، وهي مواضيع لم نكن نتوصل إلى اتفاق حولها على الإطلاق. بل إن زوجة موجو السابقة جاءت ذات مرّة إلى الشقّة التي كنا نتقاسمها، وراحت ترشدني إلى أساليب الطهي والتدبير المنزلي والجمال الخفي والفيلسوف زن في مطبخي. كانت في غاية الجمال وشهوانية، ورأسها مكسوة كلها

بشعر أشقر ولها طفلان من زوجها الحالي الثري. كان يبدو أنها تمضي ربع وقتها في المطبخ. وقالت لي إن المرأة التي لا تجيد الطبخ، هي امرأة فاشلة.

عندما بدأت أفكّر بموجو، أحسست فجأة بانزعاج شديد. وداهمتني رغبة جامحة في أن يختفي هذا الشاب من مطبخي. لعل الأرض تنشق وتبتلعه.

لم يكن بوسعي أن أفكّر بأن علاقتنا أنا وموجو قد انتهت بالفعل. فقد عدت إلى شنغهاي لأكتب كتابي الجديد، لكن من الواضح أننا كنا بحاجة إلى شيء من الوقت ليهدئ كلّ منا مشاعره تجاه الآخر قبل أن نقرر إن كنا سنستمر في علاقتنا كعاشقين أم نصبح مجرد صديقين. لم يكن قد مضى على عودتي إلى شنغهاي سوى أسبوعين، وها هنا شاب يمضي الليلة في سريري.

اعتراني إحساس عميق بأني أخون موجو.

تذكرت الصين في الماضي، عندما كان يتعين على الأرملة أن تنتظر ثلاث سنوات بعد وفاة زوجها كي تتزوج ثانية. بالطبع لم أكن أرملة موجو، بل كنت أعرف أني لم أعد حبيبته، لكن لم تكن تلك هي المسألة، بل إن المسألة تكمن في أني كنت لا أزال أحبه ـ حباً جماً.

إن عدم وجود موجو إلى جانبي جعلني أشعر بأني لم أعد أكثر من جثة رائعة تتعلق بحبّه، جسد يعوم فوق سطح البحر، يتمايل بين موجاته، خدرة لا أشعر بشيء، في عالم لم يعد له وجود.

قد يكون قضاء ليلة البارحة مع الفتى الغريب وسيلة لأعاقب نفسي ـ أعاقب نفسي لأني مغرمة بموجو. عندما تحبّ شخصاً أو شيئاً إلى هذه الدرجة، فربما تكون قد فقدته.

قلقة ومضطربة، رحت أذرع المطبخ جيئة وذهاباً وأنا أدّخن. لم تكن لديّ شهية لتناول طعام الفطور. ورحت أراقب الفتى وقد دفن وجهه في الزبدية الضخمة وراح يغرف قطع الحبوب ويلقي بها في فمه. وجعله الشارب الذي ارتسم على شفته العليا من الحليب يبدو وكأنه طفل.

أخيراً بدا أنه مستعد للمغادرة. تنفّست الصعداء عندما وقفنا عند الباب، سألته عرضاً، «كم عمرك على أية حال؟»

«خمس عشرة سنة»، وابتسم ابتسامة عريضة غير مبالية، وألقى معطفه على كتفيه وراح يهبط الدرج جرياً. سمعت وقع أقدامه وهي يهبط الدرج، ثم اختفى.

وقفت هناك برهة، شعري مشعث، لا أرتدي سوى غلالة رقيقة ألقيتها عليّ. كانت رائحة الجنس لا تزال عالقة في الهواء حولي، وأنا أدخّن سيجارتي وأحدّق في الدرج الخاوي. يا إلهي، كان في الخامسة عشر من عمره فقط. لقد أخذت فتى في الخامسة عشر من عمره إلى سريري!

عندما تحدثت إلى إكسير على الهاتف، ضحكت بخبث وسألتني: «وكيف كان؟ قد يكون طعم الخامسة عشر أسوأ، أليس كذلك؟»

تنهّدت وهززت رأسي. وأخيراً، لم يعد بمقدرتي تحمل ذلك، ضحكت وقلت: «كان يبدو في الحادية والعشرين، ألا تظنين ذلك؟» وأضفت: «أو في العشرين على أقل تقدير».

ثم أمضيت أسبوعاً آخر بشكل ما في شنغهاي، المدينة التي تعج بالضوضاء وحمّى الاقتصاد، مدينة بدا أنها ألهمتني بشبق لا حدّ له.

كانت غرفة الجلوس، والحمّام، وحتى الفراغ بجانب وسادتي، لا

تزال جميعها تحمل الكثير من آثار موجو. وكنت قبل أن أغادر نيويورك قد سرقت بضعة أشياء من شقّته: فرشاة أسنان قديمة، وعدّة خصلات من شعره كنت قد جمعتها من أرضية حمّامه، وسروالان داخليان مستعملان من ماركة كالفين كلاين، وأجاصة مجعدة من المخمل، وصورة قديمة لموجو عندما كان طالباً في الجامعة.

وبالطبع كانت هناك كومة كبيرة من ورق اللعب التي احتفظت بها، بالإضافة إلى الرسائل الصغيرة التي كتبها أحدنا إلى الآخر، وأرومة تذاكر من الحفلات الموسيقية التي حضرناها معاً، وتذاكر الطائرات في الرحلات التي قمنا بها معاً، وبطاقات من المطاعم التي تعشينا فيها معاً، ومجموعة صغيرة من الحلي الرخيصة والهدايا الصغيرة. كانت مثل هوائيات صغيرة تبعث إشارات من شخص موجو، رماد ذكرياتي المحفوظة. كانت أشياء لملء الفراغ والوحدة.

حاولت أن أتصل بموجو لكن لم يكن يوجد سوى جهاز تسجيل مكالماته. أرسلت له رسائل بالبريد الإلكتروني لكنه لم يردّ عليها. تهرّبه جعلني أبدو عاجزة وبعيدة أكثر مما كنت أشعر من قبل. إذ أصبح يفصلنا الآن المحيط الهندي والمحيط الأطلسي باثنتي عشرة ساعة، وقارة أوراسيا بكاملها.

قرّرت أن أتمسك بخطتي الأصلية وأخرج من شنغهاي لفترة.

في مساء يوم جميل، حملت بضع حقائب صغيرة واستقللت سيارة أجرة وانطلقت في الطريق السريع خارج شنغهاي. اجتزنا أشجاراً خريفية ذات أوراق عريضة خمرية وذهبية وبنية اللون، وغابات من ناطحات السحاب، والأبراج ذات القمم المدببة، وفيلات من طراز الباروك القديم قبل أن نصل أخيراً إلى الرصيف ١٦ في الميناء.

بدا أن القارب البخاري الأبيض الصغير الذي حيانيّ على الرصيف

يكبرني سناً. فقد كانت تكسوني بقع الصدأ، معطف قديم من الطلاء المائل إلى اللون الأصفر، وأحرف مكتوبة باليد بشكل غير متقن مطلية باللون الأسود تقول إن السفينة «البحر والسماء ـ إقليم زيجيانج، شركة زوشان للسفن».

وفيما راحت السفينة تندفع ببطء فوق نهر هوانغبو، غمرني شعور يتعذر تفسيره من الإثارة والسعادة. كان الأطفال يجرون في الطوابق العليا، يصيحون، فيما كان البالغون منشغلين في لعب الورق، ولعبة الماهجونغ، والشراب والقراءة والدردشة. وكانت ترتسم على وجوه الجميع تعابير السعادة، وكأن مغادرة هذه المدينة ذات الستة عشر مليون نسمة سبب للاحتفال.

هذه إحدى الأمور اللطيفة في العيش في شنغهاي. إذ تكون سعيداً دائماً لأنك تفلت منها.

عندما هبط المساء، ظهر قمر متجمّد في السماء، وازدادت رياح المحيط برودة، وأصبح هواء البحر رطباً وثقيلاً.

خيّم الصمت ثانية على السفينة، وكان الصوت الوحيد المسموع صوت هدير محرّك المركب. كانت المياه تحيط بنا من كلّ جانب. كان المحيط على مد البصر. وكانت بين الحين والآخر، تظهر جزر تكسوها أشجار صنوبر صغيرة أشكالها الغريبة تكمّل مشهد البدر المعلّق في السماء مثل حجرة من الأحجار الكريمة. كان المنظر أشبه بمشهد من لوحة مرسومة بالحبر الصيني.

لم أشعر بالرغبة في النوم. أضحى رأسي رائقاً وصافياً أخيراً وانجلت أفكاري وأصبحت مشرقة وصافية. للمرة الأولى منذ عودتي من نيويورك شعرت بسعادة حقيقية تغمرني. فقد أصبح لديّ شيء أتطلع إليه. أصبح بإمكان رئتيّ أن تتنفّسا ثانية، وأصبح بوسع عقلي أن يفكّر

ثانية، ومع أني أحسست في قرارة قلبي بوحدة واضطراب حقيقيين، اعتراني في الوقت نفسه شعور بالسكينة والشجاعة.

وقفت في مقدمة السفينة طويلاً، أحدّق في عالم المياه الكالحة السواد لأعود برقة إلى مكان منسي منذ فترة طويلة، جزيرة صغيرة كنت أعود إليها كثيراً في الأحلام في حين كنت أغوص في الوحدة والحيرة في نيويورك. كانت الجزيرة الصغيرة التي يوجد فيها أكثر من خمسين معبداً وضريحاً وديراً ـ الجنة البوذية من البحر والسماء تلك التي تعرف بجزيرة بوتوو.

٣

وصولها إلى نيويورك

لا يزال هناك الكثير من الجنس في مانهاتن، لكن الجنس الذي يفضي إلى الصداقة وعقد صفقات عمل، لا يعتبر رومانسياً. ففي هذه الأيام، يوجد للجميع أصدقاء وزملاء، ولا يوجد لأحد حبيب حقاً ـ حتى لو ناما معاً.

كانداس بوشنيل، «مسلسل الجنس والمدينة»

ابتسمت ولم تحدثني عن شيء وأحسست أني لهذا السبب انتظرت طويلاً.

رابندراناث طاغور، «الطيور التائهة»

ولدت قبل تسع وعشرين سنة في أحد المعابد في جزيرة بوتوو المعروف بمعبد «المطر الورع».

كانت أمّي بوذية متدينة. وعندما كانت حاملاً بي، استقلّت هي وأبي مركباً واتجها إلى المعبد ليصليا من أجل مستقبل طفلتهما التي لم تلدها بعد، ومن أجل هدوء الأسرة وازدهارها. وطلبت أمّي من كبير كهنة الدير أن يقيم صلاة طوال نصف يوم لتحظى ببركات الآباء البوذيين.

وعندما حلّ الظلام في ذلك المساء، وأضيئت مصابيح المعبد، أحسّت أمّي بتشنّج حادّ وألم شديد في بطنها، وأدركت عندئذ أن المخاض قد جاءها قبل الأوان. لذلك فقد جئت إلى هذا العالم في وقت أبكر مما كان متوقّعاً. وبطبيعة الحال، فقد سبّب ذلك شيئاً من

الجلبة في المعبد، لكن لحسن الحظ، لم تكن هناك مضاعفات، وخرجت كل من الأمّ والطفلة من عملية الولادة سالمتين.

وفي اليوم التالي، أقام أبواي مراسم معمودية عمّداني فيها بالاسم البوذي المتدين الثقيل بعض الشيء زي هوي، ومعناه «المرء الذي سلك درب الحكمة والتنوير».

أمضيت طفولة سعيدة مفعمة بالصحة. وأغدق عليّ أبوايّ حبّهما وأحاطاني برعايتهما حتى بلغت الثالثة عشرة من عمري، عندما جاءتني أول دورة شهرية، وأصبحت مراهقة متمردة ومنحت أبويّ حصتهما من المعاناة والمرارة. وكانت أمّي تقول كأني تحولت إلى وحش بين عشية وضحاها، كما لو كنت قد استيقظت ذات صباح وقد برز من جبهتي قرنان.

وبعد سنوات قليلة، عندما أصبحت فتاة ذات بشرة بيضاء وعينين لامعتين في السابعة عشرة من عمري، نجحت في امتحان القبول في جامعة فودان الراقية، وأتيحت لي أول فرصة لكي أبتعد عن البيت.

مررت بأول تجربة جنسية وأنا في التاسعة عشرة من عمري. كان لقاء تعيساً نسيت أن أزيل الواقي الذكري من فرجي بعده. وفي الثانية والعشرين، وأقمت علاقة حبّ غير متبادلة مؤلمة مع أحد أساتذتي أصبحت فيما بعد علفاً لروايتي الأولى. وفي الرابعة والعشرين دفعتني الصعوبات التي لقيتها في كتابتي، والاكتشاف المفاجئ بأن خطيبي آنذاك قد انضم إلى المافيا الصينية، إلى محاولة الانتحار بقطع عروق رسغيّ.

وصدرت روايتي «شنغهاي بيبي»، وأنا في السادسة والعشرين من العمر، ولقيت نجاحاً عظيماً في البداية ـ ثم حُظرت في البّر الصيني. وقد نشرت حتى الآن في أكثر من أربعين بلداً، وأعدت مؤخراً لتصبح فيلماً طويلاً. ويربط عدد قليل من الناس زي هوي، الفتاة الصغيرة التي

ولدت في معبد «المطر الورع»، بالكاتبة التي أطلقت عليها الصحافة الصينية لقب «الأديبة الحسناء التي حطمت المحرّمات».

وفي الثامنة والعشرين من عمري، انتقلت إلى نيويورك وشهدت الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمي. في ذلك الحين، لم أكن أستاذة زائرة مجدّة في قسم دراسات شرق آسيا في جامعة كولومبيا. وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول، كنت أحاول بصعوبة الترويج للطبعة الأمريكية من رواية «فتاة من شنغهاي».

لكن كلّ هذا يبدو غير ذي أهمية. ففي كلمات الشاعر الفرنسي رامبو، الأثير لديّ: «لقد أصبحت أعرف السماء التي يشق عنانها البرق، ومسارب المياه، والأمواج التي تتكسر على الصخور وتيارات المياه. أصبحت أعرف المساء، والفجر يطلع مثل أسراب الحمام، وبدأت أرى أحياناً ما يتصور الرجال أنهم كانوا قد رأوه!»

لقد رأيت كلّ ما يمكن رؤيته تقريباً من الوهم الإنساني. رأيت ما يقبع وراء غلالة الخزامى. رأيت انحلال الحياة البطيء في كلّ مظاهره وأوهامه، وشاهدتها وهي تخبو.

عندما رأيت موجو لأول مرة في مطعم إيطالي يدعى «أنا كوبي» في الطرف الشرقي من حي الفيليج، لم يكن حبّاً من أول نظرة.

في تلك اللحظة بالذات، لم تكن لديّ وسيلة لمعرفة أنه كان مقدراً عليّ أن يظهر أمامي كالروح ويصبح حبيبي الحميم، أسرتي التي تربطني إلى الأبد، إلهي وطفلي. لم أكن أعرف أنه كان مقدراً علينا أن يضم أحدنا الآخر بقوة ونمارس الحبّ، وأن نتقاسم الأحلام ذاتها في ضوء القمر البارد، وأن يحبّ أحدنا الآخر، وأن نتشاجر ونضحك ونلهو ونصرخ بالحبّ.

عند العشاء في ذلك المساء، أذكر أنه كان يجلس معنا إلى المائدة

شخصان آخران ـ ناشري البريطاني ومحامية متخصصة بالطلاق ولدت ونشأت في نيويورك. وهي المحامية التي ساعدت، قبل عشر سنوات، زوجة موجو اليهودية السابقة في الطلاق والحصول على معظم ما يملكه. وخلال ذلك وقعت في غرامه. وظلت صديقة موجو على مدى سنتين، ولا يزالان صديقين. وصادف أيضاً أنها كانت أعزّ صديقة لزوجة ناشري البريطاني. أعرف أن الأمر يبدو معقّداً، لكن هكذا هي العلاقات الحديثة.

خلال وجبة الطعام، كان حديثي موجهاً بصورة رئيسية إلى الشخصين الآخرين، ولم أعر الكثير من الاهتمام للشاب الياباني الطويل ذي البنية القوية (في الحقيقة كان ربع إيطالي) وكان جزءاً من خنصر يده اليسرى مبتوراً. لم يكن معظم الصينيين في الماضي مولعين باليابانيين كثيراً، إلا أن ذلك لم يكن يعنيني أكثر من الأفكار النمطية التي كنت أسمعها عن الرجال اليابانيين: بأنهم عنيدون، متصلبون في آرائهم، وزير نساء، ومتعصبون لقوميتهم.

قبل انتهاء العشاء، وجدت نفسي مضطرة لأن ألاحظه. فقد بدا أن ثمة تياراً خفيفاً يتدفق بيننا، نوعاً من التفاعل الكيميائي. لم أعرف إن كان سبب ذلك ضحكته، أم أسلوبه في الكلام، أم نظراته الصريحة والمكشوفة التي كان يصوّبها نحوي. أو ربما كان إصراره على أن أتذوق قطعة لحم العجل المشوية بالصويا التي قطعها لي من صحنه. على أية حال، فإن ثمة شيئاً أرغمني أخيراً على أن أرمقه بنظرة متفحصة أكثر.

وبدا أن قميصه الموّشى برسوم أزهار على ياقته وصدره، من النوع الذي يغرم بارتدائه رجل من أمريكا الجنوبية (واكتشفت فيما بعد أن ثمن القميص ثلاثمائة دولار وهو من ماركة كوم دي غارسون). وبدت

الحقيبة العملاقة عند قدميه تكفي لأن تكون خيمة صغيرة، وتخيّلت أنه يحملها إذا اضطر للهروب من عشيقته في فترة وجيزة. وكانت قسماته، التي تظهر بوضوح أصوله المختلطة، عادية إلى حد كبير. كان هادئاً وجامد المشاعر كأنه يتستر وراء ضباب منيع. وبالمقارنة مع قميصه الصارخ والفاضح وحقيبته العملاقة، بدا وجهه رقيقاً. ثم عينيه. . . عليّ أن أعترف بأنّ في عينيه بريقاً خاصاً، وكأنه انبثق من أعماق الأرض، مثل مصباح دُفن داخل منجم، يتوهّج بتألق غريب.

كان نوعاً من الضياء الذي قد يلهم المرأة برغبة جامحة مباغتة، وخاصة امرأة مثلي، تجد نفسها منبهرة في الكثير من الأحيان.

بعد أن تحادثنا على الهاتف ثلاث أو أربع مرات، وأصبحنا نتبادل الرسائل الإلكترونية بشكل يومي تقريباً، التقينا أنا وموجو في أول موعد لنا قبل عيد الميلاد بأسبوع تقريباً.

في ذلك المساء، وفي الساعة السابعة، كنت لا أزال في الحمّام أجفّف شعري على نحو مسعور. وكانت الثياب، والكتب، والصحف، وعدّة جوارب لم يكن لديّ الوقت لأدقق إن كانت منسولة أم لا، مبعثرة على الكنبة وعلى أرضية غرفة الجلوس. وعندما سمعت رنين الجرس، هرعت إلى الانترفون وقلت له مستجدية: «أرجوك، امنحني خمس دقائق فقط!»

عندما يكون لديّ لقاء مع أحد، يبدو أني لا أملك الوقت الكافي لأفعل كلّ ما أحتاج إلى عمله مسبقاً. فعندما ولدت، يبدو أن قدري قد خُتم بهذه الكلمات: «قُدِّر عليها أن تتأخر باستمرار».

وقد استقر رأيي أخيراً على أن أنتعل حذاء ذا كعب عال، مدبب الرأس، من ماركة فراغامو، وارتديت معطفاً صوفياً قرمزياً غامقاً. لكنني لم أجد إلا فردة واحدة من القفازات الجلدية المطّرزة يدوياً التي كنت

قد اشتريتها عندما كنت في روما. أخذت نفساً عميقاً، ورفضت أن أدع فردة القفاز الأخرى تعكّر مزاجي.

أغلقت الباب خلفي وهبطت الدرج ووجدت رجلاً طويلاً يقف خارج العمارة في الريح التي تجمّد الأوصال. كان يضرب الأرض بقدميه كدبّ بني أشهب وكان يبدو وكأنه أغمي عليه من شدة البرد. إنه موجو.

تنفّس الصعداء عندما رآني وشعت من فمه ابتسامة نقية، دافئة، ابتسامة بوسعها أن تذيب الثلج. عندما وقفت أمامه، اعتراني شعور بالخجل بشكل غريب.

انحنى ليعانقني، ولاحظت أنه بالإضافة إلى الحقيبة العملاقة المعلقة على كتفه، كان يحمل أيضاً كيس تسوّق ورقياً كتب عليه «مخازن ساكورا نيشي» مزيّناً بعقدة على شكل فراشة خضراء وحمراء متقنة. عند ذاك فقط، أدركت أن عيد الميلاد على الأبواب.

«هذا لك»، قال وهو يقدم لي الكيس.

«شكراً. . . هذا لطف كبير منك. هل هي هدية عيد الميلاد؟» تفحصت الرزمة الضخمة، لكنني لم أستطع أن أخمّن ما بداخلها.

قال: «لا أعرف. أظن ذلك. شعرت أني يجب أن أحضرها لك، ولحسن الحظ كانت هناك تنزيلات في المخزن».

كان رده صريحاً للغاية إلى حد أني ضحكت. «ما بداخلها؟»

«أظن أنك لن تعرفي حتى تفتحيها!» أجاب بابتسامة خبيثة.

وبسرعة رحت أمزق الرزمة وفتحتها لأجد بداخلها صندوقاً. عندما قرأت الكلمات على جانبها لم أكد أصدق. . . إنه مرطّب جوّ!

فيما رحت أحدّق غير مصدقة، سألني قلقاً: «ألم يعجبك؟ أعرف أنه ليس هدية رومانسية جداً، لكني تذكّرت أنك قلت لي على الهاتف

ذات مرّة إن الجو في نيويورك جافّ جداً، ويزداد الأمر سوءاً عندما تشتد الحرارة في الداخل. قلتِ إن ذلك يسبب لك الرعاف. . .»

ازداد تحديقي فيه، وبذلت جهداً لأكتم ضحكتي، وهمهمت: «هل قلت ذلك حقاً على الهاتف؟» لكني حقاً أحتاج إلى واحد منها. إني فتاة عملية كما تعرف. لو خيّرت بين مرطّب الجوّ وباقة من الورد لاخترت الأول بدون تردد. . .»

بكلمات الشكر هذه، عانقته وطبعت قبلة كبيرة رطبة على فمه. وما أن التقت شفتانا، حتى أحسست بتيار كهربائي مفاجئ يسري في جسدي.

ابتعد أحدنا عن الآخر على الفور ورحنا نضحك. «كما ترين، فإن نيويورك جافّة جداً حقاً». لقد ساعدني تعليقه على الأقل في إخفاء شيء من الإثارة والإحراج اللذين انتاباني.

قلت: «ربما كان من الأفضل إن أنا، آه. . . وضعت هذا في شقتي أولاً»، وقد تضرج وجهي بلون قرمزي غامق.

حملت مرطّب الجوّ وهرعت أصعد الدرج، فيما انتظر موجو في بهو المدخل الدافئ الصغير في الطابق الأرضي.

عندما هرعت أصعد الدرج، ناداني قائلاً: «كوكو! لا داعي للعجلة. خذي وقتك. وبالمناسبة، يستحسن أن ترتدي ثياباً أكثر دفئاً. إن المعطف الذي ترتدينه جميل، لكن الجو عاصف في الخارج».

«الآن، إنه ليس اقتراحاً تسمعه عادة في أول موعد. . .» فكّرت مندهشة وأنا أهزّ كتفيّ.

عندما هبطت الدرج ثانية، كنت قد ارتديت سترة واسعة سوداء واقية من المطر بدت أشبه بكيس نوم. ابتسم موجو.

اشتد انجذابي إليه الآن. كان فيه نوع غريب من الدفء. لا الدفء الذي يمكنك أن تحصل عليه من المدفأة أو من جسم رجل عار، بل ذلك الدفء الذي يحمل لي تداعيات غريبة: رحم أمّ، أو قراءة مقاطع من الكاما سوترا في معبد تضيئه مصابيح زيتية. ربما كانت الأولى ذاكرة ما قبل الولادة، وقد تكون الثانية ذكرى مراسم التعميد التي أجراها لي رهبان جزيرة بوتوو بعد يوم من ولادتي. إذ إن ذكريات من هذا النوع تنبعث من حدس غامض، وكأنها لم تكن مخزنة في عقلي، بل في بعض خلايا جسدي ـ ذكريات يمكن أن تنطلق بين الحين والآخر بأقل لمسة. إن حدساً مرهفاً كهذا قد يكون في غالب الأحيان أكثر دقة من المنطق بكثير.

وهكذا، وبعد أن تسلحت بجهاز مرطّب جوّ جديد، وارتديت سترة واقية من المطر ذات قلنسوة كبيرة سوداء مريحة تشبه كيس النوم، عرفت أني وقعت في غرام موجو.

اجتزنا سبعة أو ثمانية شوارع في جادة غراند أفنيو، ووصلنا إلى مطعم ماليزي يدعى نيونيا، يديره شخص ماليزي صيني، ويقدم طعاماً يشبه كثيراً المطبخ الصيني. كانت معدتي عنيدة إلى درجة لا يمكن إصلاحها إلى حد أني كنت أكاد أتناول طعاماً صينياً كلّ يوم منذ أن وصلت إلى نيويورك. لم يكن الطعام في مطعم نيونيا جيداً مثل الطعام في الصين، إلا أنه كان بالتأكيد أفضل من لا شيء.

لم تكن وجبتنا سيئة، وخاصة أرزّ جوز الهند، والسمكة المطهية بالبخار المشبّعة بصلصة الصويا، والتوفو مع بعض الخضراوات المقلية. كان موجو يحب الأكل، وأصرّ على أنه يستطيع أن يتناول أربع بل خمس وجبات في اليوم. وادعى أن الأكل السيء يعكّر مزاجه، وأن المزاج السيئ يؤثر على صحته.

«بالنسبة لي، فإن الصحة والسعادة أهم شيء في الحياة» قال لي.

سألته: «وماذا عن المال؟»

«يأتي في درجة أقل أهمية. فما دام لديّ ما يكفي فأنا سعيد». ثم انهمك في تناول سمكته، وظل يأكل حتى نظّف آخر حسكة.

قال: «بالطبع، لو أتيحت لي الفرصة لأصبح غنياً فإني سأنتهز الفرصة»، وأضاف: «فقد اكتشفت أنه لكي يصبح المرء بليونيراً فإنه يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة. ولا يملك الكثير من الناس الشجاعة ليتصوروا أنه يمكنهم أن يكسبوا ذلك القدر من المال».

قلت في نفسي إن حكمته في أن يصبح المرء ثرياً فريدة من نوعها.

بالإضافة إلى قيامه بتأليف كتب في الرحلات، فقد تطوّع موجو كذلك للعمل في عيادة طبية في جامعة المدينة، لتعليم طرائق التأمل في الطاويّة واليوغا الهندية. وكان عمله الرئيسي إنتاج أفلام وثائقية مستقلة (التي أعتبرها أيضاً نوعاً من أعمال التطوع، لأن قلة من الناس يحصلون على نقود لتمويل الأفلام الوثائقية). وكان له مكتب في شارع ويست برودواي في حيّ سوهو، لم يكن يبعد أكثر من مائة ياردة عن شقّتي في شارع واتس.

في إحدى رسائله الإلكترونية، قال إنه بدأ مشروعاً جديداً. وكان نجم الفيلم الذي يعدّه مغنياً حيوياً من أمريكا اللاتينية يدعى خوليو، والذي أطلق عليه لقب «ضمير جمهورية الدومنِكان». وكان الاثنان صديقين جيدين أيضاً، قريبين كأخوين.

سألته: «كيف حال الفيلم الوثائقي؟»

«أوه، هناك مشاكل أكثر مما كنت أظن. فمرّة هناك مشكلة مع الأجهزة، ومرّة أخرى تسمّم أحدهم من الطعام. والأنكى من ذلك، نتخاصم أنا وخوليو كثيراً». ابتسم موجو، وأضاف: «إن الأمريكيين اللاتينيين أصدقاء رائعون، لكن العمل معهم صعب للغاية».

ثم قال فجأة وكأنه تذكّر شيئاً ذا أهمية: «أه... لقد أحببت كتابك حقاً».

«إذن فقد قرأته أخيراً». وأطلقت تنهيدة طويلة، وارتسمت على شفتي ابتسامة انتصار. كان قد أخبرني على الهاتف ذات مرّة أنه خرج واشترى النسختين الإنكليزية واليابانية من الكتاب، لكنه لم يكن يشعر برغبة كبيرة في قراءتهما. وقال إنه يشعر بالقلق لأنه إذا لم يحبّ الكتاب فقد يكون لذلك تأثير سلبي على مشاعره الرومانسية تجاه المؤلفة.

«أولاً، أنا وكتابي شيئان منفصلان تماماً. وثانياً، ليس من الضروري أن تحبّني». كان ذلك ردّي الفوري على الهاتف. وقد أسفت لأني قلت ذلك ما أن خرجت الكلمات من فمي، وواثقة من أن نبرتي المجروحة تؤكد أني أبدي اهتماماً برأيه. فإذا كانت العلاقات بين الذكر والأنثى حرب إرادات، عندها أكون قد عرفت أن إطلاق النار من جهتي قد جعلني في وضع سيئ، مع أني كنت البادئة في إطلاق النار.

سادت لحظة صمت قبل أن يقول موجو بهدوء: «أنا آسف».

إني أكره تلك الطريقة في القول: «أنا آسف». بالطبع أكرهها لأن الرجال الصينيين غير معتادين على قول «أنا آسف» للنساء. لكن الطريقة التي تلطخ فيها الثقافة الغربية عبارة «أنا آسف» في كل مكان وكأنها فازلين، بل حتى قد تكون أسوأ من ذلك أحياناً. إنها تبدو عبارة مهذبة جداً، لكنها تضع حاجزاً زجاجياً بينك وبين من يحدثك. إنها تجعلك تتجمد.

«لا توجد مشكلة. حسناً، شكراً للدعوة». وتعمدت أن أتثاءب وأنهيت المكالمة بسرعة.

لم يكن فراقاً وديّاً.

في اليوم التالي، أرسل لي موجو بالبريد الإلكتروني كاريكاتيراً رسمه

هو عن مهرّج صغير يأكل حبة خوخ. لو كان يحاول أن يضحكني فقد نجح في ذلك.

«إنك محظوظ لأنك ما زلت تحبني بعد قراءة الكتاب»، قلت الآن، بشيء من التهكم.

«لقد قرأت النسختين الإنكليزية واليابانية، لكني أظن أن الترجمة اليابانية أفضل من الأصل»، أجاب موجو، متجاهلاً سخريتي. «إن أوصافك سريعة الفهم، وشاعرية».

بدا صريحاً وصادقاً للغاية إلى حد أني قرّرت أن أصدقه. ابتسمنا ونظر أحدنا في عينيّ الآخر. لوهلة خيّل إليّ أني كنت أحدّق في مرآة.

٤
في منتهى الإثارة

أحببني بدون خوف!
ثق بي بدون تردد!
احتجني بدون إلحاح!
أردني بدون قيود!
اقبلني بدون تغيير!
اشتهيني بدون كبت

ديك ستفين

. . .يعتريني إحساس بالوهن،
أحترق في سرير عروستي الحلوة،
في دوامة مركز العدم، في تعاريج
الجنة، في براعم العالم المنسوج.
ونَهَضَتْ مزهرة في الثلج الذائب عنها.

ديلان توماس، «حكاية شتوية»

نيويورك ـ الخريف

بعد يوم واحد من وصولي إلى نيويورك، وقعت هجمات ١١ أيلول الإرهابية. ورأيت بأم عينيّ هذين البرجين الضخمين وهما ينهاران.

وكان الشهر الذي أعقب تلك الهجمات حزيناً وبائساً. فقد كان الهواء مليئاً برائحة الموت، ومغلفات مليئة بالجمرة الخبيثة لا تزال ترد من جهات مجهولة، وطائرات لا تزال تهوي من السماء، وكان الصيف

شديد الحرارة والجفاف، والطعام الصيني سيئاً، والمحامون جشعين، ومواعيد على العشاء مع رجال يتوقعون أن أشاركهم دفع الفاتورة مناصفة.

وبمناسبة الحديث عن المواعيد مع الشبان في نيويورك، فإني لم أر مدينة كئيبة كهذه. إذ لا يوجد لرجال هذه المدينة نظير على سطح كوكبنا. ففي أحيان كثيرة، كان سعيهم للتفوق والسيادة اللتين كانت تدفعهم إليهما مادة التيستوستيرون مثيرة، إلا أن أنانيتهم وعدم إحساسهم بالأمان في معظم الأحيان، يجعل المرء يشعر باليأس منهم. ويمكنك أن ترى ظلال هؤلاء الرجال في أفلام وودي ألين، وفي حلقات مسلسل «الجنس والمدينة». نعم، هناك رجال يرفلون بالصحة الجسدية والعاطفية والمالية في العالم، لكني لا أظن أن لهم وجوداً في نيويورك.

ففي حفلة خيرية أقامها شخص مهم في أحد الأيام، التقيت برجلين: جون في الثالثة والأربعين من عمره، وهو أحد المنتجين الأقوياء في محطة تلفزيون سي بي إس، وميلتون، في الثامنة والثلاثين من عمره، وهو نجم صاعد في شارع وول ستريت المالي.

ودون اكتراث سمح جون لنفسه بأن يزّل لسانه عدّة مرات أثناء حديثه عن التمييز العنصري الطبيعي، وأبدى في الوقت نفسه رغبة جامحة في أن تتمكن امرأة آسيوية من إنقاذه. وقد عرفت سبب قوله هذا عندما سنحت له الفرصة لأن يخلع بنطاله أمامي، واكتشفت أن لديه قضيباً من أصغر القضبان التي رأيتها في حياتي. فهرعت أجري مذعورة كالأرنب إلى خارج شقّته الفاخرة. وعندما فكّرت بالأمر فيما بعد، شعرت بالحزن عليه، لكني أحسست بشيء من الإطراء أيضاً باسم جميع النساء الآسيويات بأنه يوجد رجال غربيون يعتقدون أن أجزاء من أجسادنا أكثر جمالاً بعض الشيء، حتى لو كانت تلك مجرد عبارة يحلو لهم تردادها.

أما ميلتون الوسيم، ذو الثمانية والثلاثين عاماً، ، فقد بدا أنه يخلط في مشاعره تجاه الفتيات الآسيويات بين الإحساس بالذنب والافتتان ربما لأن أباه كان قد قتل أختين توأمين صغيرتين في حرب فيتنام. ولسبب ما، خيّل إليه أني أنا أيضاً في الثالثة والعشرين من عمري. وبعد عدّة لقاءات، اكتشفت أن فيه جانباً جميلاً ورومانسياً ـ فقد بعث لي بباقة ورد كبيرة. وكان يحلو لميلتون أن يتخيّل إما أنه يرغب في أن يحطّم الفتاة التي ترافقه، أو أن ينقذها. وفي نهاية اللقاء الثالث، بدأ يطلق عليّ فجأة اسم «بوسي كات». صُدمت. فقد جعلت لديّ إنكليزيتي الركيكة حساسية تجاه بعض الكلمات، وعلى مائدة العشاء وعلى ضوء الشموع، كانت أي كلمة مثل «بوسي» تثير غضبي بالتأكيد.

وبعد بضعة لقاءات كهذا اللقاء، تصبح لديك رغبة في أن تكوني خنثى ليكون بوسعك أن تفعليها مع نفسك وينتهي الأمر ـ وتوفرين بذلك الكثير من النقود والجدال. فليس من السهل أن تكوني عزباء في نيويورك، وكونك عزباء من آسيا يزيد الأمور صعوبة.

لكن أن تكوني امرأة متزوجة لن يجعل الأمور أفضل بكثير. فقبل أن آتي إلى الولايات المتحدة، سمعت أن زوجاً وزوجة أمريكيين كانا يتقاسمان كلّ شيء مناصفة، بما في ذلك نفقات الطعام والكلب والبنزين. آنذاك فقدت الثقة بالحركة النسوية. فعندما تتظاهر النساء من أجل المساواة في المرة القادمة، يجب أن يحملن لافتات كتب عليها: «نريد المساواة، لكننا لا نريد أن ندفع ثمن العشاء وطعام الكلب أو البنزين».

في جميع الأحوال، دفع موجو الفاتورة عندما كنا في المطعم الماليزي في تلك الليلة.

ربما كانت تلك بداية طيبة.

التقينا بعد هذا اللقاء بفترة وجيزة، قبل ليلة واحدة من سفر موجو إلى جمهورية الدومينِكان ليتابع عمله في برنامجه الوثائقي. أذكر أن ذلك كان في ليلة عيد الميلاد. فبعد أن تناولنا وجبة طعام لطيفة في أحد المطاعم، عدنا إلى شقّة موجو في مانهاتن.

لم تكن شقّته كبيرة جداً، لكن كانت تشيع فيها أجواء تجعل الزوار يشعرون بالراحة.

وكانت النوافذ الكبيرة التي تمتد من الأرض حتى السقف مزيّنة بستائر من الخيزران الياباني، وكان بإمكاني أن أرى الخط الباهت لحديقة سنترال بارك وأفق البنايات حولها. وكانت توجد أريكة جلدية سوداء طويلة، وجهاز تلفزيون كبير، ينتصب فوقه فيل خشبي كان قد جلبه موجو من الهند قبل ثلاثين سنة؛ وعيّنة من المرجان كان قد اصطادها من قاع المحيط، وبضع نباتات في أصص، كانت واحدة منها هدية قدمتها له زوجته السابقة بمناسبة مرور عشر سنوات على طلاقهما. وإني أشكّ في أنه يسقي النباتات أكثر من مرتين في السنة. وكانت توجد إلى جانبها بضع خزانات وصندوق فيه أدراج، منها خزانة قديمة مطلية كان قد اشتراها من البرازيل، كان يبدو أنها ستنهار وستتفكّك إلى قطع في أي لحظة. أما ما خلّف لديّ أقوى انطباع، فهو التحف الزهيدة الصغيرة المبعثرة في أرجاء الغرفة، مجموعة واسعة من حبات الخوخ الصغيرة، وأشكال أجساد نسائية عارية مصنوعة من أشياء مختلفة: من البلاستيك، من الخشب المطلي، من الخزف الصيني، ومن المعدن ومن المخمل.

إن الوقوف في غرفة حقيقية، يقيم فيها أحدهم، جزء من أحدهم، جعلني أشعر وكأني غازية، مختلسة نظر تحاول أن تشبع فضولها.

سرت في أعماقي موجة من الشوق الطبيعي. كانت شهوة جامحة،

ممزوجة بذكريات الطفولة البريئة: خوخ، صيف، حليب، أطفال، مؤامرات، ألغاز. . .

وقفت تحت الأضواء الخافتة ورحت أحدّق في عينيّ موجو. لقد سمّرني الضياء الذي يشع منهما. اقتربت منه كثيراً كي أتمكن من أن أسمع صوت تنفسه، من أن أشمّ رائحة جسده، من أن أرى التورد الخفيف الذي يكسو بشرته.

رفع كوباً من الشاي الأخضر الياباني إلى شفتيّ. رشفت منه رشفة و ـ دون أن أزدردها ـ قرّبت فمي من فمه. وأطبق فمه على فمي وهو يرتعش قليلاً.

اشتبك لسانه بلساني. لا يوجد ثمة شيء في الكون أكثر حميمية من هذا ـ هذا الانزلاق، هذا البحث. الشاي الأخضر النقي، الطازج، بطعمه المرّ قليلاً، ورائحة الجنس التي تجعلك ثملاً، لقد امتلأ كلّ شيء في الحال، وأخذ يدور بسرعة، ويذوب. . . كنا قد دربنا أنفسنا على هذا المشهد الحميمي مرات كثيرة في مخيلتنا، وقد تجلّى الآن، هنا في هذا المكان، وأصبح كما كنا نشتهي.

الطريقة التي داعبتني فيها يداه سحرتني، وقلت لنفسي كم أنا محظوظة حقاً. فلم يداعبني رجل بهذه الطريقة من قبل. برهافة، برقة بالغة، وفي الوقت نفسه بوحشية، وبدون أدنى تردد، بسلطة ونفوذ ملك لا يعبأ بشيء.

وتحت نظراته تخلّى جسدي عن آخر خطّ دفاعي له، تحوّل إلى كرة من الطين، إلى بتلات ممزقة، إلى ذرّة من الغبار، إلى صوت تنهيدة. وما هي إلا لحظات، حتى جعلني أشعر وكأني أحلّق عالياً في السماء. فقد كانت أصابعه وشفتاه هي التي تقود جسدي، تجعلني أعلو وأهبط، تجعلني أبلغ الرعشة مرات ومرات. لن أدع نقطة أخرى من الماء تتدفق مني؛ ظننت أني سأموت من الظمأ، فقد كنت شديدة العطش وجافة.

وبعد ذلك، وفي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، عندما توقف أخيراً عن المداعبة بأصابعه وشفتيه، وبدأ يستعد ليمنح نفسه لي، أصبح عنيناً.

لكن ذلك لم يشعرني بخيبة الأمل على الإطلاق. فقد كنت متكئة على الوسادات الطرية الناعمة وجسدي واهن، مسترخ. لقد فقدت وعيّ.

في الصباح، تسلل ضياء الشمس عبر النافذة وغمر السرير كطبقة من العسل الممزوج بالماء. كانت هذه هي المرة الأولى التي أنام فيها نوماً هانئاً منذ أن وصلت إلى نيويورك منذ ثلاثة أشهر.

كانت الوسادة إلى يساري خاوية، وكانت على الشراشف آثار طفيفة لجسد. وإلى يساري ـ على الأرض إلى جانبي من السرير ـ كان هناك جهاز مرطب للجو ينبعث منه بخار أبيض مألوف بعض الشيء. نظرت إليه، وابتسمت لنفسي.

تمطيت بتكاسل، غادرت السرير، وسرت حافية إلى غرفة الجلوس.

كان موجو يجلس القرفصاء في بيجامته على وسادة مستديرة زرقاء داكنة اللون. وكان ظهره ثابتاً لا يتحرك. ثمة شيء فيه أثار فيّ شعوراً بالرهبة.

هناك بعض الرجال الذين تشعرين بأنهم جزء منك عندما يلجونك، لكنهم ما أن يغادروا السرير حتى يصبحون غرباء وتشعرين أنك لم تريهم في حياتك. أما موجو فلم يكن من هذا النوع.

كان سكونه هو الذي جعلني أحسّ بالرهبة والغرابة، فمن هذه الوضعية التأمّلية ذات الأصل الهندي أو الطاوي، انطلق من جسدي نوع من الطاقة الخارقة إلى الخارج.

تكوّرت واستكنت بهدوء على الأريكة، ورحت أراقب ظهر موجو وهو يتأمّل. كان نور الشمس يتسلل من خلال خصاص النافذة، تلقي بأشعتها على قطع الأثاث وجميع حبات الخوخ وأشكال النساء من مختلف الأشكال والأحجام. وكأنه عالم من الأحلام.

لا أعرف كم مضى من الوقت، لكني عندما أفقت من نوم مفاجئ، كان موجو لا يزال في الوضعية نفسها. يبدو أن الزمن لم يمسّه. كان هنا، لكنه لم يكن هنا.

تمطيت بسعادة. ففي اللحظة التي وطأت فيها قدماي هذه الشقّة، كان ثمة شيء آمن ودافئ أحدث تأثيره فيّ، في جسدي وروحي. كان وكأنه بيت عشت فيه منذ عشرات السنين، لا ليلة واحدة فقط.

نهض موجو من فوق الوسادة أخيراً واتجه إليّ وسألني مبتسماً: «ألا تشعرين بالبرد؟»

قبّلني على شفتيّ، ومسّد جسدي الذي كان لا يزال عارياً براحة يديه بقوة.

اقشعر بدني من البرد.

قال: «سأجلب لك رداء الحمّام»، واستدار نحو الحمّام.

شددته وأوقفته وقلت له: «كلّ شيء على ما يرام». كنت متوهجة قليلاً، لكني أدرت وجهه بحزم إلى وجهي وقبلته ببطء. «إن ما أريده هو...» قلت مترددة، وقد امتدت إحدى يديّ خلسة إلى تحت خصره. تأوه قليلاً، ثم دفعني بقوة على الأريكة.

هذه المرّة لم تكن هناك مداعبة طويلة بالأصابع والشفتين. بل انطلق إلى الحمّام وعاد بسرعة وهو يحمل بيده واقياً ذكرياً، ثم ولج جسدي بسرعة وبلكزات قوية.

عندما آتتني الرعشة قلت في نفسي: «قد يكون أي شخص، أيّ شيء».

آتته الرعشة أيضاً، لكنه لم يقذف.

في عصر ذلك اليوم، غادر موجو على متن الخطوط الجوية الدومنِكية. سنفترق لمدة ثلاثة أسابيع. بالنسبة لي، كان هذا أمراً فظيعاً وهذه الفترة دهراً.

٥
عيد ميلادها التاسع والعشرون

يجري الزمن كما تتدفق المياه!

كونفوشيوس

إن أصعب السنوات في الحياة هي التي بين العاشرة والسبعين من العمر.

هيلن هايز

في الثالث من شهر كانون الثاني، لم يكن ثمة عندليب يغرّد في مدينة نيويورك، ولم تكن هناك موسيقى جاز تملأ الأثير، ولم يكن هناك موجو، ولم تقم حفلة عيد ميلاد رائعة بمناسبة بلوغي التاسعة والعشرين. بل كانت هناك ريح تصفر تهبّ من النهر الشرقي ومن نهر هدسون (الغربي). وقد جعلت هذه الريح بشرتي تتغضن من شدة البرد.

إن التاسعة والعشرين عمر أخرق حقاً. فلا تعرفين إن كنت لا تزالين فتاة، أو إن كنت قد أصبحت امرأة. وتمنحك التنورة القصيرة القديمة القابعة في الخزانة إحساساً مؤلماً، إحساساً بأن الشباب يولي بسرعة. ومع أنك قد تبلغين التاسعة والعشرين بسهولة أكبر مما تبلغين التاسعة عشرة، فإنك لا تعرفين إن كانت ذاتك الحالية قد أضحت أكثر سعادة أم أكثر حزناً.

في التاسعة والعشرين، كان لدى أمّي ابنة في الثامنة من عمرها. في

التاسعة والعشرين، حظيت مارلين مونرو بحبّ جميع الرجال في العالم، وفي التاسعة والعشرين تحولت أكثر الإلاهات الآسيويات المحبوبات، غوانين، من أميرة إلى راهبة، ووصلت في عبادتها إلى مرحلة مثالية، واكتسبت الخلود في «أرض بوذا وبحره وسماءه» في جزيرة بوتوو.

في التاسعة والعشرين، غادرت وطني ورحت أجوب في أرض غريبة. ولحسن الحظ أني أحببت نيويورك قليلاً ـ وخاصة نيويورك التي يوجد فيها موجو.

عندما استيقظت في صباح ذلك اليوم، اتصل بي موجو. ما أن رفعت سماعة الهاتف حتى سمعته يقول: «مرحباً وعيد ميلاد سعيد! الآن اصمتي برهة».

ضحكت، لكنه أسكتني بسرعة. ضغطت السماعة على أذني، وتناهى إليّ صوت شجيّ، شيء يشبه تغريد طير.

«ما هذا، طير؟» سألته.

«هل أعجبك؟» لم يجبني على الفور.

«نعم، وكأني أشمّ رائحة غابة مطرية استوائية. ما نوع هذا الطير؟»

«إنه ليس طيراً، إنه نوع خاصّ من الضفادع الموجودة هنا فقط. ويطلق عليه السكان المحليون كوكي، ضحك، فخوراً بنفسه بعض الشيء.

«حقاً، ضفادع تغرد كالطيور. أحضر لي واحدة منها!» ضحكت أيضاً بسعادة.

فأجاب: «سأحضر لك هدية، لكن ليس كوكي.

يقال إن اليابانيين يحبون تقديم الهدايا. لا أظن أن هذا عيباً فيهم.

عندما شغّلت الكمبيوتر وجدت عدداً كبيراً من الرسائل الواردة من الأصدقاء يتمنون لي عيد ميلاد سعيداً. فقد قالت صديقتي إكسير إنها أرسلت لي غلالة نوم قصيرة من الحرير، بيضاء اللون، وأضافت أنها رسمت زهرة لوتس سوداء كبيرة عليها بالأكريليك.

أوراق لوتس، لون أسود، غلالة نوم من الحرير - أعرف أنها من الأشياء القليلة التي تحبينها. وحسب ما درجنا عليه، فقد صنعت منه قطعتين، متشابهتين تماماً: واحدة لك وواحدة لي. عاشت صداقتنا! أرجو أن تكوني امرأة سعيدة في التاسعة والعشرين، أنهي كتابك، واعثري على رجل جيد.

ملاحظة: تذكرت، فقد كويت زهرة اللوتس، لذلك لن يبهت لونها في الغسيل.

لم أتمالك نفسي من الابتسام أمام جهاز الكمبيوتر.

من بين كلّ هدايا عيد الميلاد التي أتلقاها كلّ سنة، كنت أتطلّع دائماً بلهفة شديدة إلى الهدية التي تقدمها لي إكسير. فقد كانت تحبّ أن يكون لديها أشياء كالتي توجد لديّ تماماً. فسرعان ما درجت العادة بيننا على أن نشتري مجموعتين من الهدايا، واحدة لي وواحدة لها. ففي إحدى المرات، اشتريت مجموعتين إيطاليتين من كاشفات الإباضة، واحدة لي وواحدة لها. وعندما فتحت مجموعتها، كادت تقتلني. فقد كنت قد نسيت أنها لم تعد بحاجة إلى مثل هذه الأشياء.

أما ابنة خالتي زو شا، التي كانت تكبرني بأربع سنوات، فقد أرسلت لي هي وزوجها الرسام آه ديك بطاقة إلكترونية عليها صورة وجه ابنهما الصغير الرائع الباسم أبداً الذي يبلغ من العمر ثلاثة أشهر.

كان وجه هذه الطفلة الصغيرة الباسم يبعث فيّ تلقائياً خيطاً رفيعاً من الحسد. فمنذ أن كنا طفلتين صغيرتين، كنت أغار من جمال زو شا

وذكائها، ومن شعبيتها ورقة شمائلها في المدرسة الابتدائية. وقد فعلت لها أشياء فظيعة، مثل ما فعلت يوم لطخت بالحبر تنورتها الجورجيت البيضاء التي كانت سترتديها في الحفل الذي تقيمه المدرسة.

أما الآن، فلم تكن أمّاً سعيدة فقط، بل كانت كذلك تشغل منصب مديرة في إحدى مؤسسات العلاقات العامة الاستشارية الأمريكية في شنغهاي. وكانت رعايتها لعملها وأسرتها في وقت واحد، تجعلها فرداً من الطبقة المتوسطة الصينية الآخذة بالنمو بسرعة.

ومع أنه كان يبدو أن مداريّ حياتنا لن يلتقيا، كانت إحدانا لا تزال تقدّر الأخرى، وكانت الواحدة منا تصبو أحياناً إلى الحياة التي تعيشها الأخرى. فقد كنا نعرف ما هي الفرص المتاحة لنا، وكيف نطور أنفسنا، وكنا نعرف أنه أصبحت تتوفر لهذا الجيل من النساء فرص أكبر بكثير مما كانت تتوفر للجيل الذي سبقنا.

اتصل بي صديقي القديم جيمي ونغ واتفقنا على تناول العشاء معاً.

كنا قد التقينا أنا وجيمي ونغ قبل ثلاثة عشر عاماً. وقد كان آنذاك شاعراً شاباً مشهوراً في الصين، مغروراً ومتغطرساً. ولم يكن يحب الحكومة، ولم تكن الحكومة تحبه.

وبعد حادثة ساحة تيانمين في عام ١٩٨٩، هاجر بسرعة وجاء هو وزوجته ـ شاعرة مثله ـ وابنته المولودة حديثاً إلى نيويورك. وما أن وصلوا، حتى تخلى هو وزوجته عن حياة الشعراء ليتمكنا من إعالة أسرتهما. فالعيش في هذه المدينة يكلف غالياً. وقد حصلت زوجته على وظيفة في مصنع للألبسة، وفي مطعم في الحيّ الصيني، أما هو، فقد التحق بكلية الحقوق، وراح ينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي يحصل فيه على شهادته ليزاول مهنة المحاماة. وما أن أصبح محامياً مختصاً بالهجرة حتى سارع وفتح مكتبين اثنين، واحد في حيّ فلاشينغ،

والآخر في مانهاتن ليتمكن من خدمة أكثر من مليون صيني يرغبون في الحصول على بطاقة الإقامة. لكنه طلقّ زوجته فيما بعد. وأسست زوجته السابقة شركة تخصّصت في استيراد الأثاث القديم المقلّد من الصين. وكانت تحقق أرباحاً تزيد على مليون دولار في السنة.

سمعت أن تسعين في المائة من الشعراء يحبون أن يكسبوا المال، لكنهم يجب أن يخرجوا ويحاولوا.

منذ أن وصلت إلى نيويورك، كان جيمي ونغ يتصل بي مرّة في الأسبوع أو الأسبوعين ويدعوني إلى العشاء. كان وزنه قد ازداد وخفّ شعره، وبدت على وجهه قسمات المحامي القلق المتحفز. ولم يتزوج منذ طلاقه، وكان لا يزال يحب أن تكون بيرته باردة، ونساؤه مثيرات. لكنه كلما نام مع عدد أكبر من النساء ، ازداد شعوره بالوحدة.

قال لي ذات يوم إنني أفضل شخص يرافقه إلى العشاء. وكان أحياناً يشعر بالاستياء عندما لا أتمكن من اصطحابه إلى العشاء كلّ أسبوعين، لكن هذا الأمر، لم يكن يدوم إلا بضع ثوان فقط.

لم تكد تشوب صداقتنا أية شائبة. وكان أحدنا يقدّر الآخر، يهتم بالآخر، ومن الغريب أننا لم نكن نتجادل قط. لكن أحدنا لم يقع في حبّ الآخر أيضاً. فحتّى الآن، لم تجتح آفة الشهوة الجنسية أو الرغبة أياً منا، وكنا نناقش أمور حياتنا الجنسية بحرية.

هذه المرّة، اخترنا مطعماً من طراز شنغهاي في شارع موت في الحيّ الصيني يدعى زينغ كسينغ العجوز، يقدمون فيه أطباقاً أصيلة من شنغهاي.

ما أن رآني، حتى شعّ وجه جيمي النافد الصبر دائماً. فتح ذراعيه واسعاً وعانقني وقال: «حقاً لا أستطيع أن أصدق أنه مضى على صداقتنا كلّ هذا الوقت!» وهو يرمقني من الأعلى إلى الأسفل.

كنت أرتدي كنزة من وبر الموهير بلون الرز بدون ياقة وفوقها جاكيت جلد أسود. قال: «لم يؤثر الزمن عليك. انظري إلى نفسك، فأنت لا تزالين تماماً كما كنت عندما رأيتك لأول مرّة في بكين، لا تزالين ذات الوجه البريء هذا».

ضحكت عندما سمعت ذلك. فللإطراء تأثيره دائماً. لكنني لم أكن فتاة طويلة، وكان شعري الطويل المنسدل، ووجهي المستدير يوحيان أحياناً بالبراءة.

أخرج من جيبه علبة من الساتان الأحمر معقودة بشريط حريري وقدمها إليّ. «ما هذه؟» أخذتها بفضول، ورحت أهزّ العلبة إلى جانب أذني، لعلي أعرف ما بداخلها. فمنذ أن كنت صغيرة، كنت أتلقى جميع أنواع الهدايا، وكان يشعر الكثيرون بأني لم أكن أعيرهم أي اهتمام. حتى أن موجو اتهمني ذات مرّة بأني «متعجرفة بلا داع».

بدا أن جيمي يستمتع حقاً بتصرّفي الطفولي. ابتسم وقال: «هل تستطيعين أن تعرفي ما بداخلها؟» إنها إسوارة من الأحجار الكريمة. إنها غالية جداً. من المؤكد أني كنت سأهديك قصيدة شعر قبل عشر سنوات».

«من حسن الحظ أن ذلك جاء بعد عشر سنوات»، قلت ضاحكة. لعله ظن أني أمزح، لكني في الواقع لم أكن أتجاهل الجمال المادي حتى في أشد اللحظات توهجاً، أكثر الفترات هوساً بالكتابة. فالحرير جميل، والأحجار الكريمة جميلة، والثياب من ماركة برادا جميلة، وسيارات الفراري الرياضية جميلة، والنقود الأمريكية، وخاصة المطبوع عليها صورة فرانكلين، جميلة أيضاً.

كان جميع الندل في مطعم زينغ كسينغ العجوز يتكلمون بلهجة شنغهاي، وكانت ثيابهم وشعرهم أكثر أناقة من المهاجرين الذين تقوم المافيا الصينية بتهريبهم للعمل في المطاعم الصينية.

أحضر نادل ذو عينين ضيقتين طويلتين قائمة الطعام، وطلبنا نخاع سرطان شنغهاي البحري المطهو بالبخار، «مائة ورقة» لحم خنزير مطهو، خضار مملّحة مع براعم الخيزران، وحساء لحم خنزير 'لذيذ الطعم». إن هذه الوجبات تعود إلى مدرسة الطهي القديمة في شنغهاي، التي اندثرت ولم يبق لها أثر في شنغهاي المعاصرة. من سيخطر بباله أنه يمكن أن يتناولها في نيويورك؟

إن جميع الأحياء الصينية في العالم تشبه قطار بضائع قديماً، يسير ببطء محملاً بشحنة من الذكريات الصينية التقليدية. أما الصين فهي على عكس ذلك، فقد أصبحت تشبه قطاراً سريعاً، ينطلق بسرعة كبيرة إلى الأمام.

كان الطعام لذيذاً، والنبيذ طيباً، والحديث بيننا متدفقاً.

يبدو أن أحاسيس جيمي الشاعرية قد عادت. فقد تحدثنا عن آراء دوستويفسكي وهيرمان هيسة الدينية. ثم انتقلنا في الحديث إلى البيوت والسيارات والحدائق، ثم انتقلنا بصورة طبيعية تماماً إلى موضوعنا الأثير: الجنس.

قلت: «إن نيويورك ليست مدينة مغرية مثل شنغهاي».

فأجاب: «أظن ذلك أيضاً»، وجرع رشفة كبيرة من البيرة، ثم أضاف: «والأسوأ من ذلك أن نيويورك قد تجعل الرجل مهووساً بالجنس لحظة - يشعر بثقة شديدة بالجنس - ثم تجعله في لحظة أخرى عنيناً، ولا يعود يرغب في ممارسة الجنس لمدة سنة».

قلت: «عندما وصلت إلى نيويورك قبل شهر، لم أكن أتأنق وأتجمّل كثيراً لكي لا أتعرض للسرقة أو الاغتصاب»، وهنا ضحكنا أنا وجيمي.

قبل بضعة أيام، اتصلت بي أمّي من الصين وقالت لي بصوت يشي

بالقلق إنها رأت للتو تقريراً إخبارياً يقول أن منحرفاً دفع فتاة أجنبية من فوق رصيف إحدى محطات الأنفاق في نيويورك. وذكرتني بأن أكون حذرة عندما أخرج، وأن أحرص على ألا أرتدي ثياباً ملفتة للنظر، وأن أحاول أن أقف بعيدة عن حافة الرصيف في محطة الأنفاق.

ولكن من طلب مني أن أعيش في هذه المدينة المخزية السيئة السمعة على أية حال؟

إن الجنس هنا يشبه قطعة عملة معدنية صغيرة صلبة يمكن للمرء أن يلتقطها من المكان الذي ألقاها أحدهم على الأرض بإهمال. لقد عمي الناس هنا عن أكثر المتع الجنسية الكلاسيكية، ونسوا معنى الجلوس في مقهى، وإلقاء نظرة إثر نظرة مليئة بالهمز واللمز والسحر، تتدلل كما يحلو لها، تتودّد قليلاً، تتوقّف لحظة، ثم تبدأ ثانية، ترفض مرة أخرى، تتوقّف ثانية للحظة. . .

إن هذا النوع من التانغو يستغرق وقتاً. أما في نيويورك فإن الوقت ثمين.

بدأت شنغهاي تصبح مثل نيويورك، لكنها لن تصبح مثل نيويورك على الإطلاق. فالهواء في شنغهاي على الأقل، رطب وندي دائماً، والهواء هو الذي يذكّرك دائماً بحديقة بعد أن غسلتها الأمطار، أو بامرأة خرجت لتوها من الحمّام.

«في رواية الأخوة كارامازوف»، قال دوستويفسكي على لسان المحقّق الكبير إن الإنسان لا يريد أن يعيش فحسب، بل يجب أن يكون لديه شيء يعيش من أجله». رفع جيمي كأسه عالياً وقال: «نخب الشيء الذي نعيش من أجله».

٦

الثلج

الأشياء الجميلة: معطف أبيض فوق صدرية بنفسجية. بيضة بطّة. يمزج الثلج مع عصير نبات ليانا المتسلق ويوضع في زبدية فضية جديدة. تغطى براعم الأجاص بالثلج.

سي شوناغون، «كتاب الوسادة»،
ترجمة إيفان موريس، ١٩٦٧

أصبح الطقس بارداً وعاصفاً.

استيقظت في صبيحة أحد الأيام، فتحت الستائر المخملية السوداء الثقيلة، ودهشت عندما رأيت الأرض مكسوة بطبقة فضية في الخارج. كان الثلج يتساقط، وكانت عاصفة ثلجية حقيقية تهب بقوة.

ندف كبيرة من الثلج بحجم راحة الكف تتراقص في الهواء، تملأ السماء. إنها في غاية الجمال إلى حد أنها كانت تبدو غير طبيعية. البنايات، الشوارع، السيارات، الأشجار ـ جميعها اختفت وتلاشت في عالم لم يتبق منه سوى الشعر.

عندما كنت فتاة صغيرة، كان الثلج يعني لي حلول السنة الجديدة. مفرقعات نارية، تقشير المندرين (اليوسفي) وتناوله ونحن متحلقين حول موقد المطبخ. لكن لم يتساقط ثلج حقيقي في شنغهاي منذ أن كنت في سنوات المراهقة.

إن المرة الأولى التي هطل فيها الثلج في نيويورك أيقظ ذكرياتي

جميعها عن الثلج. كان عقلي يجول. جلست على كرسي المرحاض، نظفت أسناني، مشّطت شعري، ومارست بعض حركات اليوغا البسيطة، ثم تناولت الفطائر المتبقية من الليلة الماضية. كنت أفعل كلّ ذلك وأنا أحدق من النافذة، أراقب الثلج الأبيض في الخارج. وفي حالة ذهول، تخيّلت نفسي أنني تحوّلت إلى ندفة من ندف الثلج المتطايرة تلك، وأنني أرقص بخفة ورشاقة في الهواء، بيضاء نقية، وحيدة، لا شيء يتحكم بجسدي، ثم أسقط وأقع على الأرض الموحلة، وأذوب، أو يسحقني كعب حذاء عال...

قد تكون سيرورة الحياة بسيطة كبساطة ندف الثلج التي ترفرف وهي تهبط من السماء أو مثل إطفاء مصباح منير، أو مثل انهيار بنايتين من أعظم المباني في العالم لتتحولا خلال ساعة واحدة من الزمن إلى رماد.

لكن عندما تسقط ندف الثلج على الأرض فإنها تذوب وتتحول إلى قطرات من الماء، ثم تتبخّر وتصعد إلى السماء؛ ويأتي يوم تصبح فيه مرة أخرى ندف ثلج تطير في الهواء. ربما كان الموت يشبه ذلك، فترة فاصلة، لذلك عندما تفتح عينِك ثانية، تجد أنك قد بدأت حياة جديدة كاملة في بقعة مختلفة تماماً من العالم.

إن كلّ شيء عابر، متغير، خاوٍ. ومع ذلك فإن هذا النوع من التحول والفراغ أبدي. ثمة طريق يبدو أنه يتجه ببطء نحو المعرفة التامة، وكلّ خطوة في هذا الطريق هي خلود، ولادة جديدة.

أطفئ سيجارتي، وقد أدهشتني هذه الأفكار التي داهمت عقلي كالموجات.

كان الثلج لا يزال يتساقط، إلا أنه بدأ يخفّ قليلاً. سقطت بضع ندف من الثلج على زجاج النافذة وذابت على الفور.

جلست بالقرب من النافذة، وفتحت جهاز الكمبيوتر النقال ورحت

أقرأ الرسائل الإلكترونية التي وردتني. وبالإضافة إلى بريد الدعايات، ترى دائماً رسائل مثل «كيف تجمع مالاً بدون عمل» و «كيف تحصلين على رعشات متعددة»، وكانت هناك رسائل من الناشرين، ومن وسائل الإعلام، ومن طلاب وأساتذة دراسات شرقي آسيا، ومن الطبيعي كانت هناك بضع رسائل شخصية. ومن بين الرسائل العديدة، كنت أختار دائماً رسالة موجو قبل كلّ شيء. فقد كان أحدنا يكتب إلى الآخر كلّ يوم، يحكي أحدنا للآخر ما حدث معه، يشارك أحدنا الآخر توقه للآخر.

أما في رسالة اليوم، فقد أخبرني أنه على وشك أن يغادر إلى هافانا، حيث سيقيم خوليو حفلة موسيقية مجانية لعمّال كوبا.

وسيحضر الحفل عشرون ألف شخص، يشاهدونه وهو يغني لدعم مقاومة دولة صغيرة شجاعة تقف في وجه الإمبريالية الأمريكية. وقال إن كاسترو نفسه سيحضر الحفل. وكان قد أعلن عن الحفل منذ شهرين، إذ علقت الملصقات في كافة الشوارع، وأذيع عنه في محطتي التلفزيون المحليّتين اللتين لم تتوقفا عن إذاعة الإعلانات عن الحفل.

وفي نهاية رسالته، أخبرني موجو أنه تناول طعام الفطور مع زوجتيّ خوليو الأولى والثالثة، وكلتاهما من أمريكا اللاتينية، واحدة شقراء والأخرى سمراء.

ما أن جلسنا لنتناول الطعام حتى بدأتا تتحدثان كلاماً سيئاً عن خوليو، بأرق وأحلى صوتين، يتدفقان كالحليب والعسل. في البدء، تشعرين بأنك ترغبين فيهما، لكن في الوقت نفسه، فإن كلتا المرأتين مدمرتان للغاية، مثل محرّكين لا يتوقفان.

هكذا وصفهما لي.

كانت الملاحظات والأوصاف التي يقدمها لي موجو من جميع الأنواع والأشياء تفاجئني في بعض الأحيان. وكنت أستطيع أن أرى من

خلال عينيه ألواناً وأشكالاً وشخصيات وقصصاً لم أكن قد لاحظتها من قبل، أو لم أكن قد أعرتها أي اهتمام. وأعترف بأني قبل أن ألتقي بموجو، لم أكن أعرف في أي بقعة من العالم تقع جمهورية الدومينِكان.

إذن سيسافر إلى كوبا مع فرقة لإحياء حفلة موسيقية للطبقة العاملة، حفلة موسيقية سيحضرها كاسترو أيضاً. بدا لي ذلك شيئاً رائعاً.

ضغطت على «رد على الرسالة» وكتبت له إن الثلج هطل بغزارة في نيويورك في ذلك اليوم.

إن مشهد الثلج في غاية الجمال والروعة، وكنت أتمنّى حقاً أن تكون إلى جانبي... إني أجلس بالقرب من النافذة أراقب الثلج منذ ساعات، ولا أعرف لماذا، لكن بعض الأفكار الغريبة ما فتئت تحتدم في رأسي، وكنت أفكّر بأشياء كالموت والخلود والبعث...

أخذت نفثاً طويلاً من سيجارتي، تردّدت لحظة، ثم واصلت النقر على لوحة المفاتيح وكتبت:

إني أفكّر بولادة طفل. كنت أمقت فكرة الحمل برمتها. مجرد تخيّلها، شيء عالق في بطنك، يعتصر شبابك، يكبر ويكبر... أما الآن فقد بدأت أعيد النظر في ذلك. ربما معك. حبيبي -

أخذت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، كنت مثارة، سعيدة، وحيدة، لكني لم أكن أشعر بالوحدة.

كان الهدوء يملأ المكان. وكانت أنابيب التدفئة تصدر أحياناً هسيساً ناعماً، وكان يأتيني بين الحين والآخر، من اليسار صوت نباح كلب جاري، ومن اليمين كان جرس جار آخر يقرع عندما جاء الصبي يوصل له الطعام من المطعم الصيني. وفي الطابق السفلي، كان هناك طالب

وطالبة جامعيان يتضاجعان بصوت مسموع. لقد كانت هذه الأصوات التي أسمعها جزءاً من الحياة اليومية المألوفة في العمارة التي أقيم فيها في حيّ سوهو. وكنت عندما لا أسمع هذه الأصوات أحياناً، أشعر وكأني مثل فجوة سوداء صغيرة، سقط سنّ من صفّ من الأسنان المنضدة جيداً.

تمددت على الأريكة ورحت أقرأ السيرة الذاتية لإيلين زانغ في سنواتها الأخيرة التي أمضتها في أمريكا، التي كنت قد استعرتها من قسم دراسات شرقي آسيا في مكتبة جامعة كولومبيا.

وسرعان ما غططت في النوم.

عندما صحوت، كانت السماء مظلمة، وكان تلفزيون الجيران يلعلع، وكانت رائحة لحم البقر المقلي تهبّ، سحب من الدخان معلّقة في الهواء وتهّف بدفء إلى أنفي.

توقّف الثلج عن الهطول. وتجمعت طبقة سميكة من الثلج خارج النافذة وعلى أسطح البيوت القريبة تحت السماء الداكنة. كان شعاعه الرقيق على الأسطح يعكس الضوء مثل شريط مرصعّ باللون الأزرق والفضّي، عميقاً وساكناً.

أنار الضوء الليل، ومن خلال النافذة الصغيرة، أنار عينيّ أيضاً. كان فيه نوع من البرودة والجمال يتجاوز اللون.

ارتديت معطفاً، ولففت حول عنقي وشاحاً من شعر أنغورا موّشى بخيوط ذهبية رفيعة، وأخرجت قفازين مطرزين من جلد الخروف، وأمضيت وقتاً وأنا أبحث بين شقوق الأريكة عن مفاتيحي. فتحت الباب وخرجت إلى الشارع.

كان الثلج قد جُرف. لم يعد يكسو الأرض ثلج كثير، ولم تعد

الريح تعصف. وحدي ـ رحت أمشي الهوينى باتجاه مطعم زينغ جين العجوز في الحيّ الصيني الذي كنت أرتاده غالباً. كان الندل يعرفونني هناك، ويعرفون الأطباق التي أحبها.

وعندما اضطجعت على السرير لاحقاً في تلك الليلة، اكتشفت أن هذا اليوم يشبه أياماً كثيرة أخرى مرت: فقد مضى يوم كامل لم أتفوه خلاله بكلمة واحدة.

في مدينة لا تهدأ ولا تنام مثل نيويورك، لم يكن ثمة شيء يعادل أن تظل دون أن تفعل شيئاً، وأن لا تقول شيئاً، وعندها تشعر بالوقت ينساب ببطء كالقطرات من بين ثنايا أصابعك. وقد يجعلك ذلك أكثر سعادة، أو أكثر وحدة.

٧

زِنْ والجنس في المطبخ

كل، اشرب، رجل، امرأة: هنا تكمن رغبات الرجل العظيمة.

كونفوشيوس

كلّ يوم، تناول الطعام الذي يزرع في موسمه. في اليابان، فإننا نأكل الخيار في الربيع.

مثل ياباني

عاد موجو أخيراً. كان من المتوقع أن يصل إلى نيويورك في ذلك المساء.

حدث ذلك مساء اليوم الذي ذهبت فيه لحضور حفلة عيد ميلاد في بيت بروفيسور معروف في جامعة كولومبيا.

كان البروفيسور في الثانية والتسعين من عمره، لكنه كان مفعماً بالنشاط والحيوية إلى حد أنه كان يلتهم قطعة كاملة من اللحم في دقيقة واحدة. وكان يحمل معه دائماً كذلك آلة تصوير فورية، لكي يلتقط صورة مع أي فتاة يصادفها، كما كان يحدث دائماً، واحدة من تلك الفتيات الشابات الجميلات اللاتي كن يعبدنه. وبعد عدة طقطقات من آلة التصوير، كنت ترى وجهه المبتسم يرفرف ويتهادى إلى سطح الفيلم، تتبعه وجوه الفتيات المبتسمة أو المتجهّمة، وقد ألقى ذراعه فوق أكتافهن أو لفها حول خصورهن.

قلت في نفسي إني سأخرج من الحفلة عند وصول طائرة موجو إلى

مطار جون ف. كيندي في نيويورك. وعندما حان الوقت، كان أحد نقاد الكتب المعروفين يقف بقربي يناقشني، بكثير من الإشارات والحركات بيديه، إن كانت هناك كاتبات يخرجن عن مواضيع مثل الحيض، والجنس، وتغيير الحفاضات وما إلى ذلك، وإن كانت الفروق الثقافية بين الشرق والغرب آخذة في التلاشي، أو إن كان هناك فرق أساسي بين الرجال والنساء مثلاً.

كنت أهمهم وأتلعثم، لكن قلبي لم يكن معه. ثم اصطدم بي أحدهم وتتطاير النبيذ الأحمر من الكأس الذي كنت أحمله بيدي وتناثر فوق قميص ناقد الكتب المصنوع من الصوف الغالي الثمن، وبللت الفودكا التي كان يحملها قميصي الصيني الحريري الغالي أيضاً.

وفي غمرة السيل الهائل من الاعتذارات التي أعقبت ذلك، انتهزت الفرصة لأبحث عن البروفيسور لأقدم له هدية عيد ميلاده (آلة تصوير يابانية تستعمل لمرة واحدة) وأودّعه على عجل.

كان للعمارة التي يقطنها موجو بهو واسع وفخم مزين بنباتات ضخمة، وخمسة أو ستّة بوّابين تكتسي وجوههم بتعابير تشي بالغطرسة، ويرتدون جميعهم بدلات سوداء.

كانت تلك زيارتي الثانية له. وكما حدث في المرة الأولى، اتصل البوّابون بالطابق العلوي قبل أن يسمحوا لي بالصعود. وعندما وصل المصعد إلى الطابق الخامس والأربعين، فتحت باب المصعد واستدرت يساراً باتجاه شقّة موجو، ولم أتطلع حولي. ثم سمعت صوت خطوات وضحكات من خلفي. التفت ورأيت موجو.

فعندما اتصل به البوّابون، كمن لي بالقرب من باب المصعد، لكي يفاجئني بطريقة رومانسية. لكنني لسوء الحظ ابتعدت عن المصعد بسرعة.

ضحكنا معاً. فمنذ أن قدم لي «مرطبّ الجوّ» كهدية عملية في لقائنا الأول، بدا أن علاقتنا الرومانسية تختلف كثيراً عن أيّ علاقة أخرى. وتذكّرت أني ذات مرّة كنت أتحدث معه على الهاتف ونظرت فجأة إلى السماء خارج نافذتي، فرأيت القمر المستدير الأبيض الرائع معلقاً في صفحة السماء السوداء القاتمة مثل قطرة من الطلاء الأبيض. «إني أنظر الآن إلى السماء، وأرى ضوء القمر. آه... يا له من مشهد رومانسي...»، وساد صمت لبضع ثواني على الطرف الآخر من خط الهاتف ثم ضحكنا بصوت مرتفع.

يجب على المرء أن يختبر كلمة «رومانسي» بنفسه، بقلبه. إنها كلمة يجب ألا تنطق بخفة ـ لأنها ما أن تنطق حتى تصبح كلمة «رومانسية» هزلية.

كانت حقائبه ملقية على أرض غرفة الجلوس؛ إذ لم يتح له الوقت ليعيد ترتيب محتوياتها في أماكنها. وفي ضوء المطبخ المنير، راح يبحث عن سكين وكأسين، ثم وضع حبتيّ ليمون لامعتين على الطاولة.

«هل ترغبين في قليل من شاي الليمون؟»

«لماذا لا أصنعه أنا؟» وما أن قلت ذلك حتى توقّف فوراً عما كان يفعله.

«عظيم ـ اصنعيه أنت».

أعطاني إبريق الشاي الكهربائي، جفف يديه، وقبلّني وخرج من المطبخ بسرعة.

لم يكن ذلك لأن وجودي في المطبخ كان أفضل من وجوده فيه، بل لأنه بدا لي أن إعداد كوب من الشاي لحبيبي الذي عاد لتوه من بلد بعيد سيكون بادرة محبّة. بدأت أعدّ الشاي.

بصدق، لم أر مطبخاً كهذا في حياتي. فقد كان واسعاً، دافئاً، متلألئاً، أبيض اللون، وعصرياً إلى درجة لا تكاد تصدق.

وكانت الثلاجة الضخمة ملفتة للنظر. فقد كانت أشبه بشاحنة صغيرة أسندت على جانبها. وكان في باب الثلاجة جهاز لماء الشرب وصنع الثلج، وفي داخل الثلاجة، كان يوجد رفّ للمشروبات التي قد تتسع لغالون، وخزانة منفصلة متينة، وصينية لوضع الوجبات الخفيفة، ورفّ كبير منزلق.

تطلعت حولي، ورأيت سلة مجدولة مليئة بقماش فوروشيكي الياباني الملوّن، ومزهرية بيضاء من الخزف لم تملأ بالأزهار بعد. وكانت تنتصب فوقي مجموعة من الخزائن البيضاء تضم أكثر من مائتي قدر ومقلاة وزبدية وكوب؛ وفي الأسفل، كانت توجد خزانة على مستوى الأرض فيها عشرون نوعاً من المقالي المقعّرة المتعددة الأغراض، والأوعية الكبيرة واثنا عشر نوعاً مختلفاً من السكاكين. وكانت توجد أيضاً ثلاثون قنينة من التوابل بألوان ونكهات مختلفة، مرتبة جميعها على رفّين خشبيين حسب الترتيب الأبجدي. وكان في الزاوية عدد من الكتب. التقطت بعضها وألقيت نظرة إلى عناوينها: الطبخ من الجانب الأيمن من دماغك وزِن وفنّ الطبخ.

ونظراً لوجودي في مطبخ أنيق، ورائع كهذا، بدأ الإحساس بالجوع البيولوجي والنفسي معاً ـ يقرص معدتي.

صببت الماء المغلي في كوبين نظيفين نقشت عليهما حبات من الخوخ، وألقيت فيهما شرائح الليمون.

«أين العسل؟» صحت.

جاء موجو، وأخرج من الثلاجة الهائلة مرطباناً كبيراً بلون الكهرمان من العسل ممزوجاً ببتلات من الزهر البري.

«انظري، لقد جلبت هذا العسل من الدومينِكان. إنه طازج جداً. لقد جلبت لك مرطباناً أيضاً».

ثم أخرج مرطباناً آخر من الثلاجة وقدمه لي.

«إنه هدية لك».

«شكراً! أوه، إنه ثقيل». كان المرطبان يعادل زنة صغيرة من أوزان الموازين القديمة.

لو كنت في مكان موجو، لأحضرت زهر القطن المقطوف حديثاً والخالي من التلوث، هدية أخف ثقلاً. لكنني كنت مجرد فتاة ذكية. صفة يحبها موجو.

عندما كنت على وشك أن أحمل الكوبين إلى غرفة الجلوس، أمسكني. أخذ الكوبين من يديّ برفق، ووضعهما جانباً، ثم انحنى وراح يقبلّني.

أغمضت عينيّ فيما أصاب التيار الكهربائي الرائع بيت القصيد، وراح يتدفق كالعسل حتى سال وملأ كل مكان، فتدفق إلى ثيابه، إلى شعره، إلى وجهه، إلى كلّ فتحة من مساماته. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ ثلاثة أسابيع.

يجب أن أعترف بأن موجو من بين جميع الرجال الذين صادفتهم، كان باستطاعته أن يجعلني أحلّق في الأعالي، وينقلني إلى حالة أصبحت أتوق فيها إلى كل من الخلود والموت. فلم أر أحداً حاذقاً مثله، ومما يثير الدهشة أكثر، فإن هذه القدرة الخاصة تقبع تحت مظهر خارجي هادئ ودافئ. أما في أعماق جسده، فثمة محيط بعيد الغور لا يقاوم من الغموض والهيجان.

مع مرور الأيام بدأت أفهمه أكثر، وبدأت أرى تفرده بوضوح أشد.

كان الجنس بالنسبة له تجربة روحية، لكن بإيمان خاص بإحدى ديانات الشرق. كان فيه شيء جمالي باطني، نقي ورائع.

أما أنا، فقد جعلتني الكتابة والتواصل الاجتماعي أدرك وجودي كشخص، لكن الجنس ـ وخاصة الجنس الممزوج بالحب ـ هو الذي جعلني أدرك وجودي كامرأة. كنت أفكّر بذلك في كلّ مرّة أسمع فيها المغنّي بورشيد يترنم بنغم حزين: «أعطني سبباً لكي أكون امرأة».

مع موجو، لم أكن أتمكن من احتواء عطشي لجسده. كان عطشاً جنسياً عميقاً للغاية إلى درجة أن جسدي كان يكّف عن الوجود. لقد أصبحت هذا العطش، عطش يمشي، يتحدث، يصرخ.

هذه هي حقيقة الأمر. كنت أريد أن أضاجع هذا الرجل ليلة بعد ليلة. كان عليّ أن أفعل ذلك.

دون أن ينبس ببنت شفة، وبابتسامة مفعمة بالسحر والغموض، نزع عني ثيابي بسرعة.

جثمت فوق الطاولة البيضاء. إلى يساري كان الوعاء الكبير الساطع، وإلى يميني عيدان الطعام وخفاقّة وعصاّرة فواكه. وكانت هناك أشياء كثيرة لم أتمكن من تسميتها.

في هذا المطبخ الرائع، كنت مثل ثمرة ريانة يانعة. أرتعش ترقباً، أترقّب وأرتعش.

«إنك حقاً ترتعشين. هل تشعرين بالبرد؟» سألني بصوت خفيض، ورفع برفق قطعة قماش فوروشيكي ودثّر كتفيّ.

استغرق الأمر ثانية واحدة فقط ليفتح سحّاب بنطاله الجينز، وثانية أخرى ليخرج واقياً ذكرياً بسرعة كساحر. كان ظاهراً قليلاً، وسافراً بعض الشيء، لكنه كان مثيراً للغاية.

رحت أحدّق بعينيّ المفتوحتين على وسعهما في السقف وحاولت ألا أصرخ. فقد أُضطرمت نار الجسد، وتدفق تيار ين ويانغ الكهربائي. كنت أنا ين، وكان هو يانغ؛ كنت أنا القمر، وكان هو الشمس. كنت أنا الماء، وكان هو الجبل، أتنفّس نَفَسَه، لأنني كنت في وجوده. هذه النشوة جعلتني خاوية من الشعور. تفجرت الرعشة في العناق الدافئ في المطبخ.

«أحس بالرعشة تأتيني» همهمت، وأنا أنظر في عينيه.

في تلك اللحظة، اجتاحني شعور عات ومفاجئ بالخواء والحبّ مجتمعين. نوع من الخواء، إحساس يتغلغل عميقاً في عظامي، عميقاً بتلك الطريقة التي تجعل الناس يئنون وكأنهم على وشك أن يلقوا حتفهم، عندما يبلغون الذروة.

«آتتني الرعشة ـ» أغمضت عينيّ، وضممته إليّ بقوة. كنت وكأني كنت أضمه منذ ألف سنة، وكأن أحدنا لم ينفصل عن الآخر قط.

وآتته الرعشة هو أيضاً. وصاح صيحة عالية، مثل جنرال مجروح ألقي فجأة من فوق حصانه.

لم يقذف هذه المرّة كما في المرات السابقة.

فيما رحنا نحتسي شاي الليمون الذي سخنّاه ثانية، كنا نتحدث بين حين وآخر، متكئين على تلة من الوسادات.

«يبدو أنك تحب أن تفعلها حقاً في المطبخ» تجرأت وقلت.

«إن مطبخي مزيّن أكثر من غرفة نومي»، ضحك مرتبكاً بعض الشيء وأضاف: «لكن ألا تظنين أن المرأة تتمتع بأنوثة خاصة عندما تكون في المطبخ؟»

«ماذا؟» علّقت بغموض، وتصورت نفسي امرأة كئيبة أتحسّس

طريقي في المطبخ: وسخة، مشعّثة الشعر، يكسو جسمها الدخان والدهون. «هل أفهم أن حبك لي سيزداد إن أعددت لك وجبة طعام؟»

«صحيح»، قال، نصف مازح، وذراعه ملقاة على كتفي.

«هناك شيء آخر أتشوق إلى معرفته» وانحنيت مقرّبة فمي من أذنه، تردّدت قليلاً. لكني عندما رأيت نظرة التشجيع في عينيه، تابعت كلامي: «أنت... ألا تقذف مطلقاً؟»

نظر إليّ وقال: «كيف عرفتِ؟»

فقلت مازحة: «آه، لديّ الحاسة السادسة أو عين ثالثة، ذلك النوع من الأشياء». في الواقع كان بإمكاني أن أشعر بالفارق الدقيق. كما أني اختلست نظرة خاطفة إلى الواقي الذكري المرمي في المرة الأولى.

«هكذا إذن؟» فرك أرنبة أنفه على أرنبة أنفي.

«أحيانا أقذف. لكن ليس غالباً».

«لكن لماذا؟ ألا يؤثّر ذلك على إحساسك باللذة عندما تأتيك الرعشة؟»

صدقاً لم أفهم. فقد تحدثت كتب الطاويّة الصينية كيف أن «الإمساك عن القذف يحفظ الجوهر ويغذّي الدماغ»، وبذلك تطول الحياة ويُحفظ الشباب.

وحسب ما ورد في الكلاسيكيات القديمة، فقد ورد في كتاب «دليل الإمبراطور في فنون المخدع» قبل ألفيّ سنة أنك إذا تمكنت من قهر ثلاثة آلاف امرأة فستصبح خالداً. لكني لم أصادف رجلاً استطاع أن يمارس بنجاح فنون المخدع الطاويّة.

«لا، لا يؤثر»، هزّ رأسه.

نظرت إلى وجه موجو، وجه لم يكن يكشف عن عمره، وجه يشع بالدفء عندما يبتسم، ولم يقل شيئاً.

«ألا تحبين ذلك؟» سألني بتردد. «هل يؤثّر ذلك على ما يحسّ به جسدك؟»

هززت رأسي.

«الجنس معك إدمان لا يمكنني أن أتخلص منه. أشتهيه ليلاً نهاراً. إني مثل شخص ينتظر طوال السنة حلول عشيّة رأس السنة الجديدة ليشاهد الألعاب النارية، ترفع رأسها، وفمها فاغر، تنتظر انطلاقها إلى السماء»، قلت.

ضحك ولمس جبهتي بإصبعه. «يا لك من فتاة شقية!» استلقينا هناك وعيوننا مغمضة، لم يتكلّم.

لم يكن الوقت متأخراً، لكن بعد أن سافر كل تلك المسافة، بدا موجو منهكاً. غط في النوم بسرعة وبدأ يشخر بصوت خفيض.

تسرب ضوء المدينة في هدأة الليل من النافذة التي لم تكن تكسوها ستارة. لم تكن السماء سوداء ولا زرقاء داكنة، بل كانت مزيجاً من اللون الرمادي والأحمر الغامق، مثل خلفية في فيلم مصاص دماء. وفي الشارع، تحتنا بخمسة وأربعين طابقاً، كانت السيارات تعبر بسرعة، وكان صوت هدير محركاتها يختلط بأزيز مرطّب الجوّ قرب السرير. كان أشبه بصوت المطر.

أم كانت تلك انطباعات شخص جافاه النوم.

لا أعرف كم مرّ من الوقت عندما أحسست بقرصات الجوع بغتة. انسللت من السرير، سحبت بعض ثيابي، وتسللت إلى المطبخ. عندما أشعلت الضوء، برزت أمامي مملكة خيالية. كبيرة، دافئة، آمنة.

فتحت باب الثلاجة وتناولت ثلاث شرائح من خبز الحنطة الكامل،

وكوبين من اللبن، وأربعة قطع صغيرة من مخلّل الخيار وقطعة شكولاته.

عندما جلست إلى طاولة المطبخ الصغيرة، شعرت برغبة قوية في النوم، يتغلغل من بطني إلى رأسي وأطرافي، حتى غططت في النوم.

. . . برفق، وكما لو كان جسدي طائراً، انجرفت مثل غيمة إلى السرير، وهبطت من السماء فوق الشراشف الناعمة في الأسفل: وعندها استيقظت ثانية.

حملني موجو إلى السرير. وبلطف ربتّ على ظهري وقال: «نوماً هنيئاً. تستطيعين أن تنامي الآن».

٨
إعداد العشاء لموجو

لا يوجد على وجه الأرض مشهد أكثر إثارة من مشهد امرأة جميلة تعدّ العشاء لرجل تحبه

أليس أدامز

يجب أن تفعلي الشيء الذي تظنين أنك لا تستطيعين أن تفعليه.

إلينور روزفلت

كان الجو شديد البرودة في الخارج، لكن الثلج لم يهطل مرة أخرى. وقال أهالي نيويورك إن كمية الثلج التي هطلت هذه السنة أقل بكثير مما هطل في السنوات العشرين الماضية.

لم تعد المطاعم تقدم كأساً من الماء البارد قبل وجبات الطعام إلا إذا طلب الزبون ذلك. وفرضت بلدية المدينة أنظمة على غسل السيارات وسقاية الحدائق لتوفير الماء. ولم أعد أستحم مرّة كل يوم، بل أصبحت أستحم مرّة كلّ يومين.

كان الطقس بارداً وجافاً، وبعد أن أستحم، كنت أمضي عشر دقائق وأنا أرتعش فيما أدهن جسمي بطبقة من السائل المرطّب. إن الاستحمام كل يومين يجعلك تستخدمين قدراً أقل من الماء، لكن الأمر يصبح أقل إزعاجاً أيضاً.

ففي اليوم الذي تجمّد فيه كلّ شيء، حتى الصرصور تجمّد حتى

الموت، هبطت علينا نعمة من السماء. فقد اتصل بي وكيلي الأدبي، وكان صوته يرتعش. لم أسمعه متحمساً بهذا الشكل من قبل، حتى عندما أراد برنامج ٦٠ دقيقة على محطة CBS أن يجري معي لقاء لمدة خمس دقائق في السنة الماضية.

قال لي بصوت جاد: «إن ناشر كتبك، S & S، سعيد جداً، فقد أُدرج كتابك في قائمة الكتب العشرة الأكثر مبيعاً في مجلة سان فرانسيسكو كرونِكيل، واحتل المرتبة الأولى في عدد من قوائم الكتب الأكثر مبيعاً على الإنترنت أيضاً!»

«يا إلهي. . .» اعترتني رغبة في أن أصيح، لأنه كان على ما يبدو ينتظر أن يسمع صيحة على الجانب الآخر من الخط، لكن الكتاب الذي أُلتهم بنهم شديد مثل دجاجة مقلية في أنحاء العالم وعلى غلافه صورة وجهي مجسّمة ـ استنفد كلّ حماسي ولذلك أصابني الخرس للحظات قليلة، ثم تنحنحت وقلت بصوت أجش: «يبدو أن هذا صحيح. ألا يدرج في قوائم الكتب الأكثر مبيعاً في بلدان كثيرة؟»

طافت في رأسي صورة وأنا أسحب حقيبة ضخمة فيها ستة أردية كيباو وأدوية مختلفة، وأغطي الهالتين السوداوين الكبيرتين تحت عينيّ بنظارات شمسية، وأنا أتنقل من مطار إلى آخر.

أو كما حدث في السنة الماضية عندما كنت في لندن. فبعد أن انتهيت من آخر مقابلة لي في هيئة الإذاعة البريطانية، رحت أبكي من شدة الأرق، وبسبب وحدتي وركاكة لغتي الإنكليزية، إلى أن سدد لي الناشر تكاليف تدليك وجهي وتجميله في أحد صالونات التجميل الفاخرة الذي يقال إنه كان يقدم خدماته لفتيات فرقة السبايس غيرلز السابقة.

وفي اليوم الرابع بعد الحادي عشر من أيلول، وفيما كنت مرغمة على الالتزام ببرنامج الدعاية، لم يكن أمامي من خيار سوى أن أسافر وحدي إلى سان فرانسيسكو، وكنا سبعة ركاب في الطائرة، بمن فيهم أنا.

لا، لم أكن أشعر برغبة في الصياح من أجل هذا الكتاب، مهما بلغ من العظمة.

«يريد الناشر أن تختاري يوماً. إذ إنهم سيبحثون عن مكان في حيّ الفيليج لإقامة احتفال، ولن يكون مكاناً كبيراً يتسع لمائة شخص، بل ربما لأربعين شخصاً أو ما يقارب ذلك».

اتصلت بموجو ورتّبت موعداً لرؤيته في ذلك المساء، وحدثته عن أخباري. عندما سمعت ردّه المفعم بالحيوية، اعتراني شعور بالحماس.

«إني فخور بك»، قال بجدية.

«صحيح؟ شكراً!» طعم حلوّ تدفّق إلى طرف لساني.

ولكي يزداد فخراً بي، ولدهشتي الكبيرة، أفلتت الكلمات من فمي، قبل أن يتاح لي الوقت للتفكير: «إذن الليلة، سآتي وأعدّ لك العشاء في مطبخك. فربما نستطيع أن نمضي معاً وقتاً أطول، ويمكننا أن نشاهد فيلم فيديو أو نفعل شيئاً آخر».

يمكنك أن تتخيّل كم كان سعيداً. اتفقنا على أن يأتي من مكتبه ويأخذني إلى بيته في الساعة السادسة والنصف، ثم نتوجه إلى شقّته معاً.

وضعت سماعة الهاتف، محتارة. لم أصدق ذلك. فقد تطوعت فعلاً لطهي وجبة طعام! لا بد أني فقدت عقلي. كانت تلك إحدى أكبر المصاعب التي وضعت نفسي فيها.

لم يكن بوسع أحد أن ينقذني من ورطتي الآن سوى أمّي الموجودة في الطرف الآخر من العالم. لكني عندما هدأت قليلاً وفكّرت لوهلة، تذكّرت الأطباق التي تناولتها مع موجو في المطاعم، وكذلك الأطباق التي تحبها العائلة التي كانت أمّي تعدها. تذكّرت عدّة أطباق أحبها منذ أن كنت طفلة. وأخيراً دونت أسماء بعضها، بالإضافة إلى قائمة المكونات التي كان عليّ أن أشتريها من الحيّ الصيني. كان ذلك أشبه بإعلان أحذية نايكي الرياضية التي تقول: «افعلها ولا تتردد».

كان الحيّ الصيني مزدحماً بالناس، مليئاً بالأوساخ، وتعمه الفوضى. وكنت ترى عدداً كبيراً من المطاعم التي تسبب لك الدوار علقت على واجهاتها يافطات كتبت عليها كلمات مثل «التنين»، «العنقاء»، «البهجة» و«الازدهار»، بالإضافة إلى الحوانيت التي تبيع جميع أنواع الأدوية، وصالونات العلاج بالوخز بالإبر والتدليك.

تحلقت مجموعة من السيّاح حول بسطة صغيرة في الهواء الطلق يبيع صاحبها حقائب من ماركة غوتشي وفندي المقلدة، ورحت أفتش وأنتقي منها، وفجأة برز شرطي وصادر البضاعة المقلدة. أما صاحب البسطة فقد أخذ يرد على أسئلة الشرطي بطريقة تخلو من أية تعابير.

انتقلت إلى الرصيف الآخر، وكان هناك باعة متجولون يبيعون توفو طازجاً مسلوقاً بالبخار، وألعاباً وفواكه رخيصة مثل فاكهة «دوريان» اللذيذة الطعم رغم رائحتها الكريهة، المستوردة من جنوب شرق آسيا.

توجهت إلى عدد من البقاليات وبسطات الخضار الطازجة وأنا أمسك بيدي قائمة التسوّق، وانتهى بي المطاف بشراء علبة من التوفو الطازج، وقليل من السلق الطازج نسبياً، بالإضافة إلى فطر وجزر وقريدس مجمّد وأرز أسود وتمر وتوت صيني.

عندما اجتزت أحد الأكشاك الصغيرة لبيع الصحف، اشتريت كذلك مجلة إباحية مليئة بصور رجال ذوي أجساد متناسقة. إنها مجلة ترغب إكسير في الحصول عليها كهدية، لكنها لا تستطيع أن تشتريها في الصين. عندما تلقيت الهدية التي أرسلتها لي ـ غلالة موشاة برسوم أزهار اللوتس السوداء ـ شعرت بأني يجب أن أبعث لها مجلة جنسية. لكني لم أكن واثقة إن كانت ستصلها إن أنا أرسلتها لها بالبريد. فللجمارك الصينية قوانين صارمة في التفتيش.

بينما كنت أنتظر إشارة المرور لعبور الشارع، بدأت تهب ريح باردة وشديدة إلى حد أني لم أتمكن من فتح عينيّ. كان مشهداً مألوفاً من مشاهد الشتاء في الحيّ الصيني. فعندما تحمل عدداً كبيراً من الأكياس المليئة بالمأكولات الصينية اللذيذة، تجتاحك عاطفة قوية على حين غرة.

في الساعة السادسة والنصف تماماً، قرع موجو جرس الباب. ركبت سيارة الأجرة معه وأنا محملة بأكياس عديدة، وتوجهنا إلى الجانب الشمالي الغربي من مانهاتن.

في الطريق إلى هناك، كانت ترتسم على وجهه ابتسامة، وكان بين الحين والآخر يلقي نظرة فاحصة على أكياس الطعام عند ساقيّ. ضحكت. يا إلهي، فقد عرفت أخيراً ما معنى أن يكون الرجل متشوقاً للطعام. كانت قسمات وجهه وهو يحدّق في الأشياء التي اشتريتها، أكثر تملكاً ومحبة مما لو كان يحدّق في حبيبته.

عندما قلت له ذلك، انفجر ضاحكاً. لا بد أني أول فتاة يصادقها وتشعر بالغيرة من الطعام. ضحك بصوت مرتفع. كانت ضحكة مجلجلة، وكأن نوراً قوياً قد أضاء وجهه بغتة. وفي جزء من الثانية،

أصبح كلّ جزء منه حيّاً، وخاصة عيناه اللتان تألّقتا وأضاءتا بقوة ووضوح. كان بإمكانهما أن تخترقا أي عقبة وتتجها نحو القلب مباشرة.

وجدت نفسي أقف في مطبخ موجو الأبيض، المثالي إلى درجة مرعبة. وقد انتصبت أمامي كومة من الخضراوات المتعددة الألوان: خضراء وحمراء وأرجوانية وصفراء، جُلبت من الحيّ الصيني.

أراني موجو كيف أشعل الموقد، وكيف أشغّل مروحة شفط الهواء، وكيف استخدم المؤقّت الآلي على الجدار، وقدم لي معلومات أساسية عن التوابل، وعن القدور الصينية، وعن الصحون والمغارف والقدور. وساعدني أيضاً في وضع مئزر صغير مطرّز بالأزهار، وساعدني في ربط شعري بعناية لكي لا يتساقط على الطعام. كان كلّ شيء جاهزاً.

في هذه اللحظة كاد حماسي أن ينفذ. فقد كنت أكره رؤية القريدس الذي ذاب عنه الثلج الملقى هناك. كان أملساً ولزجاً.

جلس موجو على الأريكة في غرفة الجلوس، وهو يشرب كأساً من ماء «سمارت»، المياه التي تحتوي على عناصر مغذّية كثيرة والشعبية في مانهاتن. وكان يشاهد مباراة على التلفزيون يلعب فيها فريق نيو جيرسي ـ فريقه المفضل ـ فيما كنت أنا أدور في المطبخ، تائهة في بحر مطلق. لم يكن ثمة مهرب لي.

بدأت بغسيل الخضراوات والفطر والقريدس، وطهوت الرزّ الأسود. في البداية، وضعت الرزّ في زبدية أرجوانية من الخزف، ثم وضعت فيها الماء ليغلي، ثم غسلت التمر والتوت الصيني. وعندما بدأ الماء يغلي أضفت إليه الرزّ.

حتى الآن كان كلّ شيء يسير على ما يرام. شربت كأساً من العيران، واتجهت إلى غرفة الجلوس وجلست في حضن موجو وأرخيت رأسي على صدره. «تبدين مثيرة حقاً وأنت ترتدين هذا المئزر»، قال وهو يعضعض أذني.

نظرت إلى الأسفل لأرى حقيقة ذلك. لكني لم أعرف ما المثير فيّ. لا بد أن أكون من ذلك النوع من التخيّلات عن رقة النساء وحشمتهن اللاتي يلائمن خيال الذكر. فثمة رجال يغرمون بقدميّ المرأة، وبعضهم يغرمون بشعرها، ولعل موجو كان مغرماً بممارسة الجنس في المطبخ، خادمة تقلي شرائح اللحم وتضع حول خصرها مئزراً، في مطبخه الذي لا يضاهى، وربما كان ذلك أشد تخيلاته جموحاً.

عدت إلى المطبخ، وكان كلّ شيء يسير على ما يرام. فقد بدأ الماء المعد للرزّ يغلي. ألقيت فيه التمر والتوت الصيني. الآن حان وقت تقليب الخضراوات. وضعت ملعقة صغيرة من الزيت في المقلاة، وانتظرت حتى أصبح حاراً، ثم أفرغت فيه كلّ الخضراوات. أصاب الماء الذي يغمر الخضراوات الزيت الحار في المقلاة فانبعث منه نشيش شديد، وتتطاير الزيت على وجهي ورقبتي وسفعني.

هرع موجو إلى المطبخ وقال: «هل كلّ شيء على ما يرام؟»

تحملت الألم بابتسامة وقلت: «كلّ شيء على ما يرام. فما زلت على قيد الحياة».

عانقني وقال: «أوه ـ لقد نسيتي أن تشغلّي مروحة شفط الهواء».

وأدار المفتاح بسرعة.

غطّيت المقلاة بغطاء لكي لا يتطاير الزيت الحار ويملأ المكان، وتنهدت. إن الطبخ الصيني ليس سهلاً مثل إعداد الباستا والسلطة. فهو يتطلب استعمال زيوت وصلصات مختلفة كثيرة. إنها مشكلة كبيرة.

نضجت الخضراوات والفطر أخيراً، وتنفّست الصعداء. عندما أخابر أمّي سأقول لها إن هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي أحضّر فيها

طعاماً لصديقي. بالطبع لن أذكر لها أن صديقي ياباني. إذ إن جيل الصينيين السابق ليس مولعاً كثيراً باليابانيين.

ثم قليت القريدس، وطهوته مع التوفو. سيكون التوفو الطازج لذيذاً عندما يتشرّب نكهة القريدس. القاعدة هي أن تضيفي الزيت إلى المقلاة أولاً. لكني في هذه المرّة، تعلمت درسي. فقبل أن أفرغ القريدس في المقلاة، وضعت غطاء المقلاة أمام وجهي لحمايته من تطاير الزيت الحار. نجحت في ذلك. ومرة أخرى انبعث صوت النشيش الحارّ، ومرة أخرى هرع موجو إلى المطبخ. هززت كتفي فغادر، وهو يشعر بالارتياح.

ثم أضفت صلصة الصويا ونبيذ الطهي والبصل والزنجبيل، وغطيتها جميعها.

مرة أخرى انسللت خارج المطبخ ومشيت أمام موجو متوجهة إلى الحمّام. أغلقت الباب بسرعة، واقتربت من المرآة ورحت أفتّش عن الأماكن التي لسع فيها الزيت رقبتي وخدي.

كانت هناك خمس أو ستّ بقع حمراء ملتهبة قليلاً. اعتراني شعور بالكآبة. لقد ذهبت الزيارات الثلاث إلى صالون التجميل سدى. وعلقت رائحة الدهن بقوة في شعري وثيابي.

غسلت البقع الحمراء الملتهبة على وجهي بالماء البارد بسرعة. لكني ما أن كنت على وشك أن أفتح علبة الأدوية لأبحث عن مرهم مرطّب، حتى تناهت إليّ لعلعة جرس الإنذار التي تصمّ الآذان، وشممت في الوقت نفسه رائحة شيء يحترق بشدة. أحسست أن شيئاً لم يكن على ما يرام. هرعت عائدة إلى المطبخ.

بدا وكأن هناك غارة جوية: فقد كان هناك دخان ينفذ إلى الأنف

بحدة، ومقلاة محروقة مليئة بجثث عدّة كائنات صغيرة، احترقت وتفحمت.

سبقني موجو إلى المطبخ وأطفأ الموقد. لكنه لم يتمكن من إسكات دويّ جرس الحريق الذي لم يتوقف. في هذه اللحظة، قُرع جرس الباب عالياً فهرعت لأفتح الباب. كان هناك اثنان من البوّابين. إذن فهؤلاء البوابوّن مفيدون.

دخلا إلى المطبخ وتطلعا حواليهما باستهجان، وهمس أحدهما: «طعام صيني!»

استجمعت شجاعتي ورحت أراقبهما وهما يحاولان إبعاد الرائحة المحترقة والدخان الكثيف من المطبخ. لم أعبأ بما قالاه، ما دام دويّ جرس الحريق اللعين قد توقف.

انتهت الكارثة أخيراً. وخرج البوّابان يحملان انطباعاً سيئاً عن الطعام الصيني. أصبحنا أنا وموجو وحدنا في الغرفة. لم يبتسم أحد منا.

غسل يديه في المطبخ، وغسلت وجهي في الحمّام. كان صوت جرس الإنذار لا يزال يلعلع في أذني، وكانت رائحة الاحتراق الكريهة لا تزال تملأ خياشيمي. كانت كارثة بكل معنى الكلمة.

دلف موجو إلى غرفة الجلوس ونظر إلى ساعته وقال: «ربما كان علينا أن نخرج ونأكل في أحد المطاعم».

لم أحر جواباً، لكنه استمر في مداعبة وجهي بنعومة.

«إني متعب وجائع. يجب أن نذهب الآن». في هذه المرّة، كان ثمة نزق وتبرم واضحين في صوته.

«إذن فأنت متعب وجائع؟» قلت ببرود. «وماذا عني؟»

نهض موجو عن الأريكة، اتجه نحوي، ونظر إليّ في المرآة. فقد تأذت بشرتي وكنت لا أزال أفرك البقع المسفوعة بعصبية. أخذ موجو نفساً عميقاً وقال: «إني معجب بروحك المغامرة».

لم أقل شيئاً، ولم أتمكن من إيقاف حركة أصابعي على وجهي. لقد تملكني شعور باليأس والغضب.

«لكنني لا أستطيع أن آكل هذا. من الأفضل أن نذهب إلى مطعم»، قال ملحاً.

توقّفت عما كنت أفعله والتفت إليه. كانت دموعي على وشك أن تنفجر. لكني بدلاً من أن أبكي، وبحركة واحدة، رميت المستحضر الذي كنت أمسكه بيدي إلى حوض المرحاض. إن عيبي القاتل هو شدة إحساسي بذاتي، فعندما أفقد أعصابي أنفجر بعنف يفوق عنف الرجال. مثل لبوة.

«كفى!» صرخت. «لقد أمضيت ساعتين في الحيّ الصيني وأنا أشتري هذه الأشياء، وأمضيت ساعة أخرى في المطبخ. والآن أصبحت رائحة جسدي كله مثل رائحة خرقة تنظيف الصحون، وقد سفع الزيت الحار خمسة أو ستة أماكن في وجهي وهي تؤلمني. ثم انطلق جرس إنذار الدخان، وبعدها يأتي البوّابان المتزمتان... وها أنت الآن، تقول لي «أنا جائع وأنا متعب»!

«لماذا غضبت؟» بدا صوت موجو غاضباً أيضاً. لكنه بدا مضطرباً كذلك.

«لم لا؟» كنت قد فقدت صوابي، «أنت من أغضبني!» كنت أشبه بسفينة غرقت وأصبحت تحت الأمواج.

«إنك لا تحبين أن تطهي، تلقين بالأشياء بطيش، وتصيحين. . .» ارتفع صوت موجو، «من التي أخبرتني في رسالة بالبريد الإلكتروني أنها تفكّر بأن تصبح أمّاً، تفكّر بأن يصبح لديها طفل!»

«صحيح، فأنا أرمي الأشياء، أصيح، ولا أستطيع أن أطبخ، وأريد أطفالاً! لكن ما شأنك في كلّ ذلك؟ أبّ عجوز يتوقع أن تقوم المرأة بخدمته طوال حياته؟ إنك لا تريد امرأة لتطبخ لك فقط، بل إنك تريدها أيضاً لكي تمضغ لك الطعام وتضعه في فمك! إنك أغرب رجل رأيته في حياتي! إنك شخص يصعب إرضاؤه في الطعام، إنك لا تقذف عندما تأتيك الرعشة، إنك. . . إنك. . .» وتردّدت إن كان عليّ أن أضيف «حتى أن لديك إصبعاً مبتوراً»، لكني غيّرتها في النهاية إلى «قد تكون حكيماً جداً، لكنك تصبح أحياناً أحمق بكل معنى الكلمة».

في الحقيقة، كان النصف الأول من هذا التعليق صحيحاً. ففي حين لم يكن موجو حاد الذكاء، لكنه كان يمتلك نوعاً من الحكمة العميقة. أما النصف الأخير. . . فلم أشهد حادثة واحدة في الواقع أبدى فيها بلاهة. فهدية مرّطب الجوّ التي قدمها لي في أول موعد لنا ومرطبان العسل الكبير الذي أحضره من جمهورية الدومينِكان ـ حسناً، كانت تلك صفات جيدة. وكما قال لي بنفسه، إنه يدفع أحياناً ثمن شيء وينسى أن يأخذه. وإن التعبير الغريب في عينيه يجعل النساء اللاتي يصادفهن أحياناً يعتقدن بأنه وقع في غرامهن من أول نظرة. وكانت بعضهن يدعينه إلى العشاء مرات عديدة، بينما لا ترغب أخريات في رؤيته مرة أخرى لكي لا يجعلهن قانطات.

لا أعرف لماذا، لكنني عندما ألقيت هذه المحاضرة الحماسية الباكية، أدركت فجأة أن نار الغضب في قلبي بدأت تخبو. أحسست

بالرغبة في الضحك. هذه العيوب التي ألهمت اتهاماتي له لم تكن كريهة ـ لكنها جعلته مختلفاً في الحقيقة.

لم يكن يبدو أن موجو يرغب في الضحك. فقد شحب وجهه قليلا. لم ينبس بكلمة واحدة، بل راح يستمع صامتاً وأنا أكرر لائحة جرائمه على مسمعه. بدأت أقلق. فقد أحرقت له إحدى مقاليه، وجعلت مطبخه في فوضى، وملأت غرفته بالدخان وجلبت له بوّابين.

هل تجاوزت حدودي؟ هل يريد أن يقطع علاقته معي؟

جالت هذه الفكرة في رأسي وجعلتني بائسة فجأة واغرورقت عيناي بالدموع.

فجأة، مدّ موجو يديه وضمني إليه.

استطعت أن أشم حرارة جسده، رشيقاً وضخماً، ممزوجاً بالتيستستيرون. كان شيئاً خارج إرادتي. لم أستطع أن أهرب من هالته. كان جسدي متصلباً ومسترخياً في آن واحد، وقد تلاشت نار الغضب. وكان كلّ ما تبقى الدموع ـ دموع إفراغ الشحنات.

«أنا آسف»، قال، بصوت منخفض وواضح.

«حسناً. إني مجرّد فتاة مدللة وفاسدة، لا أملك أيّ صفات أنثوية»، قلت، ولم أعترف لنفسي إلا بالجانب «الفاسد المدلل». وكانت عبارة «لا توجد لديّ صفات أنثوية» مزحة، بما أن موجو كان قد قال إن النساء يصبحن مغريات ويقطرن أنوثة عندما يكّن في المطبخ.

«أيتها الشقية!» هزّ رأسه، ونقر على جبهتي بإصبعه. نظر أحدنا إلى الآخر بصمت، كما لو كنا نرى أنفسنا في المرآة مرة أخرى، لكن المرآة في هذه المرة كانت وكأنها مسحت ونظِّفت. كان لدينا شيء من

العزيمة. فإذا كنّا غير سعيدين، فإننا نستطيع أن نجعل الحزن يتلاشى بسرعة. لأننا كنّا معاً، لأننا أردنا أن نكون معاً.

سرعان ما انتقلت عيوننا إلى زجاجة المستحضر التي كنت قد رميتها في حوض المرحاض. صدرت عني أنّة، انحنيت، وعبست. وبإصبعين أخرجت الزجاجة، ورميتها في المغسلة، وفتحت الحنفية ودلقت عليها الماء.

«ماذا تفعلين؟» بدا موجو مصدوماً.

«أتعلم ماذا أفعل؟ لقد كلفتني مائة وخمسين دولاراً»، تجهمت ثانية وأضفت: «أليس من المحزن أن أرميها؟»

«رائع!» قال موجو، «إني حقاً معجب بك».

تظاهرت بأنني لم أسمع نبرة الإثارة في صوته.

عندما ابتعد قال: «لعله يجب علينا أن نمكث في البيت ونطلب وجبة جاهزة من مطعم «تشاينا فن». ألم تطبخي بعض الخضراوات والرزّ؟»

أسلوب يضرب من خلاله عصفورين بحجر واحد: أن يحفظ ماء وجهه من أجلي، ونملأ في الوقت ذاته بطوننا.

بعد العشاء، كنت سعيدة بأن أمضيت أربعين دقيقة في المطبخ أنظفه. وفيما كنت أفعل ذلك، وضعت قليلاً من الماء حتى يغلي وأعددت كوبين من الشاي. وبما أن النساء يرغبن عادة في إدخال البهجة إلى نفوس الرجال، لذا يمكن تدريبهن على ذلك بسهولة تامة - إن كنّ يحببن الرجل بما يكفي، هذا كل ما في الأمر.

٩

طرف الإصبع المبتور

أنت لي، لي، أيتها المرأة ذات الشفتين الفولاذيتين، أنت لي.

بابلو نيرودا

التعليم بدون كلمات، الأداء بدون حركات، تلك هي طريقة المعلّم.

لاو تزو

استلقينا معاً في حوض الحمّام، فغمر الماء جسدينا، وراح موجو يفرك ظهري بليفة من الاسفنج، ببطء وقوة.

وبعد برهة، فتح فمه وقال: «هل تريدين طفلاً حقاً؟»

أومأت.

قال إنه كان سينجب طفلاً من إحدى صديقاته السابقات، لكنه قرّر في نهاية الأمر أنها لم تكن جديرة بأن تكون أمّاً لطفله. صمتنا لوهلة، ثم قلت له إني لست واثقة من رغبتي المفاجئة في أن أنجب طفلاً.

قال وهو يعطيني قطعة الليفة: «إنه ليس أمراً غير عادي». استدار وأخذت أفرك ظهره. وأضفت قائلة: «لقد وصلت إلى العمر الذي تحفّز فيه إفرازات الاستروجين الغريزة الأمومية بشكل طبيعي».

بعد ذلك لم نقل شيئاً. فقد قبع كلّ منا في أحد طرفي حوض الحمّام لفترة طويلة، نستمتع بالماء يتدفق على جسدينا.

انساب شعري في الماء مثل أعشاب بحرية سوداء، وانبعثت ألوان قوس قزح من المصباح المتلألئ ذي الألوان الناعمة الآسرة.

لقد امتلأ الحمّام ذو الدوّامة المائية بعبق جسدينا. ولم يستغرق الشبق وقتاً طويلاً ليستحوذ علينا كلينا.

متردداً في البداية، ثم مسترسلاً، راح يستخدم إبهام قدمه ليلامس ما بين ساقيّ. كانت تلك البقعة زلقة، ناعمة كسمكة.

رحت أحدّق فيه بإمعان، وتركته يداعب جسدي بهدوء. في تلك اللحظة، كان جسدي كله ـ كلّ شعرة فيه، كلّ إصبع من أصابع قدمي، ملكاً له.

اقترب بجسده مني، وتحت نظراته، التي كان في جزء منها وحشاً، وفي جزء آخر قديساً، اجتاحتني شهوة عارمة وندت عني تأوهة.

دفع إصبعاً في داخلي، وعندما أحسست أنه خنصر يده اليسرى ـ الإصبع ذو الطرف المبتور، أخذ الدم يتدفق ويجري في أرجاء جسدي بسرعة مثل حمم تتفجر من فوهة بركان. من المؤكد أن وجهي كان متورداً، وكأن حمى قد اعترتني، كما لو أن مرضاً قد ألمّ بي. مرض تسمى الجراثيم التي تسببه الرغبة، شهوة كتب عليها أن تتفتّح وتنتشر على نحو سري وغامض.

لكنه لم يمنحني نفسه. بل لم يستخدم سوى ذلك الإصبع ليجعلني أتلوّى وأتثنى كأفعى. كان الإصبع ذو الطرف المبتور داخل فرجي، داخل رأسي. لقد سيطر على جسدي وعلى حواسي بإغواء عقلي غريب.

«هيا»، قال برقة، وانبعث صوته شجياً كما تنبعث الموسيقى من قاع البحر: «امنحيني إياه. . . امنحيني إياه».

تجمعّت اللذة في فرجي، وتكوّنت في رأسي طبقات من مسحوق، أخذت تزداد كثافة، حتى كان بوسع الرعشة التي آتتني أخيراً، والتي انفجرت في رأسي، أن تقلب مياه المحيط الهادئ رأساً على عقب.

«سأكرهك إن تركتني»، غمغمت لاهثة، كما لو كنت أقول ذلك في منامي، «لأني لا أستطيع أن أتركك الآن».

في تلك الليلة، استلقيت تحت ضوء القمر، نصف يقظة، ونصف حالمة.

ثم حكى لي أخيراً قصة طرف إصبعه المبتور. فلم تقضمه امرأة دفعها الحبّ إلى أن تفقد صوابها، ولم يقطعه زوج عشيقة غيور، ولم يكن ناجماً عن حادث سيارة، أو عن رياضة خطيرة كان يزاولها، كمالم يكن بسبب ذئب في الغابة. فما أن سمعت قصته، حتى تبخرت جميع فرضياتي السابقة والكثيرة وأصبحت هباء منثوراً.

فقد كان هو من قطعه.

قال: «كان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة. كنت شاباً متحمساً ومندفعاً، مثلك الآن قليلاً».

ضمني إليه بين ذراعيه، وراح يقبّل شعري، وأضاف: «كنت رئيساً لاتحاد الطلاب في إحدى أفضل الجامعات الخاصة في اليابان، لكنني طردت من الجامعة مؤقتاً، لأنني كنت أحبّ الشراب والشجار. ثم تحولت إلى شخص تافه تماماً. . .

إنها قصة طويلة. وفي أحد الأيام التقيت برجل عجوز غيّر مجرى حياتي. فقد تأثرت بفلسفته في الحياة، وعزمت على أن أتخذه معلماً لي وأتبعه إلى الجبال والأنهار الأكثر جمالاً في العالم». توقف برهة ثم أضاف: «لم يوافق الرجل العجوز، لذلك قطعت إصبعي لأثبت له مدى

جديتي. لن أنسى قط تلك النظرة التي انبعثت من عينيّ العجوز عندما فعلت ذلك. فقد رأيت في عينيه حناناً عميقاً، لكنهما كانتا تشيان أيضاً بعطف وأسف. قال إن ما فعلته مبعثه أنانية لا حدود لها، عناد مطلق، وقال إن هذا يناقض ما يؤمن به تماماً، وإني يجب ألا أذهب وأبحث عنه إلا عندما أفهم ذلك. واستدار وغادر».

تأثرت بقصته كثيراً. فلا عجب أن لموجو هذا المزاج الفريد الذي لا يمكن وصفه بكلمات، ويعزى ذلك إلى تربيته واختياراته. كان لغزاً. فمن ناحية كان يجعلك تشعرين بالدفء والثقة، ومن الناحية الأخرى، كنت تدركين أن ثمة مسافة تفصلك عنه لا تستطيعين أن تقتربي منها. فعندما يكون مستلقياً بقربك، ملتصقاً بك، وعندما تمدين يدك لتلمسيه، تشعرين أحياناً بأنه ليس هناك، بل بعيداً عنك يحلّق في أفاق بعيدة.

«وبعد ذلك؟» سألته.

«بعد سنة، شعرت بأنني فهمت تماماً ما قاله الرجل العجوز، فذهبت أبحث عنه. وعندما رآني أومأ برأسه وقال: «هل أتيت؟» ورحت أتنقل معه ـ كمعلّمي ـ عبر الجبال والوديان والأنهار الرائعة الجمال في اليابان، إلى أن جاء يوم قرّر فيه أنه يريد أن يتأمّل وحده على طريقة زن «بالجلوس باتجاه الحائط».

توقف لحظة عن الكلام، ثم أردف: «ثم صادقت فتاة أمريكية وجئت معها إلى نيويورك».

«ماذا تعلّمت عندما رافقت ذلك الرجل العجوز؟»

«لقد تعرفت على الحياة والحبّ. . . في الحقيقة، لعلك تظنين أن الأمر غريب، لكن كلّ ما فعلته في تلك السنة هو أني كنت أتبعه، وأجلس بهدوء تحت شجرة أو نهر. لم يكن يتكلّم، ولم أكن أنا أتكلّم؛ لم يكن يتحرّك، ولم أكن أنا أتحرّك. . . لقد تعودت على ذلك

ـ بل أصبحت أجد متعة في ذلك ـ تلك الحالة من السكون وعدم الحركة. كانت عميقة إلى درجة لا توصف. لا يمكن وصفها بكلمات، لأنها كانت تتجاوز مداركي، مع أني ربما أصبحت أفهمها الآن».

«ما هي؟»

«بين السكون وعدم الحركة والفراغ تستطيعين أن تشعري بنواة قاسية وأبدية من الوجود، مثل قلب تفاحة ـ الحقيقة الفعلية. الحقيقة الفعلية للعالم والبشرية».

«وما هي الحقيقة الفعلية؟»

«أن الكينونة عدم، والعدم هو الكينونة. عندما تمعنين النظر في جميع الأشياء في العالم، فإنك تنجزين جميع الأشياء تلقائياً».

«قال لاو تزو ذلك منذ ألفيّ عام».

«لا تستطيع بضع كلمات أن تفيها حقها». ولاذ بالصمت. كان بوسعي أن أرى محيط عينيه القاسي، وجانب أنفه وفمه، ناعماً ورقيقاً، مثل طفل في أول سنيّ مراهقته. ومن زاوية فمه المزمومة قليلاً، بدا أشبه بطفل.

«هل لا تزال على اتصال مع معلمك؟»

«لقد مات».

«آسفة جداً». أخذت نفسا عميقاً وأنا أنظر إليه.

«إن الحياة كالحلم؛ وإن الحياة والموت مرتبط أحدهما بالآخر، لذلك فإن الموت ليس مرعباً إلى هذه الدرجة. لكن المفزع حقاً أن الكثيرين هم أحياء لكنهم لا يعيشون كما يجب».

«باللغة الصينية نسمي ذلك زومبي».

ضحك وراح يطبع قبلات خفيفة على شفتيّ، وقال: «نامي».

في الهواء، بدت انفجارات طفيفة من النار الزرقاء تومض، ثم تلاشت حتى لم يتبق شيء إلا أنا وضوء القمر الفضّي، نصف يقظة، ونصف حالمة.

١٠

هذا هو الحبّ إذن

الحبّ قديم، الحبّ جديد، الحبّ هو كلّ شيء، الحبّ هو أنت.
البيتلز، أغنية «الآن».

هناك وقت للعمل، ووقت للحبّ.
وهذا لا يدع مجالاً لوقت آخر.
كوكو شانيل

كانت السيارات تمرّ مسرعة في الشارع، وقمم البنايات تتلألأ في الليل. رحت أتمشى في شوارع مانهاتن وأزقتها على غير هدى، وقد امتلأت، من قمة رأسي وحتى أخمص قدمي، بأشياء لم أكن قد لاحظتها من قبل، وذلك بفضل موجو.

وبعد أن زال عني الشعوري بالقلق والوحدة، رفعت الحياة معنوياتي كالماء. ففي بعض الأحيان، يجب على المرء أن يعوم لينجو بحياته، وفي أحيان أخرى، يجب عليه أن يسير مع التيار، يتحسس طريقه ويعوم باتجاه أشياء مجهولة.

بعد حادثة المطبخ، ازددنا قرباً، أنا وموجو.

اصطحبني موجو لحضور مباراة في ملعب اليانكي في نيويورك. تناولنا نقانق وشربنا كولا، مع أننا لم نكن نحبّ أن نتناول هذه الأشياء

عادة. إلا أنه يبدو أن هذا ما يجب أن يفعله المرء عندما يذهب لمشاهدة مباراة في نيويورك.

شرح لي موجو قواعد اللعبة ونحن نشاهدها. كانت أول مباراة بيسبول أراها في حياتي - لم أكن أهتم كثيراً بالرياضة. في الصين، لم أكن أشاهد إلا مباريات كرة الطاولة والغوص على شاشة التلفزيون. ومن الواضح أن الصينيين يستطيعون أن يفوزوا بالبطولة في هاتين الرياضتين، وعيونهم مغمضة.

وبالنسبة للصينيين، فإن لعبة البيسبول تشبه قطعة القماش التي كانت تستعمل في الماضي لتقييد أقدام الفتيات: فقد كانت تدوم طويلاً، ولم تكن رائحتها جيدة أيضاً.

لكنني لم أتمالك نفسي من الشعور بالدهشة لرؤية اللاعبين بسراويلهم البيض المشدودة على مؤخراتهم المستديرة، وقد انصب اهتمام الجميع على كرة بيضاء صغيرة.

كنت قد سمعت نكتة في الصين تقول إن المرأة في العشرين من العمر تشبه كرة القدم: يجري الجميع للحصول عليها. وفي الثلاثين، تشبه المرأة كرة الطاولة: فهي ترتد من شخص إلى آخر. أما في الخمسين، فتصبح المرأة مثل كرة الغولف: كلما دفعتها أكثر كان أفضل. عندما حكيت هذه النكتة لموجو، نقر جبهتي بإصبعه، كعادته، وسألني: «وماذا عن المرأة في الأربعين؟»

قلت له: «لقد نسيت». كنت دائماً أحبّ أن أحكي نكتة لكنني لم أكن أعرف كيف أحكيها جيداً. فقد كنت دائماً الشخص الوحيد الذي يضحك في النهاية.

ثم قلت: «لكنك إذا حولتّها إلى الرجال، فألن تقول إن الرجل الغني والعاشق يشبه كرة القدم التي تسعى جميع الفتيات للحصول عليه،

ويشبه الرجل الفقير والعاشق كرة الطاولة التي ترتّد ذهاباً وإياباً، أما الرجل الفقير الذي لا يحبّ فهو يشبه كرة الغولف؟»

نظرت إليه ملياً. في هذه المرّة كان هو الذي ضحك أخيراً. «لا أمل يرجى منك»، قال وهو يهزّ رأسه.

بعد فترة قصيرة، أخذ يواسيني عندما فقدت محفظتي، بل واتصل بالبنك وألغى جميع بطاقات الائتمان والبطاقات المصرفية لديّ، وطلب مني أن أتقدم بطلب للحصول على بطاقات جديدة. لكن الفزع اعتراني عندما وصل كشف الحساب المصرفي الشهري. فلأني تأخرت يوماً واحداً عن التبليغ عن فقدانها، كانت بطاقة الائتمان قد استعملت باسمي بآلاف من الدولارات.

نظرت كيف أنفقت السارقة نقودي: خمسمائة دولار من محلات DKNY؛ ومائة وخمسون دولاراً من Furla؛ وألف وخمسمائة دولار من محلات Emporio Armani. كاد يغمى عليّ.

لم يكن شارع برودواي ويست يبعد عن بيتي سوى خمسين ياردة.

كان مكتب موجو هناك، وكذلك المحلات الثلاثة جميعها، الواحد بجانب الآخر. وبلغ جشع السارقة في مشترياتها حداً كبيراً ـ ففي حين ترددت كثيراً منذ أكثر من أسبوع إن كنت سأشتري معطفاً جلدياً أسود مبطناً بالصوف بمبلغ ألفيّ دولار من DKNY أم لا، استخدمت سارقة بطاقة ائتماني بدون رحمة.

قال لي موجو إننا إذا شرحنا للبنك ظروف سرقة البطاقة، فإنهم سيردون لي المبلغ. ثم اتصل بالبنك وطلب عدداً من الاستمارات للتبليغ عن السرقة. إن الاستمارات من هذا النوع تسبب لي صداعاً دائماً، وهنا ساعدني موجو في إملائها. لكنه بسبب مشاغله، نسي أن

يرسل الاستمارات في الموعد المحدد، فأرسل لي البنك مجموعة أخرى من الاستمارات.

ومما زاد الطينة بلة تشنجات الدورة الشهرية التي انتابتني بشدة وجعلتني أرغب في أن أغرق نفسي في المرحاض، وقام موجو بتدليك ظهري وأعدّ لي كوباً من شاي الزنجبيل الحار.

عندما أسرفت في الشراب في حانة فندق هدسون، تشاجرت مع فتى لوطي مغناج كان يستند بشكل مغو إلى كتف رجل مسن خجول، وعندما تفاقم الأمر بدأنا نتراشق بكؤوس النبيذ، ومرة أخرى كان موجو هو الذي انتزعني من كومة الخراء التي أوقعت نفسي فيها. ولم يوّجه لي أي انتقاد، بل صحّح لفظي لعدّة شتائم كنت قد وجهتها إلى ذلك الشخص.

عزمت على أن أتوقف عن الشراب وعن التدخين وعن تعاطي المهدئات.

أكسبني موجو الشجاعة والثقة بالنفس، مع أني كدت أدمن عليه ـ إدمان رائع جديد بوسعي أن أمضي ما تبقى من حياتي هذه والحيوات التالية في تعاطيه.

بدأ موجو يعلمني التأمل حسب الطريقة الطاوية وطريقة التاي تشي.

من الغرابة بمكان أن تجد فتاة صينية متهورة، يطلقون عليها في الصين «عبدة للثقافة الغربية» لأنها تعرف أشياء عن فرقة البيتلز، وسكس بيستول، ومارلين مونرو، وألين غينسبيرغ، وتشارلز بوكوفسكي والوجودية، نفسها في نيويورك ـ معقل الرأسمالية المتوحشة ـ فبعد أن عثرت على الحبّ والأمل والنور هناك، بقي عليّ أن أتعلّم فنون الحكمة الصينية من رجل ياباني. كان عليّ أن أتعلّم لكي تعود إليّ تلك الأرواح الهائمة القديمة، المنفية من وطنها الأم، وأن أدعها تجري في

دمي حتى تتغلغل إلى روحي، مثل الطيور الليلية التي تبحث عن مكان تجثم فوقه.

كانت لديّ نسخة من كتاب تاو تي تشينغ للاو تزي كنت قد جلبته معي من الصين، واشتريت نسخة إنكليزية منه من مكتبة بارنز أند نوبل. وبرأي موجو فإن الترجمة سلسة وسهلة القراءة، ولعلها أفضل من الأصل باللغة الصينية. ووجدت أيضاً حكاية زن التي تعود إلى مئات السنين وتسمى «جسد زن، عظم زن». فعندما كنت في الجامعة، كنت استمع إلى أستاذي وهو يحاضر عن التقاليد الثقافية الصينية: الكونفوشيوسية، والطاوية والبوذية، التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين. عندما كنت أحضر حفلات فرق الروك بالقرب من الجامعة، كانت تلك تبدو وكأنها الوسيلة الحقيقية الوحيدة للتعبير عن غضب الشباب، ولهيب الشهوة من خلال موسيقى الروك أند رول الغربية، ومن خلال الشعر المنحرف لجيل الهيبيين، ومن خلال الجنس المثير، المتعرّق الصارخ. هذه أسلحة قد تقتل، يمكنها أن تجعلك تقفز خارج القبر الخانق المتعفّن الذي دفنت فيه.

أما الآن فأنا أعيش في نيويورك.

أخذت أفكّر بالتفجيرات وإراقة الدماء والموت في الشرق الأوسط. رأيت أسماء عدة آلاف من الأرواح التي أزهقت في الحادي عشر من أيلول تتطاير في الهواء فوق سماء نيويورك. أما في الصين فقد كان كتابي لا يزال محظوراً، وكان الاقتصاد الياباني لا يزال في حالة ركود. . . في تلك اللحظة، كان كلّ ما أريد أن أفعله هو أن آخذ نفساً، استراحة قصيرة، وأن أمنح نفسي، كما كتب ديلان توماس، إلى «القوة التي تجرف الزهرة عبر المصهر الأخضر». أردت أن أمنح نفسي إلى ضوء القمر، إلى المدّ، إلى الترنيمات السرية، إلى ألف سنة من الحكمة

ـ وإلى الرجل الذي تذوق كل ذرة من ذرات جسدي، الرجل الذي ضمني إليه، وأحبّني.

في ذلك اليوم اصطحبني موجو إلى كنيسة ريفرسايد في حيّ هارلم. فقد بدأ يذهب إلى هذه الكنيسة الكبيرة في شمال مانهاتن كلّ يوم أحد، حيث تطوع ليعلّم التأمل الشافي لقرابة عشر فتيات سوداوات كان قد اعتدي عليهن جنسياً في طفولتهن على يد آبائهن أو أخوتهن.

جلست بهدوء في الصف الخلفي ورحت أراقب موجو وهو يبتسم تلك الابتسامة الدافئة المألوفة، يتكلّم بذلك الصوت الناعم، وكان بين الحين والأخر يحكي نكتة لكي تشعر الفتيات اللاتي يرتدين ثياباً عادية ـ واللاتي تقبع وراء عيونهن ظلال حزينة عميقة ـ بالراحة وتسترخي وجوههن.

وبعد أن شرح لهن النقاط الرئيسية «للتأمل بابتسامة»، طلب من جميع الفتيات أن يقفن وقال: «قبل كل شيء، دعن أجسادكن تسترخي هكذا. انظرن إليّ. . .» وأرخى أطرافه، حركها إلى الأعلى وإلى الأسفل، وحرك كتفيه إلى الوراء والأمام، وقوّس كعبي قدميه عدة مرات، ثم أرخى ذقنه ومدّ لسانه.

أردت أن أضحك. فقد بدا موجو بجسمه الطويل الضخم، أشبه بدبدوب صغير يمدّ لسانه.

قال: «هكذا. استرخين تماماً، فلتخرج الأعباء والقيود من أجسادكن وعقولكن. لا يهمّ إن بدا ذلك مضحكاً قليلاً. . .».

رمشت بضع فتيات عيونهن وابتسمن. «عندما نكون سخيفين فإننا نحاول أن نبدو أذكياء، وعندما نكون أذكياء، نصبح سخفاء». كان موجو يبتسم، وتابع: «هيا افعلن ما أفعل».

وفي الساعتين التاليتين، جلست المجموعة الصغيرة على الأرض. كان كلّ شيء هادئاً، وكان صوت موجو الواضح واللطيف يتردد في الرواق ذي الأعمدة والسقف العالي والتماثيل المنحوتة الجميلة بين الحين والآخر. «الآن، فلتجد كلّ واحدة منكن قلبها، وتبتسم له. . . خذنه معكن إلى البيت، أخرجنه من مكانه، واسترخين فقط. . .».

مرّ الوقت، وقبل أن نعرف ما حدث، كان الشيء الذي تعلمته أنا والفتيات معاً أن نبتسم. لا تلك الابتسامة التي ترتسم على وجهك، بل الأهم من ذلك الابتسامة التي تنبع من أعماق قلبك، من رئتيك، من كبدك، ومن معدتك وكليتيك ومن رحمك ـ من كلّ خلية في جسمك. ابتسامة هادئة واثقة متسامحة عطوفة.

عندما انتهت فترة التأمل، فتحنا عيوننا ببطء. وبدت الألوان والأشكال في كل مكان أنظر إليه أكثر وضوحاً وإشراقاً.

تمددت ورحت أتفحص اللوحات الزيتية التي تزيّن جميع الزوايا، والنوافذ ذات الزجاج الملون. كانت كنيسة جميلة. تخيّلت صوت الأورغ وصوت الجوقة تتردد أصداؤها في سقف الرواق ذي الأعمدة ثم يهبط على أجساد البشر في الأسفل، يهبط إلى الأرض، فيثير الغبار ويبدأ بالصعود مرتعشاً في نور الشمس. . .

شبكت يد موجو وسرنا الهوينى وخرجنا من الكنيسة. سألته: «إلى أين سنذهب الآن؟»

«إلى أين تريدين أن تذهبي؟» سأل رداً على سؤالي.

«لا أعرف. لقد مضى على وجودي في نيويورك أقل من نصف سنة، أما أنت فإنك تعيش هنا منذ عشرين سنة ـ إلى أين تقترح أن نذهب؟»

فكّر قليلاً ثم قال: «لنذهب إلى بارني. إنه في طريقنا إلى البيت، لذلك يمكننا أن نتوقّف قليلاً ونلقي نظرة. يمكنك أن تأخذي فكرة عن آخر مستجدات الموضة».

«حسنا»، ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة. من الكنيسة الروحية إلى بارني الدنيوي العصري - إنه حقاً يوم أحد انتقائي. فمن بين جميع الرجال الذين عرفتهم، كان موجو أقلّ شخص يبدي مقاومة للذهاب للتسوّق. والأهم من ذلك أني كنت أحبّ طراز الثياب التي كان يرتديها: تصميمات مجنونة غالية فيها جانب جمالي، ذلك النوع من الثياب التي يرفض أن يشتريها معظم الرجال الأمريكيين. إذ يفضل تسعون في المائة من الرجال الأمريكيين ماركة غوشي أو أرماني على ماركة يوهيجي ياماموتو بنفس المبلغ، أما موجو فكان يختار دائماً الماركة الأخيرة.

لا يمكنك أن تري شيئاً من الخارج، أما إذا فتحتي طية صدر سترة بدلته السوداء الغالية الثمن، فستجدين في الداخل صورة ملونة مطّرزة لامرأة عارية. ويبدو حذائه الرياضي من الخارج عادياً، لكنه عندما يرفع قدمه، يمكنك أن تري صورة كبيرة لزهرة عبّاد الشمس مرسومة على كلّ نعل. وكان مبدأ موجو: اشتري ثياباً ذات نوعية جيدة وغالية الثمن، لكن من النوع الذي يبدو أنها متوسطة من الخارج، ولا تظهر ثمنها.

لعل ذلك كان من بين الأشياء الجمالية اليابانية التقليدية الأصيلة، شيء يسري في الدم. إذ إن أسقف معابدهم الجميلة مكسوة بالقشّ ومسيجة بالخيزران المضفور. ربما كان منظرها وهي تبدو وكأنها ستسقط بسبب الريح العاتية أو المطر أو الثلج يجعلها تبدو أكثر قيمة. كما أن بيوت الشاي الجميلة عندهم، صغيرة ومزدانة بشكل متناثر،

وفيها حصيرة أو بساط من القش، ولوحة واحدة مخططة باليد معلقة على الحائط، وتوجد في كلّ مكان طقم شاي مطلي جميل.

أما مبدأي في اللباس فهو: الأسود، الأحمر، الحرير، ملابس ضيقة بعض الشيء؛ بل ضيقة إلى حد الالتصاق بالجسد.

لم أرتد ثياباً من الدينيم أو الجينز مطلقاً. فهي تبدو لي مسترخية أكثر من اللازم، كسولة جداً، وفضفاضة. حتى خلال فترة شبابي الغاضبة من الروك أند رول، كنت أرتدي دائماً ثياباً سوداء ضيّقة من الحرير. كنت أتمتع برؤية عشاق الروك أند رول وهم يوجهون نظراتهم إلى ردائي الأسود. وفي بصيص الضوء البارد الملمس كجلد أفعى، كان الحرير يلتصق بجسدي بحميمية كبيرة إلى درجة أنه كان يبدو وكأنه شيء أثيري، سيختفي في أية لحظة، ينجرف مع الزمن مع كلّ خطوة أخطوها. وكان يتموّج برهافة من ياقتي المزرّرة بإحكام وحتى حضني، يتحرك باستمرار بانسياب ونعومة غير ملحوظتين. ومع أنه قد مضى على وجود الحرير أكثر من ألف سنة، فإن جماله خالد وأبدي.

إني أجد متعة في رؤية الحرير الجميل، لكن ما يمتعني أكثر هو صوت الحرير. فعندما يُمزّق الحرير بيدين قويتين شبقتين، تضج العروق فيهما بالشهوة والحبّ، فإنك تسمعين صوت «ششش» رائعاً تعجز الكلمات عن وصفه... فقد يجلب لك صوت الحرير الممزّق شعوراً بالغبطة الناعمة فضلاً عن شوق متفجّر، ولا يوجد ثمة شيء يشبهه في العالم، لا شيء يمكن أن يضاهيه.

وكان في خزانتي دائماً ثلاثون رداء كيباو وتنورات وبلوزات من الحرير، جميلة وحسّاسة وضيّقة. وكنت في كلّ مرّة أمزّق واحداً منها، أشتري قطعة جديدة أخرى. لذلك كان يوجد دائماً ثلاثون قطعة بالتمام والكمال.

بعد أن تجولنا قليلاً في محلات بارني، فعلت شيئاً كنت أظن أني لن أفعله مطلقاً. فقد اشتريت بلوزة من الدينيم. بلوزة من الدينيم زرقاء سماوية من ماركة مارك جاكوبس عليها أزرار صفراء لامعة، وفيها عدد آخر من الأزرار على الكتفين، وذات خصر ضيّق. كانت قديمة الطراز، شيئاً لا تقبل فتاة لندنية في السبعينات أن ترتديه. رآها موجو على الرفّ فأنزلها على الفور.

جربته عليّ - نعم، حقاً - وفي بادئ الأمر، ظننت أنها جعلتني أبدو كمرشدة في الكشافة. لكني أحسست بأني منجذبة نحو شيء منعش، شيء فيه عناد، جعل وجهي يبدو جميلاً وبريئاً في الوقت نفسه، مختلفاً تماماً عن بلوزتي السوداء التي كانت تشبه عقرباً أسود. لذلك اشتريتها.

واشترى موجو حذاء رياضياً جديداً من ماركة بوما، في نعليه وسائد هوائية مستديرة صغيرة، لذلك، عندما أخذ يسير في الشارع، بدا وكأنه يعوم بخفة، وكأنه كان يمشي فوق سطح القمر.

١١
كآبتها

كنت أعرف تسعة عشر رجلاً ولا أريد أن أعرف المزيد؛
كنت أعرف تسعة عشر رجلاً ولا أريد أن أعرف المزيد؛
وإذا تعرفت على رجل آخر فإني سأترك التسعة عشر يذهبون.

بيسي سميث

كان يكسو وجهي قناع رطب وزلق من الكولاجين. كنت مستلقية شبه نائمة على سرير ناعم في صالون إيلي للتدليك. وكانت تنبعث موسيقى ناعمة مهدئة للأعصاب. وعندما خرجت ناتاشا من الغرفة وأطفأت الضوء، استلقيت بهدوء جنباً إلى جنب مع العالم الخارجي.

كانت ناتاشا من الاتحاد السوفييتي السابق، وكانت قد أنجبت فتاة وهي في السابعة عشرة من عمرها، وهي تبلغ الآن الرابعة والعشرين. لكن ناتاشا لا تزال جذابة، وعندما تذهب لترقص مع ابنتها، كان الآخرون يحسبون أنها ابنة أختها الكبرى وكان أصدقاء ابنتها يلاطفونها ويحاولون التقرب منها. كانت تحبّ أن تتكلم وهي تجمّل وجهي، وقد حكت لي نفسها هذه القصة. وعندما تبين لها أني من الصين، وأن رذيلتي ـ مثلها ـ كانت التدخين، ارتاحت لي وقالت بفخر: «عزيزتي، تأكدي أنك جئت إلى المكان المناسب. وسترين على وجهك معجزة بعد ثلاثة أشهر».

قبل ذلك، كنت أرتاب دائماً من صالونات التجميل التي تعمل فيها

خبيرات تجميل من الغرب. فقد كنت أعتقد دائماً أن خبيرات التجميل الغربيات فظات للغاية، وأن البشرة الآسيوية شديدة الحساسية والنعومة. لكني بعد أن تعرضت لتجربة سيئة في أحد صالونات التجميل في الحيّ الصيني تديره امرأة من هونغ كونغ، تعرفت إلى هذا الصالون في وسط مانهاتن كانت قد دلتني عليه إحدى الزبونات في صالون جيمي وونغ.

كان أول سؤال طرحته على ناتاشا عندما رأيتها: «هل تظنين أنك تستطيعين أن تجمّلي بشرة وجه فتاة آسيوية؟»

ضحكت ناتاشا، أو لعلي أقول أنها ضحكت بشكل هستيري، وقالت: «لا تقلقي يا عزيزتي. فما دامت بشرة إنسان، فإني أستطيع أن أجمّلها».

كان الانطباع الذي كوّنته ناتاشا عني هو أنني «حلوة» أو «فاتنة». أما الانطباع الذي كوّنته عنها من حديثها وسلوكها (فضلاً عن أنها خبيرة تجميل بارعة)، بأنها أحياناً سيدة محنّكة، بضحكتها الرنانة، وصوتها الأجش، ورائحة السيجارة على أصابعها. لقد ذكّرتني بصديقتي مادونا.

لم أتصل بمادونا منذ أن غادرت شنغهاي، لكني علمت من الثرثرة التي لم تكن تنقطع أنها تتاجر بالسيارات المستوردة ـ لم تكن آنذاك قد وقعت في مشاكل مع الشرطة ـ بل أشيع أن شاباً فرنسياً يصغرها بعشر سنوات كان قد خطبها. وقالت لي إكسير إنها رأت مادونا والشاب الفرنسي يدخلان إلى مطعمها ويد أحدهما متشابكة بيد الآخر، وأنها رأت في إصبعها خاتماً من الماس بثلاثة قراريط تقريباً. وقالت إكسير إن الشاب الفرنسي كان يبدو خجولاً للغاية، مثل آه ديك، الذي وقعت مادونا في غرامه ذات يوم إلى حدّ الجنون، والذي تزوج ابنة خالتي زو شا. وقالت إن الشاب الفرنسي كان يُرى غالباً وهو يأخذ رداء مادونا من طراز فالانتينو أو كريستيان ديور من محل الكوي.

قد أكون قد فقدت الاتصال بمادونا، لكني لم أستطع ألا أبدي اهتماماً بأيّ خبر يردني عنها: صديقة جيدة ألهمتني أشياء كثيرة في روايتي «شنغهاي بيبي». امرأة تحولت من مومس إلى سيدة ثم إلى أرملة ثرية. جميلة من جميلات شنغهاي الشهيرات التي شغلت حيزاً كبيراً من ذاكرتي، كالعقرب.

بعد نصف ساعة، هبتّ إلى أنفي رائحة دخان سيجارة. لقد عادت ناتاشا وهي تنزلق بهدوء وصمت كالقطة. أضاءت مصباحاً فوق وجهي مباشرة، وأحسست بأصابعها الرقيقة تتلمس وجهي لتتأكد كم امتص وجهي من قناع الكولاجين.

«كيف تشعرين الآن؟» سألتني وهي تمرر أصابعها بلطف لتزيل الغشاء الرقيق.

«أشعر بأني إيجابية»، قلت بصوت منخفض. فقد نصحتني خبيرة تجميل أنني عندما أكون مستلقية ويجمّل أحدهم وجهي، يجب أن تنتابني «مشاعر إيجابية» لكي تمتص بشرتي العناصر المغذّية على نحو أفضل. في الحقيقة، كانت قد ظهرت بثرة جديدة عند زاوية فمي، وهي تضايقني. كان ذلك قبل أن تأتيني الدورة الشهرية، وقد نصحتني ناتاشا بألا أعبث بها. قالت: «من الأفضل أن تأتي إلى هنا بين فترات دوراتك الشهرية، فعندما تخرج البويضة، عندها يمكن أن تنظف دورتك القادمة جميع السموم في جسمك».

لقد أعجبتني الفكرة. كنت أحبّ أيّ فكرة تساعدني على طرد السموم من جسمي، مع أن عدداً من هذه الأفكار يصبح كلاماً فارغاً بعد فترة من الزمن. ومن فوائد التخلص من السموم أنك تنتظرين فرصة مجيئها في المرة القادمة.

قبل أن أغادر الصالون، أكّدت موعدي مع ناتاشا في الأسبوع القادم.

كنت أنا ـ وبالطبع إكسير أيضاً ـ من المتحمسات لإزالة الشعر بالشمع. فقد كنا نشعر بالقلق إلى درجة الهوس من ذلك المثلث من الشعر. إذ كنت أرتاد صالون التجميل مرّة كلّ عشرة أيام مهما كانت الظروف، ولعل إكسير كانت تذهب إلى هناك مرّة كل خمسة أيام. لكنها لم تكن تذهب إلى صالون التجميل لتزيل شعرها، بل كانت تفعل ذلك بنفسها. فلم تكن ترضى أن تظهر عورتها لأحد، فحتى عندما كانت تمارس الحبّ، كانت تمارسه تحت جنح الظلام دائماً: لا أضواء، ولا نور الشمس.

كانت إكسير مفتونة بجسدها إلى حد الهوس وقد خلق ذلك لديها نوعاً عنيداً من الحبّ. فقد كانت تشعر بأنها يجب أن تبدي عناية كبيرة بجسدها وأن تبذل جهداً أكبر مما تبذله الأخريات. وكان هذا مبعث إحساسها الهشّ بالأمان وشعورها بالذنب.

كان جسدها مرآة لم تكن تعكس مشاعرها إزاء العالم فقط، بل مشاعرها إزاء نفسها أيضاً. كانت براءتها، رغباتها، مخاوفها وكفاحها، مع عدم ثقتها بنفسها وبالعالم من حولها، هي التي جعلت إكسير امرأة أكثر من معظم النساء. لذلك كنت أحبها كثيراً.

فإذا تألمت، تألمتُ أيضاً. وإذا التمعت عيناها بالشهوة لأحد الرجال أو لشيء مادي، التمعت عينايّ أيضاً.

نعم، فقد كانت مثل هذه المشاعر خارج إرادتنا. ولم يكن الأمر كذلك دائماً، لكنها بعد أن أجرت عملية تغيير الجنس وأصبحت فجأة موضع جدال وإساءة في الصين، اكتشفت مدى عمق مشاعري نحوها.

عندما تذكرت مادونا أولاً ثم أكسير، شعرت فجأة بالحنين إلى

شنغهاي القابعة في الطرف الآخر من العالم. لا بد أن يكون الوقت الآن ليلاً هناك، والجميع نيام. ولا بد أن المصباح أمام رصيف الميناء يضيء مثل شعلة أبدية، وتغلف تلك الأزقة الصغيرة المتعرّجة التي تتقاطع مع شنغهاي طبقة إثر طبقة من الظلّ تحت ضوء القمر.

عندما مررت أمام إحدى مكتبات بارنز أند نوبل في الشارع، دخلت إليها. وبعد أن استخدمت الحمّام في الطابق الأرضي، اخترت بضع مجلات عن الأزياء من الرفوف المخصصة للمجلات، ثم صعدت إلى الطابق الثاني الذي تعبق فيه رائحة القهوة وطلبت كوباً من شاي البابونج بالعسل. جلست ورحت أقلّب بعض المجلات. إن الشيء الجيد في مكتبة بارنز أند نوبل هو أنك تستطيع أن تستخدم التواليت، وتجلس في المقهى الموجود فيها كما تشاء، وقد تناهى إليّ أن الكثيرين من سكان نيويورك يفعلون ذلك.

وتنصح بعض هذه المجلات ببعض أفلام وأقراص السي دي وما إلى ذلك، وكنت أتوقّف دائماً عند الأجزاء المتعلقة بالكتب. فعندما سألني أبي ذات مرة، وهو أستاذ في التاريخ، على الهاتف ما هي الكتب الرائجة حالياً في أمريكا، كان قد صادف إني كنت قد دسست تحت إبطي نسخة من مجلة أزياء شعبية. رحت أتصفحها وأقرأ عناوين عدد من الكتب المدرجة في قائمة الكتب: «كيف تجعلين رجلاً يقع في حبك: كيف تتجنب الحمقاء الفشل»، «لماذا لا يصغي الرجال ولماذا لا تستطيع النساء قراءة الخرائط: مدى الاختلاف بيننا، وكيف نتصرف إزاء ذلك» و«كيف تتعقبين الأشباح».

عندما سمع أبي ذلك، لاذ بالصمت. ثم قال بعد تفكير حذر وعميق: «لذلك يبدو أنه توجد فرصة بأن يلقى كتابك رواجاً جيداً في أمريكا».

أحياناً، يمكن أن يكون أبي رائعاً.

كان الظلام قد هبط عندما غادرت المكتبة. وفيما كنت أغذّ الخطى نظرت إلى هاتفي الخليوي ورأيت رسالة من موجو: «إني مضطر للعمل حتى وقت متأخر هذه الليلة. هل ترغبين في أن تأتي إلى بيتي غداً؟ لا تنسي أن تجلبي معك مستحضرات ترطيب الجسم، وكريم العين، والمحلول الملحي لعدساتك اللاصقة. مشتاق إليك».

ليلة الغد؟ كان عليّ أن أحضر محاضرة عن أوبرا بكين في قسم دراسات شرق آسيا. وسيلقي مطرب من بكين المحاضرة ثم يعزف بضعة ألحان منفرداً. وسوف يعزف في مركز لينكولن بعد أيام قليلة.

خابرت موجو، لكنه لم يردّ وسمعت صوتاً مسجلاً يطلب مني أن أترك رسالة. تركت رسالة أخبرته فيها أنه يمكنني أن آتي ليلة غد، لكن ذلك سيكون في وقت متأخر بعض الشيء.

عندما رنّ هاتفي الخليوي، ظننت أنه موجو. حالما أجبت عرفت على الفور أنها إكسير.

«عزيزتي». نظرت إلى ساعتي. كانت الساعة السادسة صباحاً في شنغهاي، وقت غريب بعض الشيء لمكالمة هاتفية، «كيف حالك؟»

من الضوضاء الخلفية، عرفت أن إكسير كانت في أحد النوادي.

«ماذا تفعلين؟ هل هذا وقت مناسب للحديث؟» سألت وهي تقهقه. بدا أنها كانت قد ثملت قليلاً.

«طبعاً. أين أنت؟»

قالت: «أنا في ماندي». وماندي ناد تحت الأرض، تُعزف فيه أجمل الموسيقى، وتُقدم فيه أرخص المشروبات الكحولية، ويرتاده عدد كبير من الناس في شنغهاي. ويبدأ الناس في ارتياده عادة بعد الساعة الثالثة صباحاً، ويزدحم المكان عند الخامسة أو السادسة صباحاً. وفي

الساعة العاشرة، يضطر الذين أمضوا الليلة كلها حتى ذلك الحين، إلى الخروج، على مضض، إلى ضوء الشمس الذميم، ويسيرون الهوينى ثم يتبخرون كالفقاعات في الهواء.

«هل سهرت طوال الليل؟» سألتها مندهشة. فقد دأبت على أن تنام عشر ساعات في الليل. إذ كانت تعتقد أنها كلما نامت فترة أطول، ازدادت جمالاً. كان النوم مبدأها.

«لا أشعر برغبة في النوم»، وفجأة اكتسى صوتها نبرة حزن، ثم بدأت تنشج.

«هيا، ما خطبك؟ فوجئت. ووضعت يدي اليسرى على أذني بعد أن مرت سيارة شرطة تطلق عويلها بعد أن أصبحت بجانبي.

«لا أحد يحبني». شهقت وندت عنها تنهيدة طويلة.

«أنا أحبك»، قلت بسرعة وكأني إذا لم أقل ذلك بالسرعة الكافية فربما قفزت من فوق سور البحر. وتساءلت في الوقت نفسه ما خطبها.

«إن فريد لا يحبني!» وأجهشت في البكاء ثانية، ثم أضافت: «قال إنه سئم من العتمة عندما يضاجعني، وسئم من أنوثة جسدي المبالغ فيها، وسئم من... ولم أستطع أن أسمع ما قالته بعد ذلك.

«إنه غبي»، تمتمت. كانت صديقتي لا تزال تجهش بالبكاء على الطرف الآخر من الهاتف.

بدا أن دموعها بتأثير الكحول لن تنتهي. كان ثمة شيء حامض الطعم على رأس لساني. ملأ معدتي، واعترتني بغتة البرودة. فالنساء اللواتي يبكين على الرجال يشبهن شريطاً حزيناً من المغنيزيوم يحترق وحيداً. النساء مثل إكسير اللاتي يبكين على الرجال... كومة صغيرة من الرماد.

بذلت ما بوسعي لأن أكتم المشاعر في قلبي وحاولت أن أبثّ بصيصاً من النور إلى صديقتي اليائسة على الطرف الآخر من الهاتف. قلت لها: «عزيزتي، إن فريد مجرد رجل واحد من بين ثلاثين بليون رجل في العالم. فإذا لم يكن يحبك، فهذا لا يعني أن الرجال الآخرين جميعهم لا يحبونك». ثم لاذت بالصمت.

«بصراحة، إذا بحثت فلن أجد مكاناً جديداً لأحد. لقد وجدت موجو، وهو يكاد يكون رائعاً». لم تقل شيئاً. أدركت أن التحدث عن صديقي الآن ربما لن يساعد في شيء.

«هل تتذكّرين ماذا قال أفضل عرآف في شنغهاي السنة الماضية؟ تعلّقت بقشّة، «قال إننا سنجد أخيراً الرجل المناسب لنا، لكن ستعترضنا بعض الصعوبات».

بدا أن كلامي هذا قد أصاب الهدف. تنهّدت وقالت بحزن: «كم عليّ أن أتحمل؟»

قلت لها بصوت بهيج: «لا تقلقي، فقد جمعت ما يكفي من الكارما (إله الحبّ). لكني كنت أتساءل: «يا إلهي، عما تتحدّث؟»

لكن ما قلته بدا مفيداً. فعندما تشعر بالضعف، يبدو العرافون والكارما جذابين للغاية. ولا يعود القدر شيئاً يجب التحكم به، بل يجب تفسيره.

كان يبدو لي أن إكسير خجلت من نفسها وقالت وهي تبحث عن عذر: «إني سكرانة»، وأضافت، «في الحقيقة كنت أعرف منذ البداية أن فريد لا يناسبني»، ثم سعلت عدة مرات، وأضافت: «أنت محقة، فليذهب القديم وليأت الجديد. ألا يوجد كثير من الرجال في شنغهاي؟» وأضافت بطريقة دنيوية وساذجة، «تماماً كما قال العرآف. إنه قدري أن أكون ثرية ويحبني الرجال!»

هبت رياح باردة، واندفع تيار دافئ من الهواء من المغسلة على الرصيف المقابل، وكان البخار ينبعث من فتحات المجاري في الشارع. إن رؤية أشياء كهذه تجعلني أشعر وكأنني أشاهد فيلماً في السينما. قد تكون هذه أكثر المشاهد اليومية شيوعاً في مدينة نيويورك، إلا أن فيها شيئاً غير واقعي وشاعرياً.

حلّقت فوقي طائرة متجهة إلى مكان مجهول.

اكتشفت أنني كنت أسير باتجاه شارع باوري في الحيّ الصيني. فقد كان مطعم إكسلينغمن يشتهر بالرزّ الصيني والمعكرونة الرفيعة التي يقدمها. وقد سمعت أن الموسيقار يوكو أونو يأتي إلى هذا المطعم أحياناً. قرّرت أن أتناول على العشاء هذه الليلة طبقاً من الرزّ الصيني وطبقاً صغيراً من البيض المعلّب.

جالت ذكريات شنغهاي وأصدقائي في شنغهاي في رأسي طوال النهار. أحسست بالهزيمة.

الآن لم أعد أريد إلا أن أتناول الوجبات الصينية الكلاسيكية وأكثرها بساطة.

١٢

إنه يحبّ الطعام اللذيذ ويحبّ النساء أيضاً

... إن ما يطلق عليه الحبّ، هو الرغبة في إرضاء شهية شرهة مع قدر معين من اللحم البشري الأبيض الرهيف.

هنري فيلدنغ، توم جونز

استقلينا أنا وموجو سيارة أجرة وتوجهنا إلى مهرجان للأفلام في جامعة كولومبيا يعرض أفلاماً لهونغ جينشوان، سيد أفلام الدفاع عن النفس في هونغ كونغ. وفيما كنا نغذّ الخطى باتجاه الحرم الجامعي، رأينا جيمي وينغ من بعيد، واقفاً أمام مكتبة دراسات شرق آسيا. كان وجهه متجهماً ويتحدث على هاتفه الخليوي. وكانت تقف إلى جانبه فتاة أنيقة تنتعل حذاءاً طويلاً ذا كعب عال، وقد لفّت حول رأسها شالاً صوفياً.

رآنا هو أيضاً، وأنهى مكالمته على الفور. انحنى وطبع قبلة على خديّ، ثم ربّت على كتف موجو وصافحه. كنا قد تناولنا نحن الثلاثة وجبة طعام قبل أسبوعين، وكان هذا لقاءهما الثاني. وكان يبدو أن أحدهما قد راق للآخر.

قدّم لنا الفتاة الواقفة إلى جانبه. كانت فتاة كورية جميلة لم يمض على مجيئها إلى نيويورك كثيراً. وكان جيمي قد التقى بها في محلات

KTV في حيّ فلاشينغ، ووعد بأن يساعدها في الحصول على بطاقة الإقامة (غرين كارد) ـ كان هذا أسلوبه في إيقاع الفتيات في شباكه ـ وكان اسمها شيئاً يصعب تذكره، لكن لحسن الحظ، لم تكن لديّ نية في أن أعجب به: فقد كان جيمي يغيّر الفتيات كما يغيّر ربطات العنق.

كانت عينا الفتاة جاحظتين. وكان يبدو أنها أجرت جراحة تجميلية، وكانت تضع عدسات لاصقة زرقاء ورموشاً فضية طويلة جداً. وبالطبع كانت تضع ظلّ عيون سميكاً، أزرق ممزوجاً بالأبيض. إن ظلّ العيون المرسوم بطريقة جميلة يشبه لوحة جميلة، أما إذا كان مرسوماً بطريقة سيئة... حسناً، فإنه يشبه لوحة رديئة. وهي تتمتع بالجاذبية الجنسية لفتاة وصلت حديثاً إلى نيويورك، تلك الجاذبية الجنسية التي تفتقر إليها الفتيات اللاتي عشن في نيويورك لفترة طويلة من الزمن، ثم يبدأن يقدمن تنازلات ويصبحن متهكمات قليلاً. وقد أصبحت متوترة ولاذعة اللسان. كان عليها أن تكون كذلك.

لاحظت أن الفتاة قد لفتت اهتمام موجو. فقد راح يختلس إليها النظرات متظاهراً بأنه يتحدث إلى جيمي.

بالطبع لم يرق لي ذلك، لكني لم أبد امتعاضي. فعندما أكون برفقة أحد أستطيع أن أتمالك نفسي.

رأيت وجوهاً مألوفة عديدة في قاعة العرض وحييتهم واحداً واحداً. كنا قد وصلنا متأخرين قليلاً، وكانت المقاعد الوحيدة المتبقية في الخلف. كانت الصالة ممتلئة تقريباً. جلس جيمي والفتاة الكورية في الصفّ أمامنا، لذلك فيما كنا نشاهد الفيلم، كان باستطاعتنا أن نرى صلعة جيمي الآخذة بالاتساع، وقبعة الفتاة، ورقعة صغيرة من الجلد المكشوف على رقبتها. ورغم هذا الشيء المزعج، فقد استمتعت

بمشاهدة الفيلم. إذ تبدو أفلام الكونغ فو الصينية أكثر إثارة عندما يشاهدها المرء في الخارج. وينطبق هذا على فيلم «النمر الجاثم والتنين الخفي»، الذي حظي باستحسان في الولايات المتحدة، لكنه واجه فشلاً ذريعاً في صالات العرض في الصين.

بعد انتهاء الفيلم، ودعنا جيمي والفتاة بسرعة. لكن قبل أن يغادر جيمي، أخرج من حقيبته نسخة من مجلة كوزموبوليتان للمراهقين، وأعطاني إياها بوقار، وقال بصوت أبّ فخور: «إن صورة ابنتي في هذه المجلة!»

من الغرابة أنه رغم أننا تكلّمنا كثيراً على الهاتف وتناولنا وجبات طعام معاً، فقد كدت أنسى أن لديه ابنة تعيش مع زوجته السابقة.

قلّب صفحات المجلة وفتحها على إعلان لماركة كالفين كلاين على صفحة كاملة. كانت تظهر في الصورة ابنة جيمي الجميلة ذات الأربعة عشر ربيعاً ومعها أربع عارضات صغيرات أخريات من خلفيات عرقية مختلفة. كن يقفن معاً مبتسمات، أسنانهن بيضاء (الأمريكيون مغرمون بالأسنان البيضاء)، وشعرهن يتطاير من خلفهن، وكأنهن يردن أن يوحين بالطيران الحر وطاقة اندفاع الشباب.

«نجاح باهر!» قلت وأنا مصدومة، ثم أضفت بتملق: «إنها تشبهك كثيراً».

«لقد أصبحت نانسي أوزة بين ليلة وضحاها» قال الأب الفخور وقد ارتسمت على وجهه قسمات معقّدة بعض الشيء. آه، إذن نانسي هو اسم ابنة جيمي. نظرت إلى الصورة بإمعان. فقد كشفت ابتسامة نانسي الهانئة والطبيعية عن رفعة نشأتها. تذكّرت الوصف الذي قدمه لنا جيمي عن بيت زوجته السابقة الكبير في لونغ آيلاند واليخت الذي تملكه والذي يساوي أكثر من نصف مليون دولار.

«احتفظي بها أرجوك»، قال جيمي بحماس، وهو يتطلع إلى المجلة الهامة في يدي. ثم انطلق مسرعاً. فقد كان عنده موعدان لزيارة شقق في عمارات عالية.

حملت المجلة التي تضم صورة ابنة جيمي، وأخذنا أنا وموجو سيارة أجرة وتوجهنا إلى مطعم ياباني يدعى «نيبون» في الشارع الثاني والخمسين لنتناول العشاء.

كان موجو يعرف صاحب المطعم جيداً. في الواقع، كان صاحب المطعم قد تدّرب ذات يوم على يد والد موجو، الذي كان طاهي معكرونة رفيعة مشهوراً في اليابان. وكان قد أشرف على تدريب عدة طهاة وفتح عدّة مطاعم للمعكرونة الرفيعة.

كانت أمّ موجو مزيجاً أوروبياً آسيوياً مميزاً في جيلها. فقد كان أبوها إيطالياً، وورثت عنه عينيه الزرقاوين الواسعتين الغامضتين، وورثت عن أمّها اليابانية بشرتها الناعمة الرائعة وشعرها الأسود الصقيل. وفي إحدى الصور التي أراني إياها موجو عنها، كانت ترتدي كيمونو أسود مطّرزاً، وعيناها الزرقاوان تلتمعان. ومن الواضح أنه كان لها دور رئيسي في عمل الأسرة، ومقارنة مع بقيّة جيل النساء اليابانيات الطيعات آنذاك، فقد كانت مستقلة ومتصلبة في رِأيها.

وبالمقارنة مع أمّي، كانت أمّي تبدو رقيقة وتقية، إذ جعلت رعاية زوجها وطفلتها الركن الأساسي في حياتها.

في اليوم الذي وقعت فيه أحداث الحادي عشر من أيلول، كانت خطوط الهاتف إلى نيويورك مشغولة إلى درجة كانت تبدو أنها ستنفجر، وعندما لم تتمكن أمّي من الاتصال بي كادت أن تفقد صوابها من القلق. أما الآن، فقد أصبحت تتصل بي مرّة في الأسبوع، وكان أول شيء تقوله لي دائماً: «هل أنت بخير؟ هل ما زلت تأكلين جيداً؟»

قال كونفوشيوس: «كل، اشرب، رجل، امرأة: هنا تكمن رغبات الإنسان العظيمة». عندما يضع المرء الطعام والشراب فوق شهوته، يمكنه أن يرى بوضوح أن الطعام هو الطبقة الأولى من الأشياء العظيمة تحت السماء. ولا أتذكر أن أبويّ كانا يقبلاّني. ففي حين أنهما كانا يجدان أن الاتصال الجسدي بطفل بالغ أمر محرّم، كانا يقدمان مائدة بعد مائدة من الطعام الجيد واللذيذ، وكأن كلّ صحن يقول: «أنا أحبّك يا طفلتي».

لذلك كان هناك ثمة شيء مشترك بين أبي وأبي موجو: تقدير عاطفي للطعام الجيد. فبالإضافة إلى كون أبي أستاذاً في التاريخ، فقد كان أيضاً ذواقاً وناقداً مشهوراً للطعام في شنغهاي. وكانوا غالباً يستضيفونه في مسابقات كبار الطباخين المشهورين التي تذاع في برنامج يسمى «أكبر تجمع للذواقين الصينيين» على تلفزيون شنغهاي ليعلق عليها.

جلسنا بالقرب من لوحة ملأت الجدار بكامله تصوّر حقلاً أخضر من القمح. وجاء صاحب المطعم ليحيينا وتبادل مع موجو التحيات باليابانية. ثم أومأ لي مبتسماً وقال بضع كلمات باليابانية. نظرت إلى موجو طلباً للمساعدة، وسرعان ما عرّفنا على بعضنا بالإنكليزية.

قلت: «يظن الناس دائماً أني يابانية، وكأن الآسيويين الذين يرتدون ثياباً عصرية لا يأتون إلا من اليابان وليس من الصين».

خفّض موجو رأسه وراح يتصفّح قائمة الطعام، ثم سألني: «هل تريدين أن أقترح بضعة أطباق؟ إن المعكرونة الرفيعة التي يقدمونها هنا ممتازة».

«حسناً». عندما أتناول الطعام معه، أصبح سعيدة لأن أصبح كسولة. فقد كان هو من يطلب الطعام دائماً تقريباً.

كانت السوبا التي يقدومنها في هذا المطعم تتألف من عشرين في المائة من القمح وثمانين في المائة من طحين الدقيق الذي ينتج خصيصاً للمطعم في إحدى المزارع في كندا، والصورة الكبيرة للحقل الأخضر إلى جانبنا هي صورة المزرعة.

قلت: «حدثني عن أبيك. أظن أنه كان له تأثير كبير عليك»، وأنا أتناول التوفو البارد. كان موجو يصدر صوتاً وهو يتناول المعكرونة الرفيعة. سمعت أنه عندما يتناول اليابانيون المعكرونة الرفيعة، يصدرون أصواتاً كلما علت كانت دليلاً على مدى تقديرهم لطعمها اللذيذ.

«لعلي أتذكّر أنه علّمني كيف أتناول المعكرونة الرفيعة عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري».

«إذن كيف يجب تناول المعكرونة الرفيعة؟» سألته.

«لا أظن أنك تريدين أن تتعلّمي ذلك»، وعاد موجو إلى صحنه.

«لكنني أريد أن أعرف»، أصررت.

«حسناً. أولاً، يجب أن تتفحصي زبدية المعكرونة كلها من الخارج، وتنظري إلى الكّرات يطوف في المرق. ثم تأخذين ملء ملعقة من المرق وتنزلين الزبدية. تتذوقين المرق بتمعن، تمررينه إلى الأمام والخلف في فمك، ثم تبتلعينه، ثم تتناولين المعكرونة. ولا يمكنك أن تتناولي اللحم المشوي في المعكرونة أولاً. بل يجب أن تنظري إليه فقط. وعندما تتناولين المكونات الأخرى يجب أن تنظري إلى شرائح اللحم تلك، تنظرين إليها بمودّة حقيقية...».

أنهى موجو كلامه وتفحّص قسمات وجهي.

كان فمي فاغراً وكأني سمعت قصة غريبة جداً. ثم أخذنا نضحك.

«جميل»، قلت.

«لا أريد أن أكون انتقائياً أكثر من اللازم، فبما أنه طعام ـ حتى سندويشة هامبرغر ـ فإني أتناوله. مع أني لا أحبّ هذا النوع من الطعام».

«لا يهمّ. فهذا ليس عيباً»، وفيما كنت أتكلم، تساءلت في سري إن كنت سأتمكن، مهما طالت فترة بقائي مع موجو، من إرضاء ذائقته في الطعام. إني أشك في ذلك.

«إنه ليس عيباً»، قال موجو، «إنها هواية. فالطعام الجيد والثياب الجميلة هوايتان من هواياتي».

قلت: «صحيح»، ثم مضيت أقول «وماذا عن الفتيات الجميلات؟ وقد تذكرت كيف نظر إلى صديقة جيمي الكورية عندما كنا في جامعة كولومبيا، والحلي الرخيصة في شكل نساء عاريات في شقّته، المتناثرة في أرجاء الغرفة، على الثلاجة، بالقرب من مرآة الحمّام، على الأريكة، وبقرب السرير. كنت أحب دائماً الديكور الداخلي الذي فيه مسحة من الذوق الهزلي.

«طبعاً أحبّ النساء»، قال موجو بلا اكتراث.

«ماذا تعني؟» وغاص قلبي في أضلاعي.

«هيا، من هو ذاك الرجل الذي لا يحبّ النساء؟» قال موجو مشيراً بيديه محاولاً إضحاكي.

لم أقل شيئاً، فقد خطرت ببالي صورته وهو على السرير مع نساء من جميع الأجناس: يستلقين إلى جانبه، يداعبنه.

لم تكن فكرة سعيدة. ففي الحقيقة، كنت أشعر بالغيرة من صديقاته السابقات. وتذكرت أنه قال ذات مرّة إنه يتناول طعاماً كثيراً لكن وزنه لا يزداد بسهولة، في حين يزداد وزن الأشخاص الذين يشاركونه في

الطعام. إذ كان يبدو مثلاً أن جميع صديقاته السابقات قد ازداد وزنهن بعد أن تعرفن عليه. وفي ذلك الحين، أخذت الأمر بخفة وقلت: «أوه؟ لا بد أنه بوسعهن أن يتناولن قدراً كبيراً من الطعام».

«حسناً، هل حدث وخنت صديقة، أو زوجتك السابقة؟» كان في صوتي نبرة حادة. لم أكن أريد في الحقيقة أن أعرف أنه لم يكن مخلصاً. فمعظم الذين يسألون أسئلة تتجاوز الحد، يشعرون بالألم في النهاية.

صمت موجو. أطرق برأسه وراح يتناول المعكرونة الرفيعة. وضع عيدان الطعام، ورفع الزبدية، وأخذ جرعة من المرق. رحت أراقب كلّ حركة من حركاته. بدت يداه وهو يرفع الزبدية كبيرتين جداً، وبدت الندبة على خنصره شديدة الوضوح.

فتح فمه فجأة وقال: «نعم، لقد خنت»، وهو يحدّق فيّ مباشرة.

اضطرب قلبي. نظرت إلى الأسفل، ولم أنبس بكلمة.

قال: «كوكو، أرجوك انظري إليّ»، وأمسك يدي بقوة، «لقد أصبحت جميع الأشياء السابقة في حكم الماضي. وأنا لا يهمني إلا الحاضر... والواقع الحالي هو أني معك، ولست مع واحدة أخرى. إني منجذب إليك أنت، ولا توجد لديّ نية في أن أقيم علاقة مع امرأة أخرى».

نظرت إليه. بدا قلقاً بعض الشيء. هززت رأسي لأخلّصه من تلك الأفكار السلبية. قلت لنفسي إن حبّ النساء ليس عيباً في الرجل، فإذا لم يحبّ النساء، فإن النساء لن يحببنه أيضاً.

أما أن يكون المرء غير وفيّ... فأنا نفسي لم أكن وفيّة لصديقي.

هذا هو الجانب المظلم من الطبيعة البشرية. عندما تفكّر بالأمر، فحتى القمر يتغير، وحتى للنزهات العظيمة مزاياها الخطيرة والمرعبة. إن البشر معقّدون وخطاؤن.

ومع ذلك كان موجو صادقاً للغاية. فلم يشأ أن يكذب، حتى لكي يتحاشى حياة شديدة التعقيد. في بعض الأحيان لم أكن أستطيع أن أتحمّل صدقه الشديد الصراحة.

يعتاد الناس أحياناً على سماع الأكاذيب.

بعد ساعات قليلة، كنا جالسين على الأريكة الجلدية في غرفة الجلوس أمام التلفزيون الضخم.

كان يُعرض على التلفزيون جزء من برنامج موجو الوثائقي عن خوليو: كان موجو قد أنهى المونتاج الأخير.

في بعض الأحيان، كانت عينا خوليو تفتحان واسعاً، وتزّم شفتاه، ويصبح في غاية الحماس والإثارة مثل أمير غابة؛ كان أحياناً يدندن لحناً ويتمايل، ويبدو على وجهه صدق وحماس عاطفي عميق.

كانت زوجتاه السابقتان كما وصفهما موجو تماماً في رسائله الإلكترونية السابقة: مثل الحليب والعسل، لكنهما مدمرّتان.

كان والد خوليو يحتفل بعيد ميلاده الثامن والتسعين، الذي يوجد لديه قرابة ثلاثة وأربعين ابناً، وستة وثلاثين حفيداً، وأحد عشر طفلاً، بالإضافة إلى أكثر من مائتي صديق وجار. كان هناك بحر كبير من المدعوين يغنون ويرقصون.

في الطائرة الصغيرة المتجهة إلى كوبا، كان هناك ثلاثة أقفاص فيها ديكة، وكان بعضها يصيح بصوت عال. ثم جاءت صورة مقرّبة لأجنحة الدجاج وهي تتحرك.

في الحفلة الموسيقية الضخمة في كوبا، رقص عشرون ألفاً من الرفاق من الطبقة العاملة الكوبية وكانوا يلوحون بأيديهم فيما كان خوليو يغني بكل جوارحه.

عانق كاسترو ذو اللحية الطويلة خوليو محيياً إياه. لاحظت أن كاسترو كان ينتعل حذاء رياضياً من ماركة «نايكي».

١٣

المؤلفون والنقّاد الرجال

أتساءل لماذا يصبح الرجال جذّيين على الإطلاق. فلديهم ذلك الشيء الطويل الحساس يتدلى خارج أجسامهم، الذي يعلو ويهبط من تلقاء نفسه... لو كنت رجلاً لما توقفت عن الضحك من نفسي.

يوكو أونو

أظن أنه كان بوسعي أن أمكث في البيت وأخبز الجاتو وأعدّ الشاي.

هيلاري كلنتون

يخيّل إليّ أحياناً أنني أشبه لينوس في أفلام سنوبي للرسوم المتحركة، ويخيّل إليّ أحياناً أنني لا أستطيع أن أعيش بدون الحبّ.

فأنا بحاجة دائمة إلى الحبّ، ويبدو أني أحتاج إليه أكثر مما تحتاج إليه الأخريات. فبدونه لا أستطيع أن أتنفّس، لا أستطيع أن أعيش. أحمل الحبّ في فمي، أخبئه تحت وسادتي، أضعه في فرجي، أدوّنه على الورق.

قبل أن أتعرف على موجو، كان جوهر حبّي أنني أعشق الحبّ. فقد كان الرجال هؤلاء بالنسبة لي، الواحد تلو الآخر، مجرّد مغلفات تسير وتحمل قضباناً. وكنت آخذ حبّي وأضعه في هذه المغلفات لفترة من

الزمن، وأتظاهر بأن أحداً قد بعث لي برسالة رومانسية من مكان ما في العالم يطلب فيها حبّي. وكنت أتظاهر بأني أتلقى هذه الرسائل بقدر كبير من المفاجأة اللطيفة. هذه الرسائل التي يكون مضمونها ـ الحبّ ـ منذ بداية نشأتي. إن الحبّ هو الشيء الذي يجب أن أخزّنه في جسد رجل مؤقتاً.

أما موجو فكان يبدو مختلفاً تماماً عن رجال المغلفات أولئك. فلأول مرة جعلني أشعر بنوع من الدفء الروحي والصدق في الحبّ. لأول مرة جعلني أرى سحر الجنس وآفاق الخيال اللامحدود. للمرة الأولى جعلني أدرك أن الحبّ والجنس يمكن أن يكونا متناغمين.

لقد منحني أشياء كثيرة بالإضافة إلى الحبّ. فقد فتح لي بعض النوافذ، وأراني عالماً لم أكن قد رأيته من قبل، أو لم أتوقف أبداً لأراه حقاً.

فعندما نكون معاً، كنا نمضي وقتاً طويلاً ونحن نقرأ، نتحدث، نتأمل، نمارس الحبّ، نأكل، نضحك، وكنا بالطبع نختلف قليلاً. ولم أعد أدخّن الآن، ولم أعد أشرب، أو أتعاطى المهدئات. أصبحت أحلامي أكثر هدوءاً من قبل، وبدأت تظهر لي جزيرة بوتوو بشواطئها وجبالها ومعابدها.

كنا آنذاك في شهر آذار، وكان حبّنا قد بلغ شهره الثالث.

وبدأت الأشجار تكتسي حلة خضراء على أرصفة نيويورك، وأصبحت ترى أول ارتعاشة أزهار الكرز. كانت الرياح لا تزال قوية، لكنها لم تعد شديدة القسوة. لأن الربيع قد أضحى على الأبواب.

في ذلك الأسبوع، كنت مشغولة.

كنت سألقي يوم الاثنين محاضرة على طلاب التخرج وطلاب

الدكتوراة في قسم دراسات شرق آسيا في جامعة كولومبيا. وكنت أنا ومجموعة من الكتّاب الزائرين من الصين من بين المحاضرين الرئيسيين.

كانت قاعة المحاضرات أشد ازدحاماً مما كنت أتوقع. نظرت من فوق بحر الرؤوس السوداء والشقراء، ورأيت الأشخاص الواقفين في البهو. سألت أحد المنظمّين عن سبب هذا الازدحام، وتبين لي أن أكبر صحيفة صينية في أمريكا كانت قد أعلنت عن المحاضرة في صفحة كاملة تحت عنوان رئيسي مثير: معركة حاسمة بين التيار البديل في مواجهة التيار السائد. محاضرة يلقيها عدد من المؤلفين الممنوعين والمؤلفين الرسميين من الصين في جامعة كولومبيا». وقد قرأ الكثيرون هذا الإعلان، وأسرعوا لحضور المحاضرة.

كان هذا النوع من الدعاية الفاضحة يسبب الفوضى، وقد عانيت الكثير من ذلك.

ففي واقع الأمر، إذا كان كتابك محظوراً في الصين فهذا ليس موضعاً للتفاخر. إذ إن ذلك يعني عقوبة شديدة، شيئاً يجعل الكاتب يضطر لأن يتوارى عن الأنظار وأن لا يظهر في الأماكن العامة لست أو سبع سنوات. أما الكتّاب المعترف بهم رسمياً، فيمكنهم أن يسترخوا ويقبضوا راتباً شهرياً مضموناً من الحكومة طوال حياتهم.

كان يجلس على المنصة سبعة رجال متوسطي الأعمار يضعون ربطات عنق ويرتدون بدلات لم تقتلع اللصاقات من أكمامها بعد، وفتاة شابة ذات أظافر طويلة، وشعر طويل، ترتسم على وجهها ابتسامة تتسم بالدفاع عن النفس. ثمانية أشخاص يجلس أحدهم إلى جانب الآخر، في مواجهة الجمهور.

بعد أن ألقى كلّ واحد منا كلمة قصيرة يعرض فيها وجهة نظره عن الأدب، انتقلنا إلى الجزء الذي سيطرح فيه الحاضرون أسئلة.

وُجِّهت معظم أسئلة الحاضرين إليّ، وهكذا فقد أصبحت نجمة العرض. لكنني مضيت بحذر، أبذل ما بوسعي لأن أوّجه الانتباه إلى المؤلفين الذكور السبعة الذين كانوا يكبرونني سناً والذين قدموا من مكان بعيد. حتى أنني عندما كنت أردّ على الأسئلة الموجهة إليّ، كنت أخاطبهم باحترام وبنبرة إطرائية بعبارة «أستاذ».

لم تكن الأسئلة جديدة عليّ تماماً. فقد وجّه إليّ الصحفيون هذه الأسئلة مئات المرات من قبل.

«لماذا تكتبين؟»

«ما نسبة الواقع إلى الخيال في أعمالك؟»

«لو كان رجل هو الذي ألّف كتابك، فهل سيهاجمه الرأي العام هكذا ويحظر تداوله أخيراً؟» «كم أنت مختلفة عن جيل الكتّاب الأخير؟»

«هل تفضّلين الرجال الغربيين أم الرجال الصينيين؟»

أعطيتهم ردوداً مدروسة. كان الحاضرون يقهقهون ويصفقون. لكنني منذ بداية المحاضرة وحتى نهايتها، كنت أحسّ، بالمقارنة مع هؤلاء المؤلفين الرجال ببدلاتهم الرخيصة وسلوكهم الجامد، بأني فتاة عصرية لكني ضعيفة، تجلس أمام عيون فضولية وناقدة كثيرة. كنت مثل طير مرعوب.

عندما أواجه جمهوراً معظمه من الذكور، كنت أصمد بعناد، لكنني كنت أشعر في الوقت نفسه بخوف عميق. ورغم التقدّم الذي أحرزه المجتمع، فلا يزال التحامل وسوء الفهم تجاه المرأة قائماً. وخاصة عندما يربط الناس الجنس بالسياسة.

بعد انتهاء المحاضرة، توجهت المجموعة كلها إلى مطعم «ماونتن كينغ». وتحلّق ثلاثة عشر شخصاً حول مائدة مستديرة كبيرة. كانوا يبدون جميعهم متساوين ولطيفين. فبعد أن تنقشع الغمامة، يجب أن تستخدم الطعام لتملأ شقوق الحياة المزعجة.

طلب البروفسور من قسم دراسات شرق آسيا الطعام. قريدس مع الجينسنغ الأسود، وسرطان بحر مشوي مع بصل أخضر وزنجبيل، وبطة بكين، وخضار، وكرات لحم، ومحار مع توفو وأطباق أخرى وضعت في وسط المائدة المستديرة. كانت هناك مختلف الألوان والروائح التي تثير الأنف ـ عرض رائع من الأطباق. ففي غالب الأحيان، فإن تناول الكثير من الطعام الصيني المعقّد يجعل المرء سعيداً على نحو رائع. وبالنسبة لمعظم الصينيين، يعتبر الطعام الصيني أحد أسباب العيش.

لم يذكر أحد من الكتّاب الثلاثة عشر الذين يتناولون عشاءهم أيّ شئ عن الأدب. وراح الكتّاب الرجال يتحدثون باللغة الصينية بصوت عال، وكانوا بين الحين والآخر يضحكون كما لو كانوا أعضاء في تحالف عظيم واحد. وأخذوا يناقشون بنفاد صبر مع البروفسور، جدول الرحلة لزيارة معالم نيويورك خلال الأيام القليلة القادمة، مثل موعد الذهاب إلى متحف المتروبوليتان، وشارع برودواي، وبالطبع مخلّفات الحادي عشر من أيلول.

ثم عزم عدد من الرجال منهم على أن يجري بحثاً ميدانياً عن الثقافة الرأسمالية، وسألوا بتردّد إذا كان بالإمكان اصطحابهم إلى أحد النوادي الجنسية.

ولم تكن لدى أحدهم النية في أن يحدثني بطريقة ودّية. فقد كانت

لغتي الإنكليزية، والثياب التي تكسو جسدي والتي تساوي مئات الدولارات، وحتى البثرات على وجهي، كانت جميعها أشياء لا يمكنهم أن يغفروها لي، مع أنهم ربما كانوا في الواقع يمزّقون ثيابي ويعرونني في مخيلتهم.

رحت أركّز على الأكل، وكان يبدو أنني أزداد قوة مع كلّ لقمة أتناولها. سوء الفهم، الجفاء، الغيرة، العداوة ـ كلّ هذه الأشياء أمور غير صحّية، لكنها لا تستطيع إلا أن تقوّي من مناعتك وتوسع مداركك. فعندما تشرب المرأة ماءاً وسخاً، يخرج منها حليباً للرضاعة.

وفي مساء يوم الخميس، أقام الناشر حفلة صغيرة حضرها قرابة أربعين مدعواً، في أحد المقاهي الصغيرة في حي الفيليج.

ومع أن المقهى كان صغيراً، فإن مساحته الفعلية لم تظهر على حقيقتها. فبتلك الرؤوس المشرئبة والأجواء الحيوية، بدا المكان أكبر بكثير مما كان في الواقع.

كان بين المدعوين محرّر دار النشر، والمسؤول عن الترويج، وأشخاص من أقسام التوزيع والتسويق، وبعض المؤلفين والنقّاد. وكان هناك كاتب محلي فاز لتوه بجائزة أدبية. وكان يشبه قليلاً شخصية المؤلف ميلفن التي قام جاك نِكلسون بتمثيلها في فيلم «أفضل ما يمكن»، الذي كان يجد متعة في إذلال الحيوانات والنساء والمثليين والملوّنين، إلى أن حوّله الحبّ إلى شخص طيب. تحدثت إليه وكان شخصاً محبوباً، لكنه كان مجنوناً بعض الشيء. وكان قد أحضر معه كلب جرمان شيبرد، مما جعل المقهى الصغير يزداد ازدحاماً.

«يا له من كلب جميل»، قلت أمتدحه.

ضحك وقال: «هكذا إذن، فعندما تمتدح فتاة ساحرة كلبي، فجأة

يصبح لديّ أمل». غمزني بعينه ثم مدّ يده إليّ بسرعة، وقرصني من مؤخرتي.

وفجأة لم يعد يبدو لي ذلك الرجل حكيماً، بل مجرد تيس عجوز يرتدي قميصاً من الفانيلا، وإلى جانبه كلب يقوم بجمع القطيع.

ابتعدت عنه. رحت أطوف حول الغرفة، أحييّ الناس بابتسامة، ثم اقتربت من شابّ.

كان شعره أحمر، في مقتبل العمر، ويبدو من وجهه الوسيم أنه مثقف وقارئ جيد. لم يبد لي أنه مختلف عن الطلاب الذين كنت أراهم غالباً في حرم جامعة كولومبيا، وإثنا عشر قلماً يتسرب منها الحبر تلتصق في جيوب قمصانهم وبناطيلهم الجينز المهترئة التي يغسلونها مرّة في السنة.

لكنني بعد أن تجاذبت أطراف الحديث معه، اكتشفت أنه لم يكن طالباً. بل عُيِّن مؤخراً ناقداً في صحيفة النيويورك تايمز. وكان اسمه إيريك.

لذلك قلت له إنني أنا وكتابي ظهرنا على صفحات النيويورك تايمز ثلاث مرات. مرّة منذ سنة، وكانت نصف صفحة تقريباً، ومرّة في الأسبوع الذي أعقب أحداث الحادي عشر من أيلول مباشرة؛ ومرّة في قسم الرحلات الخاصّ عن شنغهاي.

ضحك، وقال إنه قرأ كتابي للتو وقد أعجبه حقاً.

رحنا نتحدّث عن الثقافة الآسيوية. وقال إن أباه كان أستاذاً في أدب التيبت في جامعة كولومبيا، وكان قد اعتنق البوذية منذ زمن بعيد. وقال إنه يخطط للذهاب إلى التيبت قريباً.

قال: «إن التيبت أحد الأماكن في العالم التي حافظت على الوعي الإنساني في أكثر أشكاله بدائية». وافقته على كلامه.

تحدثنا كثيراً. اكتشفت شيئاً لطيفاً فيه، شيئاً حساساً وذكياً وودياً.

وفيما كنا نتحدث، لفتت انتباهه بلوزتي الحريرية الحمراء، التي كان فيها ثلاثة أزرار سوداء مخملية ملتفّة على شكل فراشات تهبط من الياقة باتجاه الإبط.

لم يتوقف عن امتداح مهارة عمل الخياطين الصينيين في وضع الأزرار. جعلني هذا الإطراء الحر أحلّق في الهواء. قلت له إن هذه الأزرار الملتّفة المصنوعة من الحرير أو من القطن أو من المخمل تأتي في أكثر من مائة شكل. فهناك أشكال غيوم، وزهر الأقحوان، وزهر اللوتس، وأزرار في شكل عملة صينية قديمة تعرف بـ «يوان باو» بالإضافة إلى سمك غولدفيش وأشكال أخرى.

اتسعت حدقتا عيني إريك من الدهشة، وأبدى إعجاباً صريحاً، وسأل فجأة: «هل يمكن أن يضع الرجال هذه الأزرار للزينة أيضاً؟»

«لم لا؟» عندما قلت ذلك لم أستطع أن أكتم ابتسامة. كان لطيفاً للغاية، ولم يكن مدعياً أو متكلفاً مثل النقّاد عادة. لعله لم تتح له الفرصة بعد لأن يصبح كذلك.

قبل انتهاء الحفلة، تبادلنا أنا وإريك أرقام الهواتف، واتفقنا على أن نحتسي القهوة معاً أو شيئاً من هذا القبيل في وقت ما. لقد أثار إعجابي. ربما كان مثلياً. ذكّرني بإكسير منذ سنوات، قبل أن تتحول إلى فتاة.

١٤
سرّ عن الحفلة الموسيقية

... وقبل كلّ شيء ألقيت ذراعيّ حوله، نعم وشددته إليّ ليشعر بثدييّ وبالعطر الذي يتضوع مني، نعم وأخذ قلبه يقفز كالمجنون، نعم قلت، نعم قلت نعم. وسأظل أقول نعم.

جيمس جويس، عوليس

كانت المسافة التي تفصل بين مكتب موجو وشقّتي في شارع واتس خمس دقائق سيراً على الأقدام. وكنا قد اتفقنا على الذهاب إلى قاعة كارنيجي لحضور حفلة موسيقية يحييها يو يو ما.

وكالعادة كنت أهرول في الشقّة، أجفّف شعري بمجفف الشعر، أضع مكياجاً، وأجرّب بعض الثياب، وكان الحرير البراق مبعثراً فوق السرير.

كان موجو هو الذي ساعدني على اتخاذ قرار سريع. فقد اختار لي رداء كيباو أسود ضيّقاً موشى برسومات العنقاء في طرفه الأسفل. وكنت أقول مازحة إني بعد أن أرتدي هذا النوع من الكيباو، حتى لو تناولت حبة فستق، يمكنك أن تكتشف وجودها على الفور. وبما أن هذا الكيباو كان شديد الالتصاق بجسدي، فقد كان يبدو أنه يذوب في جلدي. وكان هذا النوع من اللباس الحريري الصيني التقليدي يشبه قليلاً الأقدام المقيدة: فكلاهما نتاج جميل لعملية قاسية.

من الطبيعي أنه لم تكن هناك وسيلة تجعلنا نغادر في الوقت

المحدد. فكما قلت سابقاً: مكتوب في لوح قدري كلمة «متأخرة». بالتأكيد، لم أكن أصل في الوقت المحدد على العشاء، أو إلى السينما، أو لارتياد حفلة مع صديقي.

عندما وقفنا على ناصية شارع واتس والجادة السادسة نلوّح بأيدينا لإيقاف سيارة أجرة، لم يكن أمامنا سوى أربعين دقيقة. كان الجو عاصفاً، وبدأ يعترينا القلق. فلو تأخرنا قليلاً، لفاتنا النصف الأول من الحفل.

انتظرنا سيارة أجرة فارغة بفارغ الصبر. وما أن توقفت سيارة، حتى برز رجل وامرأة فجأة، واندفعا أمامنا وفتحا باب السيارة.

«هيه، كنا ننتظر هنا قبلكما»، رحت أصرخ، واندفعت نحوهما. لكنهما كانا قد أصبحا داخل السيارة. صرخت في السائق: «لقد رأيت ما حدث. أرجو أن تطلب منهما أن ينزلا من السيارة».

«إننا آسفان، فلدينا عمل مستعجل»، قالت المرأة الأمريكية وأغلقت باب السيارة. كان جلدها خشناً مثل لحاء الشجرة وذات أنف متغطرس.

لم يقل موجو شيئاً وفتح الباب وركب السيارة وقال: «حسناً، ففي هذه الحالة سنشاركما في التوصيلة. كوكو، اجلسي إلى جانب السائق؟» وفيما كان يتكلم، صعد وجلس في المقعد الخلفي وجلس إلى جانب الزوج.

«انتظر لحظة، إني آسف، إنك لا تستطيع أن تركب معنا»، قال الرجل الذي كان يرتدي سترة جلدية سوداء طويلة. كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع ذلك. كان ثمة شيء من الرعب في صوته.

«لماذا لا تستطيع؟» لم تكن هناك ابتسامة على وجه موجو. كانت عيناه تبرقان، وعروق صدغيه تنبض بقوة. وبصوت واضح وهادئ قال: «كنا أنا وصديقتي واقفين منذ حوالي عشر دقائق، وجئتما بعدنا، لكن

بما أنكما يجب أن تأخذا هذه السيارة، فإننا سنشارككما إياها إذن. لكن يجب أن ننزل أولاً عند قاعة كارنيجي. إننا سنتأخر على الحفلة الموسيقية».

سادت بضع ثواني من الصمت، ثم قرر الرجل والمرأة أن يستسلما. قال الرجل: «حسناً، يمكنكما أن تأخذا السيارة لوحدكما»، ونزلا.

تظاهر السائق بأنه لم يلحظ شيئاً، لكنه أخذ يقود بسرعة، متجاوزاً شارعاً إثر آخر.

ارتفعت معنوياتي، وقبّلت موجو عدّة مرات. فقد كان يبدو رائعاً وهو في بدلته الرسمية. كان بطلي الحقيقي. ففي نيويورك الباردة والبليدة، يعد الصراع على سيارة أجرة عند ناصية الشارع حدثاً يومياً. وتعتبر الرياح العاصفة والمطر الذي يهطل بغزارة في شارع وول ستريت شيئاً عادياً. لكنه كان درساً جديداً لي. فقد أراني موجو كيف يمكنني أن أدافع عن نفسي بهدوء.

وصلنا إلى مكان الحفلة قبل بدايتها بخمس دقائق فقط. واتجهنا مهرولين إلى مقاعدنا في الشرفة.

كان عالماً مختلفاً تماماً عن العالم الذي كنا فيه منذ لحظات قليلة. جلس أحدنا بجوار الآخر في الشرفة في الطابق الثاني، في مواجهة المسرح تماماً. وفيما كنا نتنفس الصعداء، خفتّ الأضواء، واشتدت الإنارة على المسرح. كان يتخلل الهواء نوع من الصمت الذهبي، شيء لا يكاد يُلمس، وشيء من نقاء الذاكرة. موسيقى كلاسيكية في قاعة موسيقية رائعة، فخمة تعيد لك جميع هذه المتع، مع أن الأشياء التي خبرتها ـ باخ، الربيع القلق وأنت في عامك السابع عشر، ابتسامة حبيبك النقية ـ قد تصبح شيئاً من الماضي في ومضة عين.

كان يو يو ما، صينياً مستغرباً، وهو أحد الأساطين في عالم

الموسيقى الكلاسيكية الذي صعد وتبوأ مراتب عالية. صعد إلى المسرح وعلى وجهه ابتسامة مضيئة. دوّى التصفيق، ثم سادت فترة قصيرة من الصمت، وبدأت الموسيقى تنساب في الأثير. وحبس الناس أنفاسهم وساد صمت مطبق، وكأنهم نوّموا مغنطيسياً.

لقد أعجبني كثيراً عزفه لمقطوعات باخ على التشيلو. فقد سمعت الحركة الأولى من هذه المقطوعة على التشيلو عندما فتحت عيني في منزل موجو في صباح أحد الأيام، وقد ترى في هذه الموسيقى قطعة جديدة ورائعة من الفيروز، يتدفق وراءها نهر، رائق وعميق، يجرف الجليد الذي لم يذب في تياره المتدفق. وكنت تسمع بين الحين والآخر، صوت صفق أجنحة الملائكة برفق. تغدو عاجزاً عن الكلام من شدة التأثر.

التفت قليلاً ونظرت إلى موجو الجالس إلى جانبي وهو يضع منظاراً على عينيه، مستغرقاً تماماً في الاستماع إلى العزف. وكانت ثنيات قميصه الأبيض، قد ارتفعت وراء كميّ بدلته السوداء عند رسغيه. كان ظهره المشدود منتصباً باستقامة، وشعره الطويل يشبه شعلات سوداء داكنة، وتعلو وجهه قسمات نبيلة تجعل المرء عاجزاً عن الكلام.

كانت هذه إحدى تخيلاتي الجنسية: قاعة موسيقية فخمة، حشد من الناس في ثياب رسمية أنيقة، والهواء لذيذ على نحو مغوٍ، ويجلس إلى جانبك رجل في بدلة سوداء مصقولة كالرخام، وقميص أبيض يظهر عند أكمامه، صامتاً. لا تعرفين شيئاً عن روحه من الداخل، ولا عن جسده أو بدنه الذي ترينه، لكنك لا تفهمينه تماماً. لا تعرفين شيئاً عن مكانته في الحياة، أو عن حياته، مع أنه يجلس بقربك، وإذا مددت يدك، يمكنك أن تصلي إلى سحّاب بنطاله.

تخيّلي أنه بإمكانك أن تفتحي السحّاب، كما تفتحين باباً على

مصراعيه، وتنفتح أمامك إمكانيات لا حدود لها، وتتطاير أصابعك برقة ونعومة وكأنها بتلات ورود، حتى تتدفق منها قطرات الندى.

أنتِ وهو على وشك أن تغيبا عن الوعي في هذا الشغف العبثي القابع على حافة كابوس. ومع ذلك يبقى وجه كلّ منكما خالياً من التعابير، تجلسان هناك خارج الزمن والواقع مثل تمثالين باردين رائعين.

حبست أنفاسي. كانت تبلل طرف أنفي حبات من العرق. عليّ أن أعترف أن أحلاماً جنسية كهذه متعة من المتع الموسيقى الكلاسيكية التي تعزف في القاعة الموسيقية الآن.

بعد أن انتهى العزف، توجهنا إلى وراء الكواليس. كان هناك عدد كبير من الناس. رأينا صديق موجو، سيد العقارات في نيويورك ريتشارد وزوجتهِ اليابانية «وو». فقد كان ريتشارد قد عزم منذ طفولته على إلى أن يكون عازف بيانو شهير، لكنه أصبح في نهاية الأمر رجل أعمال مشهوراً وثرياً. وبعد أن خبر تقلبات القدر، بدأ يقدم دعماً مالياً لجميع أنواع الحفلات الموسيقية الكلاسيكية.

بل كانت علاقة موجو بزوجة ريتشارد «وو» أكثر قرباً في الواقع. فقد كانت «وو» أشهر فتاة غيشا في اليابان، ولعلها كانت في رأي موجو المرأة التي تقترب من الكمال. فرغم أنها كانت تقترب من الستين من العمر، كانت تبدو فاتنة في ردائها الكيمونو الرائع. وكان التجميل الذي كانت تجريه على وجهها مرتين في الأسبوع بقيمة ثلاثمائة دولار، والتدليل المستمر جعلاها تبدو في السابعة والثلاثين أو في الثامنة والثلاثين من العمر.

كان ذلك شيئاً لا يصدق حقاً.

وكانت تدعو موجو بأخي الصغير، وكانت نادراً ما تعدّ العشاء لزوجها، لكن عندما مرض موجو كانت تعدّ له السوشي وحساء حاراً

بنفسها وتحضرهما إلى شقّته. وكانت مهارتها في الطهي، برأي موجو، «لا تشوبها شائبة! من الطراز الأول!»

ثم رأينا يو يو ما، الذي لم تكن البسمة تفارق شفتيه. وكان موجو قد ساعد ذات يوم في تنظيم حفل موسيقي في اليابان أحياه يو يو ما، وقد حضرته العائلة الإمبراطورية.

وبعد انتهاء الحفل الموسيقي ذهبنا جميعنا إلى حفلة كوكتيل في فندق بلازا.

لم نشرب أنا وموجو أي مشروبات كحولية. فقد ساعدني موجو على الإقلاع عن شرب الكحول وعن التدخين وعن تعاطي المهدئات. وتبين لي أن هذا الأمر لم يكن صعباً كما كنت أتخيل. لكن مع أنني لم أشرب شيئاً من النبيذ، ومع أن الليل قد حلّ، كان لا يزال ينتابني شعور بأنني ثملة، وكأنني كنت أدور ببطء وأحلّق في الأثير. كان القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول الشمس، والشمس في وسط جسد الشخص الذي أحبّه، لذلك رحت أدور حوله.

كان يو يو ما، عازف التشيلو البارع، شارباً نهماً، فقد بدا أنه يجرع النبيذ مثل حوت. وكان أبي الذي يستطيع أن يشرب مثله، قد قال لي ذات يوم: «يمكن الاعتماد على الرجال الذين يشربون كثيراً ولا يخشون من السكر».

كنت أشك في هذا. لكن الابتسامة التي لم تكن تفارق وجه يو يو ما، كانت دافئة ونقية، وكانت تبدو محبوبة ورائعة.

كان ريتشارد و «وو» زوجين غريبين، لكنهما كانا مثيرين للاهتمام. وكانت بطن ريتشارد ترتج كالهلام عندما يضحك. كان رجلاً ضخماً ذا لحية غير حليقة، يجأر كدبّ أحياناً، وفي أحيان أخرى يموء كقطة صغيرة تبحث عن حبّ أمّها. كان يحبّ جميع أنواع الفنون الجميلة

وناشطاً في الجمعيات الخيرية وفي حركات حماية الغابات المطرية الاستوائية في البرازيل.

كان ريتشارد يحبّ «وو» كثيراً، ويغار عليها من الرجال الذين تعرفهم بمن فيهم ابنها البالغ من العمر الخامسة والعشرين من زوجها السابق.

إلا أن بعض تصرفاته الطفولية في حياته اليومية كانت تثير الدهشة. فقد كان يلتهم أيّ نوع من الآيس كريم تقع عينه عليه، ويقع مريضاً على إثرها على الفور. وكان يستيقظ في الخامسة والنصف صباحاً، ويطلب من سائقه أن يأخذه إلى هامبتونس، حيث يكون قد ركن السيارات هناك مجاناً قبل الساعة العاشرة صباحاً، لذلك كان بوسعه أن يوفر ثلاثين دولاراً. كان يشعر بسعادة فائقة عندما يوفّر ثلاثين دولاراً، ويشعر بسعادة بالغة عندما ينفق ثلاثمائة دولار على طعام غداء يدعو إليه جميع الموظفين في العمل.

كانت أول هدية قدمها إلى «وو» قطعة حجر كان قد التقطها من وسط رصيف مشاة وهو في طريقه إلى موعد معها. فقد رأى شيئاً ثميناً في قطعة الحجر القاسية والقبيحة هذه، وظل يهنئ نفسه بأن أحداً لم يلحظها قبله.

بالمقارنة، يبدو أن مرّطب الجوّ الذي أهداني إياه موجو في أول موعد لنا كعربون للمحبة أعظم بكثير من قطعة الحجر تلك.

كان ريتشارد حيوياً ومفعماً بالنشاط، لا يتوقف عن تحريك يديه وهو يشرح لي ولموجو بعض الملاحظات الذكية عن علم الجمال.

«ما هي الحقيقة الروحية، وما هي الحقيقة البصرية؟ لماذا تكون هذه الأشياء شديدة التباين أحياناً؟ فبعينِك المفتوحتين على وسعهما ترى امرأة جميلة تقف أمامك بإغراء، ومع ذلك فإنك لا تشعر بشيء. لكن

أغمض عينِك وفجأة، وعندما لا تستطيع أن ترى شيئاً - تستطيع أن ترى كلّ شيء».

«كيف لا تشعر بشيء إزاء امرأة جميلة تقف بإغراء أمامك؟» قال موجو مازحاً.

لم تظهر أية تعابير على وجه «وو» الرائع الذي لا يشيخ. وتحت ثنيات الكيمونو الموشى بالأزهار، وتحت غطاء مكياجها الرائع، كانت «وو» تتحرك بخفة ورشاقة. حتى أن عينيها كانتا ترمشان بحركة بطيئة، وكأنها في فيلم قديم.

لكنها حتى عندما لم تكن «وو» تصدر صوتاً، فإنها تظل تخترق وعيك. إنها بجعة جاءت من العصور الوسطى، فيها أبهة ملكية وتتصرف بجمال مفعم بالصبابة والحنين.

«حتى لو أمضى الكاتب حياته كلها يستخدم الكلمات لينقل عواطفه ومعتقداته، فهناك أشياء لا يريد الكاتب أن يذكرها للقارئ. وبالطبع، فأنا لا أتحدّث عن الأمور الخاصة، بل عن أشياء أكثر غيبية»، قال ريتشارد وهو ينظر إليّ مباشرة.

«همم. . . حسناً. . . كدت استسلم. يا إلهي، لم يكن يبدو أنه دلال عقارات على الإطلاق. لكني لم أكن في تلك اللحظة أشعر برغبة في مناقشة موضوع الكتابة مع أحد، بل كنت أشعر بالدورا بسبب حذائي ذي الكعب العالي، ورداء الكيباو الضيّق الذي جعلني أشعر بالضيق، لذلك لم أكد أستطيع أن أتنفّس. لقد حان الوقت لنغادر حفل الكوكتيل، حان الوقت لأن يبطل السحر.

لا أتذكّر ما قلته لريتشارد، لكن بعد سلسلة من الاحتضان والعناق، سرنا أنا وموجو مبتعدين بسرعة. وبعد أن عدنا إلى شقّة موجو، ثم خلعت حذائي ذي الكعب العالي بسرعة، وأزلت جميع دبابيس الشعر

من رأسي. وعندما بدأت أفك صف الأزرار في الكيباو، تدخّل موجو فجأة وقال: «انتظري لحظة، إنك لا تستطيعين أن تفعلي ذلك بنفسك. دعيني أساعدك». توقّفت، وافترت شفتاي عن ابتسامة غامضة.

قال: «آسف، دعيني أغسل يدي أولاً»، وهرع إلى الحمّام. سمعت صوت الماء يتدفق من الصنبور، ثم خرج من الحمّام وجاء إليّ مسرعاً.

ما أن مرر عينيه النهمتين فوق الكيباو، ضمني إليه بذراعيه. وفي الوقت نفسه، راح يقبّل عنقي تحت أذنيّ، وبدأ يمسد ذراعيّ وكتفيّ وصدري بلطف. كانت طبقة الحرير الملتصقة بجسدي تلك هي جلدي. فقد كان بوسعي أن أشعر بكلّ شيء من خلال الحرير، بل كنت أشعر بقوة أكبر مما لو كنت عارية.

«أتحبّ ذلك؟» همهمت.

لم ينبس بكلمة.

«يخيّل إليّ أني أسمع صوت الحرير وهو يتمزّق؟» كان صوتي مكتوماً وكأني كنت أتحدث في منامي. صوت هسهسة من الإثارة يدغدغ قلبي.

هذه هي أنا. إني أعرف أي نوع من النساء أنا. لا مناص من ذلك، فهناك أشياء مُقَّدرة ولا يمكنك تحاشيها. إنها تجري في دورتك الدموية. هذا هو نوع المرأة التي أنا.

رحت أوّجه موجو في عملية التمزيق. يبدأ عند الساق، ويرتفع إلى الأعلى، بقوة في البدء ثم يمضي بخط مستقيم. يجب أن تحبسي أنفاسك وتسيطري على صوتك، وإلا ستفوتين جمال هذه اللحظة من الصوت.

انطلق مرة أخرى وهج من عينيه فأثارني. لقد جعل النور المنبعث من عينيه فرجي ينقبض بشدة إلى حد كاد يكون مؤلماً.

وبغتة دفعني موجو وألقاني فوق السرير الوثير الناعم، ثم أخذ يمزّق الحرير بحماس وجدية.

تأوهت، ورحت أتقلب كالأفعى التي تنزع جلدها. ضحك، توقّف عما كان يفعل، انحنى، وأطبق على فمي بقبلة. قال: «هسسس. . .» ثم عدّل جسده برهافة، ومضى يمزّق الكيباو الحريري بإصرار إلى قطع صغيرة.

كان صوت الحرير المتمزق، واضحاً ومتموجاً. كان صوتاً سامياً، فخماً، مرعباً لكنه ساحر. ويعلق هذا الصوت في الأذن لمدة طويلة. عندما تغمضين عينيك فإنك تظلين تسمعينه، ثم يجتاحك شعور بالإثارة، وتعتري الحرارة جسدك ويملؤك البلل ثانية.

في شنغهاي، عندما كانت خيّاطتي تجلب إلى بيتي رداء كيباو رقيقاً، أملس ورائعاً، كنت أقول لنفسي دائماً: «توجد جميع أنواع الجمال. لكن يجب حفظ أكثرها جمالاً، فهذا هو الجمال الأبدي. لكن جزءاً صغيراً يجب أن يمزق بدون رحمة. وهذا هو الجمال المؤقت».

١٥

في معبد المطر الورع

إنك لا ترى ما أنت، وإن ما تراه هو ظلّك.

رابندرانات طاغور

فوق الجبل الخاوي لا أستطيع أن أرى أحداً، لكنني أستطيع أن أسمع أصواتاً

الشاعر وانغ وي، كوخ دير بارك

جزيرة بوتوو ـ الخريف

بعد أن أبحرت في المحيط طوال الليل، بدأت العبّارة «السماء والبحر» تقترب ببطء من رصيف الميناء في الثامنة صباحاً. وبعد سلسلة من الهزات، توقف هدير المحرك، وأُنزل الدرج المتحرك، وطفق المسافرون يغادرون المركب مع حقائبهم.

كانت السماء قد أمطرت، وكان الرصيف لا يزال مبللاً. وأصبحت السماء صافية وتسلل نور الشمس عبر طبقة الغيوم. أخذت نَفَساً عميقاً من الهواء النقي، ووجدت نفسي في واد صغير تحيط به التلال الخضراء البهيجة. وكانت أفاريز المعابد القرمزية والذهبية المختفية بين ثنايا الأشجار الخضراء تتقد مثل حبات البندورة الصغيرة في سلطة طازجة.

بعد أن سألت عن العنوان، استقللت حافلة صغيرة مزدحمة بالركاب. كنت في طريقي إلى معبد المطر الورع.

في الطريق، فتنني المشهد. فقد كنت قد زرت هذا المكان مع أبويّ عدّة مرات خلال ثلاثين سنة من مولدي. لكني لم أكن أريد أن آتي إلى هذا المكان كثيراً. بل كنت أشعر بأني كنت مرغمة على المجيء. عندما كنت في ذلك العمر، أشعلت بخوراً ذات مرة من أجل بوذا، ولم يكن في دائرة اهتمامي إلا أن أتشمّس وألعب في الماء على الشاطئ الرملي الأبيض النظيف.

كانت مياه المحيط الزرقاء تتهادى برقة، وقد بدا الشاطئ الرملي الأبيض، وسلسلة الجبال التي تظهر ظلالاً مختلفة من اللونين الأخضر والبني الكستنائي، والغابات الكثيفة، وكلّ عشبة، وكلّ شجرة، وكلّ حجرة على جانب الطريق، بدت جميعها تبتسم لي مرحبة.

كم كان ذلك كله مألوفاً!

هبت نسمات المحيط المالحة على وجهي فشعرت بالبرودة، وأثارت الشعر الطويل وجعلته يتناثر. تفتحت جميع المسامات في جسدي. وغمرني شعور بالبهجة جعل عينيّ تترقرقان بالدموع.

توقّفت الحافلة في مكان لا يبعد كثيراً عن معبد المطر الورع. كنت آخر راكبة تترجل من الحافلة.

رأيت مدخل النصب التذكاري المقنطر المرتفع ذي الحجارة الرمادية المائلة إلى اللون الأخضر وقد نقشت عليه عبارة «معبد المطر الورع» بلون أحمر ياقوتي. ولم يكن خلفه سوى جسر صغير مزيّن بصفّ من الأسود الصغيرة المنحوتة. وكان المعبد خلف عدد من الأشجار الكثيفة.

بعد أن عبرت الجسر الصغير وجازفت بالسير في درب ضيق تظلله الأشجار وتكسوه أحجار مقببة تعلوها الطحالب وجدت المعبد وأحسست بسكونه الرصين.

قرّرت أن أبحث عن فندق أولاً. فقد تذكّرت من زيارتي الأخيرة حانة صغيرة يديرها صيادو سمك محليون تقع على المنحدر إلى جانب المعبد. عندما اقتربت من المنحدر لألقي نظرة، اكتشفت أن الحانة كانت لا تزال موجودة هناك. حانة «الوصول السعيد». يبدو أنها عانت الكثير، مثل صديق قديم لم أره منذ سنوات عديدة.

كانت عملية التسجيل بسيطة للغاية، وكانت الغرفة رخيصة على نحو يثير الدهشة. عندما عادت بي الذاكرة إلى الحياة في مانهاتن، بدا لي أن الجميع يبددون أموالهم هناك طوال النهار.

قادتني فتاة شابة ذات خدين موردين بسبب نسيم البحر تحمل بيدها ترمس ماء حار إلى غرفتي. كان صوت وقع خطواتها عالياً وهي تسير أمامي. كان اتجاه غرفتي إلى الجنوب باتجاه المحيط.

وضعت الفتاة الترمس على الطاولة، وأعلمتني بمواعيد وجبات الطعام الثلاث والماء الحار للاستحمام، ثم غادرت وعلى شفتيها ابتسامة خجولة.

ألقيت بنفسي على السرير، يهدهدني صوت هدير أمواج المحيط، والريح تهّب عبر الأشجار على التلال. أظن أني حلمت، لكني ما أن فتحت عيني حتى نسيت الحلم.

نظفت أسناني، استحممت، ومارست التأمل على الطريقة الطاوية لمدة نصف ساعة حتى حان وقت الغداء. ارتديت ثوباً أبيض فضفاضاً وانتعلت حذاء مريحاً وذهبت لأتناول طبقاً من المعكرونة الرفيعة مع بعض المأكولات البحرية في المطعم الصغير في الطابق الأرضي من الفندق.

كنت وحدي. لم يكن ثمة أحد يعرفني، لم يكلمني أحد. لكني لم أشعر بالوحدة. بدا أنه ليس لهذا المكان صلة بأيّ جزء آخر من الكرة

الأرضية. عالم ليس من هذه الأرض، معلّق في الأفق، يعوم فوق سطح المحيط الهائل. بدا أنه لم يكن يهتم بالماضي ولا يقلق على المستقبل. إذ يوجد وحده منذ الأزل. إنه خواء أبيض نقي، سرعان ما تتلاشى الذكريات المظلمة فيه ولا يعود لها أي أثر.

بزغت الشمس الآن وغمرتني بنورها. وكانت تعبق في الهواء الخريفي رائحة شيء محترق، لكنها كانت رائحة لطيفة. بعد عشر دقائق وصلت إلى الحجرة الخضراء عند مدخل معبد المطر الورع ذي القناطر. اجتزت البوابة العالية المقنطرة وعبرت جسراً صغيراً، ثم سرت في درب يخيم عليه الهدوء والسكينة. وبعد قرابة خمس دقائق، ظهر أمامي جدار أبيض ضيّق وباب خشبي تآكل بسبب الريح والمطر. كان الباب موارباً، تقدمت لأخطو فوق عتبة الحجرة الزرقاء.

ما أن عبرت عتبة المعبد، حتى غمرني شعور بأني كنت قد رأيت المعبد من قبل.

كان كما لو كنت قد عبرت هذه العتبة مرات كثيرة في الماضي، منذ أمد بعيد، ولكن بجهد كبير. في المشهد الذي أتذكره، كنت لا أزال طفلة في الثانية أو الثالثة من عمري وكانت عتبة الحجرة الزرقاء التي يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً مرتفعة بالنسبة لي. لم يكن ثمة إنسان على مرمى البصر في هذا المشهد الحلمي الواضح. فلم تكن هناك سوى طفلة صغيرة تبذل كل ما بوسعها لترفع ساقها الصغيرة وتطأ القطعة الحجرية. كان المشهد برمته يشبه لوحة للرسام دي شيريكو مشبعة بالطمأنينة، وقد جعلها نور شفّاف تبدو مرعبة بعض الشيء.

دخلت الفناء بتؤدة ويداي في جيبي. في الغرفة الأمامية، كان ثمة مكان لتقديم الأضاحي لغوان ين، ويصطف عدد من تماثيل بوذا في جلال مهيب، وعلى طرفيّ هذه الغرفة العظيمة، توجد غرف أوطأ

وأبسط قليلاً فيها ممرات طويلة لآلهة بوذا الأخرى الأدنى مرتبة. وكانت توجد غرفة للزوّار، وقاعة تأمل يتلو فيها الرهبان الكتاب المقدس «السوترا» وغرفة طعام صغيرة لهم.

بعد أن انحنيت أمام بوذا، سرت باتجاه فناء ظليل عند الزاوية الخلفية من حدائق المعبد. ووقعت عيني على العديد من أشجار بودي القديمة، التي يعود عمرها إلى خمسة أو ستة قرون.

استغرقت في تأمل جدران الغابة الحضرية الخرسانية، التي تتيح فرصاً ضئيلة للتواصل مع الطبيعة. عندما كنت أرى شجرة ضخمة، كان مشهد هذا الجمال الدائم والبهي، والتفكير بأن هذه الشجرة استغرقت مئات أو آلاف السنين لكي تصل إلى هذه الدرجة من الجمال يثيرني تلقائياً.

كانت جذور شجرة بودي المتغضّنة والمتقاطعة أمامي قد غُرست بصمت وثبات في الأرض، فيما وصلت أغصانها وأوراقها أعالي السماء. عندما رفعت رأسي لأنظر إليها، لم أتمالك نفسي من أن أفكّر لوهلة بالحياة البشرية. لم يكن «عالم الوهم الفارغ» هذا ضرباً من الكآبة. فالأشجار التي يصل عمرها إلى مائة سنة أو ألف سنة تمتلك قوى شافية خاصة، قوى تتدفّق في نسغ الأشجار وتتجه مباشرة إلى قلبك.

شممت رائحة الأشجار القديمة، وسرت باتجاه مجموعة من الناس كانوا يتحلقون تحت ظل إحدى الأشجار لمشاهدة راهب عجوز وراهب شاب يلعبان لعبة «غو».

لم أكن أعرف كيف ألعب لعبة غو، لكن هذين الراهبين اللذين كانا يرتديان أردية كهنوتية رمادية ويشدان على خصريهما حزامين مثل جدّ

وحفيد، لفتا اهتمامي. كان للكاهن العجوز عثنونة، وقد أبرز خداه الرقيقان أنفه، وكان طرف أنفه أحمر قليلاً. لم أتمكن من تخمين كم كان عمره. وكانت ترتسم على وجهه قسمات ضاحكة، لكن دون أن يضحك، قسمات تعبّر عن النوم دون أن يكون نائماً، وكانت تنبعث من جسمه قوة مغناطيسية غريبة. إن نظرة عن كثب تظهر أن للراهب الشاب قسمات مرهفة جميلة، وعينين سوداوين متألقتين. كان يبدو حاد الذكاء. كان يبدو أنه في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره تقريباً.

قررت أن أقف على أحد الجانبين وأتفرج.

كانا يحدقان باهتمام شديد في لعبتهما، شاب وعجوز. وكانت قد تجمّعت لآلئ صغيرة من قطرات المطر على الأوراق الكثيفة التي تكسو الشجرة الضخمة، وكانت تتساقط قطرات فوق لوح لعبة غو الخشبي، محدثة صوتاً متكسراً.

كان الناس المتحلقون حولهما يأتون ويذهبون، لكنني ظللت واقفة هناك أتفرج عليهما. فمنذ أن وطأت قدماي هذه الجزيرة لم أكن أملك شيئاً سوى الوقت. وعندما شعرت بالتعب بسبب الوقوف جلست على مقعد قريب.

بدأت السماء تظلم شيئاً فشيئاً. ففي الجزيرة الصغيرة، يبدو أن المرء يشعر بأن الوقت يمرّ وهو ينظر إلى ألوان السماء. لكن السماء تنير هنا في وقت أبكر مما تنير في المدينة، وتظلم في وقت أبكر أيضاً.

ألقى الراهب العجوز أخيراً قطعة اللعبة السوداء وهو يتنهد.

«لقد ربحت»، قال للراهب الشاب.

ابتسم الراهب الشاب، وشعّ وجهه النقي الطفولي. فقد كانت هذه هي المباراة الوحيدة التي يفوز بها من بين عشر مباريات.

رحت أصفق بهدوء، مبتسمة.

رفع الراهب العجوز رأسه ورمقني بعينيه وهز رأسه قليلاً. ضممت راحتا يديّ في بادرة الاحترام وانحنيت قليلاً.

«أرى أن الشابّة في مقتبل العمر. أرجو أن تغفري لي سؤالي، هل هذه هي أول مرة تزورين فيها هذا المكان؟» سألني بوّد.

هززت رأسي بسرعة وقلت: «لا، لقد جئت إلى هنا مرات عديدة في الماضي - بل إني ولدت هنا».

استمع الراهب العجوز وهو يمسد لحيته. صمت برهة وكأنه تذكّر شيئاً.

في هذه اللحظات، كان الراهب الشاب قد جمع اللوحة وقطع اللعب. حدّق بي بفضول لوهلة بهاتين العينين السوداوين، ثم حوّل انتباهه إلى سيده. هزّ سيده رأسه قليلاً.

«نعم، أظن أني أتذكّر شيئاً من هذا القبيل. ففي ذات يوم ولدت فتاة في معبد المطر الورع قبل أوانها من امرأة كان يبدو أنها قطعت مسافة طويلة».

سرت رعشة في جسدي وبدأ قلبي يخفق بقوة. ما قاله الراهب العجوز كان ما كنت أسمعه غالباً من أبي وأمّي عن ولادتي. سألته: «هل يتذكّر السيد هذا الشيء؟»

جلس أمامي، يمسّد لحيته، ويرمقني بعينيه الرقيقتين، وكأنه تمكن في بضع ثوانٍ من رؤية كلّ ما حدث لي منذ عشرين سنة. جميع الأشياء الحزينة، السعيدة، السيئة، الجيدة، المملة، العنيفة.

كانت نظرته تشبه النار المنبعثة من مدفأة في الشتاء، أو مثل الشمس المائلة عند الغروب، دافئة ومعطاءة إلى درجة أني أوشكت على أن أنفجر في البكاء.

ثم سألني أخيراً: «هل أنت تلك الفتاة التي أطلق عليها الاسم البوذي «الحكمة»؟

فجأة، وجدت نفسي أجهش في البكاء.

١٦

عيد ميلاد موجو

أثناء ممارسة الحبّ، نغوص إلى أعمق جزء في كينونتنا. وعندما أشعر بأن جسدي يذوب في جسده، وفي غمرة إحساس جسدينا بأنهما قد أصبحا جسداً واحداً، نشعر بأعظم سعادة.

من كلاسيكيات الحبّ الهندوسي

عندما يضاجع الرجل امرأة ولا يقذف بعد عشر مرات، فإن عينيه وأذنيه تزداد حدّة (أي حاستا الرؤية والسمع)؛ وإذا لم يقذف بعد عشرين مرّة فإن صوته يصبح واضحاً وقوياً؛ وإذا لم يقذف بعد ثلاثين مرّة تصبح بشرته لامعة براقة؛ وبعد أربعين مرّة يصبح ظهره وخصره قويين؛ وبعد خمسين مرّة يصبح ردفاه وفخذاه قويين؛ وبعد ستين مرّة يجف إحليله؛ وبعد مائة مرة ينعم بالصحة والعمر المديد..»

من الكلاسيكيات الطاوية الصينية

الجنس، الصحة، والعمر المديد، أو الأعمال الكلاسيكية الطاوية: مجموعة ترجمات لتوماس كليري

نيويورك ـ الربيع

شهر نيسان. لقد حلّ فصل الربيع في نيويورك. وبرز أخيراً بصيص من السعادة. وبدا أن الرعد الذي كان يقصف في الربيع بين الحين والآخر بدأ يوقظ براعم الأعشاب من سباتها. لا أظن أن الطقس سيعود ويصبح بارداً مرة أخرى.

لقد تحققت أحلامي، فقد تركت شقّتي في شارع واتس وانتقلت إلى بيت موجو في الطرف الغربي من مانهاتن.

عرفنيَ البوابان في الحال ـ الفتاة التي ترتدي الحرير دائماً. وشيئاً فشيئاً بدأ الاثنان يشعران بالراحة نحوي. حتى أن أحدهما، ويدعى سيغ، أصبح صديقاً لي، كان في الواقع شاعراً أيضاً. فقد كان يكتب الشعر أثناء نوبته الليلية. وقدم لي مجموعة كبيرة من قصائده المستنسخة على على آلة النسخ. وقدمت له لقاء ذلك نسخة موّقعة من كتابي. وقال لي إنه كان يمثّل في مسارح برودواي في الكومبارس عندما كان شاباً. كان لا يزال وسيماً ورقيقاً، وكنت تشعر عندما كان يفتح الباب لك ويحيك، بأنك تدخل إلى صالة المسرح.

إن البوّابين هم أدّلة سياحيين متنقلين. فإن كنت لا تعرف أين تصبّ نسخة من مفتاح، أو أين يمكنك أن تصدّق وثيقة عند الكاتب بالعدل، يمكنك دائماً أن تحصل على الجواب من أحدهم.

عندما انتقلت للعيش مع موجو شعرت بأننا مثل زوج وزوجة. إذ كانت ثيابي معلقة بجانب ثيابه، وملابسي الداخلية في ذات الدرج الذي يضع فيه ملابسه الداخلية، وجهاز كمبيوتري النقال على الطاولة، وفوطي النسائية محشورة في الخزانة في الحمّام، والفواكه الصينية المجففة التي أحبّ أن أتناولها في الثلاجة. كنت أبدو وكأن هوائياتي تمتد في الفضاء الثلاثي الأبعاد من حياة موجو.

وكان موجو يقول: «ليس هذا بالأمر السيء! فعلى الأقل لن أعود أشتاق إليك كثيراً». وكما كنت أتوقع، فقد توقّف عن الاتصال بي ثلاث مرات كلّ يوم كما كان يفعل.

وفي المساء، بعد عودته إلى البيت، كنا نطلب طعاماً من مطعم «تشاينا فن» ونتفرج على مباريات كرة السلة التي يلعب فيها فريق نيو

جيرسي نيتس، ثم نسترخي في حوض الحمّام، يفرك أحدنا ظهر الآخر، ونستخدم مقصّات الأظافر ليقصّ أحدنا أظافر قدميّ الآخر. وفي بعض الأحيان، كنّا إذا تذكرنا، ندخل إلى المطبخ الكبير ونفتح زجاجة الفيتامينات، ويضع كلّ منا حبة في فمه، ونشرب الماء من الكأس نفسه ونبتلع الحبوب. وبالطبع كانت هناك أيضاً قبلات بصوت مرتفع عندما نفتح عيوننا في الصباح، مثل زوج من الحمام تحت نور شمس الصباح.

كانت حياة شخصين كنت أصبو إليها في أحلامي. ثم جاء عيد ميلاده.

كان موجو على عكسي تماماً، يجد متعة بأيّ عيد وبجميع الأعياد في الحياة، بما فيها أعياد الميلاد. فقد قال بشيء من المزاح إنه بدأ يستعد لحفلة عيد ميلاده المائة عندما كان في العشرين. وبالطبع فإن جميع صديقاته السابقات (بفرض أنهن وصلن إلى ذلك العمر أيضاً) سيحضرنه. وقد شجّعه على ذلك، والد خوليو المفعم بالنشاط الذي يبلغ الثامنة والتسعين من العمر عندما كان موجو يصوّر حفلة عيد ميلاده الضخمة، والتي كانت بمثابة بروفة لعيد ميلاده المائة.

إلا أن هذه السنة لم تكن تبدو أنها سنة الحظ لموجو. فقد وقع الكثير من أصدقائه في مشاكل. إذ مرض ريتشارد فجأة، ربما بسبب تناوله كمية كبيرة من الآيس كريم. وكان خوليو يزمع أن يحضر عشاء عيد ميلاد موجو عندما سيأتي إلى نيويورك لإحياء حفلة لجمع التبرعات للجالية الدومنِكية، إلا أن دائرة الهجرة قررت فجأة أن تدرج اسمه على القائمة السوداء، وقال إن هذا ليس وقتاً مناسباً لدخول الولايات المتحدة. وفي هذه الأثناء، اضطرت كاري، زميلة موجو في العمل منذ

سنوات كثيرة، وكانت تعمل في قسم المونتاج، للعودة إلى سدني بسرعة لتعتني بأمّها المريضة.

لذلك قرّرنا أن نقيم نحن الاثنين حفلة وحدنا.

عدنا إلى الشقّة بعد أن تعشينا قليلاً من المحار ولحم الضأن في مطعم فرنسي غالي الثمن. وضعنا شريط موسيقى هندية في المسجلّة، وأوقدنا شموعاً حمراء في الشقّة كلها، وأخذنا حمّاماً معطراً، وارتدينا ثوب النوم: موجو في بيجامته، وأنا في غلالة قصيرة من الحرير كانت إكسير قد أهدتني إياها.

وساعدني موجو برفق في تمشيط شعري الذي كان لا يزال مبللاً بالماء، والذي كان قد تشرّب هو وبشرتي برائحة عطر غريبة كان موجو قد أحضره معه من بالي، والذي كانت رائحته تشبه رائحة العنبر تماماً. إذ تقول الأسطورة إنه عندما طار تنين فوق البحر، بصق فوقه، وعلى الفور تشكّل العنبر المعروف. وفي الواقع، فما أن يلامس هذا العطر جسدك، حتى تشعرين وكأن قلبك قد امتلأ برائحته التي لا تضاهيها أي رائحة.

ثم قادني موجو إلى غرفة النوم، وأخرج من درج صغير موصد بالقفل أشياء عديدة، وضعها على راحة كفه وقرّبها من عيني. الأولى قطعة خضراء باهتة من الحجر الكريم «الجاد» في شكل بيضة ينسل منها خيط حريري أحمر طويل من أحد طرفيها. والثانية كرة فضية بحجم حبة اللؤلؤ، تضم عدّة لآلئ أصغر حجماً، أخذت ترتعش قليلاً فوق راحة يده. قال إنها تدعى أجراس ميانزي. وكان هناك أيضاً شريط أحمر من الحرير، وشيء يشبه قضيباً قبيح الشكل مخيفاً (ينتفخ عندما تتشربه الماء، كما شرح لي فيما بعد) بالإضافة إلى قطع بخور صغيرة.

كان للابتسامة الهادئة التي ارتسمت على وجهه تأثير فعال. فلم أكن خائفة، بل كنت فضولية.

أعاد معظم هذه الأشياء إلى الدرج، وترك قطعة الجاد في شكل بيضة والشريط الحريري الأحمر. قال إن النساء يستعملن هذه البيضة لتمرين عضلات فروجهن، وعندما تأتيهن الرعشة يقذفن البيضة خارجاً. لم أتمالك نفسي من الضحك. شعر موجو بشيء من الإحراج وهو يقول: «ويمكنها أيضاً أن تمنحك رعشة رائعة... لكنك إذا لم تشعري بالراحة، فليس من الضروري أن نجربها».

لكني لم أستطع أن أقاوم أن لا أجرب ذلك. فمنذ أن مارسنا الجنس في المرة الأولى، كان قد سحر جسدي، وبدقة أكبر، فقد أصبحت أثق به كما لم أثق بأي رجل آخر من قبل.

جلس أحدنا قبالة الآخر فوق السرير، وكنا كلانا في حالة من الخدر بسبب رائحة العطر التي تتضوع من جسدينا. في البداية، وضع حجر الجاد في فمه، وأبقاها لحظات قليلة ثم أعطاني إياها. كانت قد تبللت بريقه، وأصبحت حرارتها بحرارة الجسم وهي في فمه، وكانت تعبق منها رائحة مسك خفيفة.

«أدخليها، جرّبي». وراح يراقبني.

دون أن أخلع غلالة النوم الحريرية البيضاء المرسوم عليها زهرة اللوتس السوداء، أمسكت البيضة الزلقة بإصبعين اثنين، وأدخلتها ببطء بين ساقيّ.

ما أن انزلقت في جسدي، حتى فغرت فمي دون أن ينبعث منه صوت، ورحت أحدّق في موجو مندهشة. اقترب مني أكثر، وأدخل شفتي في فمه، وراح يقبّلني برقة، وكان يهمس بين الحين والآخر: «دعيها تنزلق بشكل دائري، استخدمي عضلاتك لتتحكمي باتجاهها...

ازلقيها إلى الخلف والأمام، إلى اليسار واليمين»، وأمسك الخيط الحريري الأحمر الطويل الذي بقي خارج جسدي بين إصبعين ليشعر بحركات حجر الجاد داخل جسدي.

وشيئاً فشيئاً بدأت أحبّ ذلك الإحساس، ذلك الاحتكاك الزلق، الثقيل والخفيف، الذي يختلف عن احتكاك القضيب. كانت لعبة إضافية، بل أصبحت مميزة أكثر عندما بدأت تلامس نعومة ودفء العضلات داخل جسدي.

لم أستطع أن أوقف هذه اللعبة الجنسية الغريبة. فقد كانت هذه القطعة أشبه بكائن صغير مرهف الحساسية يتغير مع درجة حرارة فرجي ورحمي، إذ أصبح أكثر دفئاً، أكثر انزلاقاً ولزوجة.

انحنى موجو فوقي مثل نسر، وراح يلتهم حلمتيّ البارزتين، مستخدماً في الوقت نفسه إحدى يديه ليشد الخيط الحريري الأحمر الخارج من جسدي، محدثاً تحولات وتغيرات في الزاوية وشدة الضغط. وأحسست باقتراب رعشة جارفة كالمدّ. فتشنجت عضلاتي وتوترت، وراحت تتمدد وتتوسع ثم تتقلّص وتتشنج، ثم أخذت تزداد توتراً وعنفاً. ثم وبتهشم مدوّي، تفجرت المياه الفائرة الهائجة، وانطلقت مندفعة من فتحة السدّ.

كانت ابتسامة موجو دافئة وشهوانية. عندما أغمضت عينيّ، شعرت بيديه تسحبان الخيط المربوط بحجر الجاد بتؤدة من داخل جسدي. أحسست أنه يضع البيضة الرطبة والدافئة الزلقة قرب شفتي، وتمكنت من أن أذوق طعم الهواء ممتزجاً بعبير المسك.

فتحت عينيّ. رأيته يضعها في فمه، يلعقها، يبقيها هناك، يمتص مزيج اللعاب وعصير جسدي. بدا هادئاً وراضياً، وفي تلك اللحظة تخيّلت شيئاً: فقد كانت هذه البيضة تشبه البيضة التي تبيضها الدجاجة. إنها تأتي من بلورة القوّة الأنثوية داخل جسدي.

سألني: «هل تريدين المزيد؟» كان رداء الحمّام الذي يرتديه مفتوحاً. كانت رعشتي قد أثارته كثيراً. كانت أجمل مثير للشهوة بالنسبة له. قال كم يشعر بأنه محظوظ لأنه عثر على فتاة مثلي. كان الأساتذة القدماء يعتقدون أن السائل الذي يفرزه الفرج ليس مجرد ماء، بل هو جوهر ين، الذي جوهر الأنثى السائل. وتدل كثرة السائل على أن جوهر ين نقياً للغاية، ولذلك فإن المرأة التي تفرز سائلاً غزيراً تجسّد ين ويانغ في وقت واحد.

هذا الأمر متروك لك لتصدقه أو لا تصدقه.

استويت جالسة ودفعته إلى الأسفل، تحت جسدي، وخلع بنطال بيجامته، ولفّ الخيط الحريري الأحمر بيسر حول أسفل قضيبه. ندت عنه تأوهة، وانتفض قضيبه الصلب مثل تنين غاضب. وبرفق أرخيت الخيط، ودون استخدام واق ذكري، فتحت ساقيّ واعتليته. كنت قد حفظت هذه الوضعية عن ظهر قلب عندما كنت طالبة في الجامعة أتفرج على كتاب بورنو معروف يعود إلى خمسة قرون عنوانه «فين بينغ مي»، أو «زهرة اللوتس الذهبية». كانت هذه أول مرة أجرّبها فيها. وبما أن عيد الميلاد في هذا المساء قد تحول إلى أمسية للثقافة الجنسية، قلت في نفسي فليعلّم أحدنا الآخر.

في وسط دفق الرعشات التي راحت تتفجر في داخلي وتنطلق مثل ألعاب نارية، كدت أفقد صوابي. فقد تبللت الملاءات. وعبقت في الغرفة رائحة أجمل. كنا وكأننا نقف فوق محيط هائل من العنبر الثمين. وبدت ألسنة لهب خضراء تومض وترتعش في الهواء كما ترتعش الأزهار الرهيفة، صامتة مثل هدأة الليل. آتتني الرعشة في كلّ بقعة من جسدي، كنت أحلّق في كل مكان. لكنني لم أكن سوى وردتك الوحيدة، رائعة طوال الليل.

عندما كاد أن يغشى عليّ، انسل من تحت جسدي. كان قضيبه لا يزال صلباً مثل مستحاثة تنبض بالحياة، وكان الخيط الحريري لا يزال مربوطاً عند قاعدة قضيبه. وبدا أن صلابته يمكن أن تستمر أياماً وليال عديدة. وهذا ما كانت تطلق عليه الكتب القديمة «سرّ الخيط».

بعد فترة قصيرة من النوم العميق الشبيه بالغيبوبة، بدا أننا استيقظنا في آن معاً عندما تسلل ضوء القمر من النافذة، وأضاء وسادتنا.

وبما أن ضوء القمر كان لا يزال منيراً، فقد امتدت الليلة ساعات أخرى. بقينا كما كنا، في وسط سهل هائل من الظلام يحسّ أحدنا بنَفَس الأخر.

بعد سلسلة متلاحقة من القبلات، تبين لنا أن شهوتنا لم تذو، بل ظلت في جسدينا مثل حمم ذائبة بعد أن بردت قليلاً. بدا أن ما فعلناه لم يكن سوى مقدمة طويلة، مجرد مقبلات.

«أريد المزيد»، دمدمت لنفسي مثل امرأة انجرفت روحها، «مرة أخرى، مرة أخرى...».

سألني ماذا أريد هذه المرّة، فقلت أريد أن نجد امرأة أخرى.

لم يصدق ما قلته. ففي مخيلة كلّ رجل تقريباً أن يكون بصحبة امرأتين في آن معاً، لكنه تردّد وتذكّر أني امرأة تغار حتى من صديقاته السابقات المترهلات. هيا، اتصل بإحداهن، اعثر على فتاة يابانية، قلت له في ذهول. أحسست بقرصات الجوع المفاجئة تلمّ بي، وتوجهت على الفور إلى المطبخ لأتناول شيئاً. تبعني.

جلسنا تحت ضوء المطبخ المتألق وتناولنا معاً طبقاً من اللبن وسندويشة خيار، ورحنا نناقش بهدوء نوع الفتاة المناسبة.

ثم أخذت أتصفّح إعلانات الجنس في إحدى المجلات، ورفع

السماعة واتصل برقم. واتفقنا على فتاة أمريكية، خلاسية، ملائمة تماماً.

كان المبلغ الذي طلبته مرتفعاً بعض الشيء، لكنها عندما ظهرت أمامنا بعد أربعين دقيقة، اقتنعنا تماماً بأن الشيء الحقيقي جدير بهذا المبلغ. فقد كان جسدها متناسقاً بصورة جميلة: طويلة، ساقاها ممشوقتان، بشرتها تشع وكأنها كسيت بطبقة من البلور الصقيل، وشعرها أجعد سميك، أما الحلمتان فكانتا منتصبتين وبارزتين من وراء ثوبها الضيّق الأحمر.

كانت مثل نمرة، وهي تسير نحونا بهدوء ورصانة. في تلك اللحظة، غمرني شيء من السرور. ومن المؤكد أن موجو قد انتابه الشعور ذاته. فقد لاحظت أنه خطا خطوة إلى الوراء تلقائيا بجسده الطويل. أما نحن فقد بدونا في ثيابنا الحريرية البيضاء مثل أرنبين مذعورين.

بعد أن صافحنا الفتاة التي تدعى ميمي، دخلنا إلى الحمّام وأغلقنا الباب. «هل تريدين حقاً أن تفعلي ذلك؟» سألني موجو هامساً وهو ينظر إليّ بارتياب.

«لم لا؟ بما فقد أصبحت هنا الآن». فتحت الصنبور وغسلت وجهي وأضفت قائلة: «لكن لا يمكنك أن تلمسها».

نظر إليّ موجو، مشوشاً، وسألني: «ماذا تقصدين؟»

قلت: «تستطيع أن تنظر إليها فقط». وبغتة خطرت ببالي فكرة. فقد زال الخوف فجأة وابتسمت ابتسامة عريضة.

ثم فتحت باب الحمّام ودلفت إلى غرفة الجلوس. كانت ميمي قد خلعت ثيابها كلها وبقيت في سروالها الداخلي. كانت ممددة على

الأريكة وقد افترت شفتاها عن ابتسامة رقيقة وراحت تنظر إلينا، مثل ملكة قدمت لتوها من الغابة. «حسناً؟» كانت في نبرتها لهجة أهالي بروكلين الغليظة.

استلقى موجو بهدوء فوق سريرنا الأبيض غير المرتب، وهو في بيجامته، وأخذ ينظر إليّ وأنا في غلالتي، أدلّك جسد ميمي العاري.

كان ملمسها رائعاً. كان نهداها وردفاها رخصين لدنين، كالمطاط. وبالمقارنة معها، فإن أجساد الآسيويات تشبه قشرة الخوخ، وهي ليست بهذه الدرجة من اللدونة، وليست بهذا القدر من الجمال.

ندت عنها تنهيدة رقيقة، محترفة وفاتنة للغاية. يمكنك أن ترى كم كانت رائعة وهي تفعل ذلك. تتأوه، تتلوى، ثم تقبض نقودها، لقاء أي شيء تطلب منها أن تفعله.

عندما انفرجت ساقاها إلى ما بدا ٨٠ درجة، نزعت بيجامة موجو. كان شديد الانتصاب، وكانت حشفة قضيبه ندية ومتلألئة. طلبت من ميمي أن تنبطح على بطنها، فاستلقت على عرض السرير، وتمددت فوقها بحيث لامست مؤخرتي ثنية ردفيها.

كانت هي وسادتنا، وسادة جنسية مصنوعة من لحم ودم. انحنى موجو فوقي، وأمسك نهديّ بكلتا يديه، ومدّ جسده وولجني.

ومع كلّ لكزة، كان السرير يهتز وتصدر نوابضه صريراً. كانت ثلاثة أجساد ثقيلة تتحرك معاً مثل كتلة كبيرة لا تتوقف عن العجن والدعك.

علمت أن ممارسة الجنس بين ثلاثة أشخاص أمر شائع جداً في مانهاتن، ويبدو أن معظم ذلك مجرد ألعاب «جنسية تخلو من مشاعر الحبّ»، لكن حتى بدون حبّ، فعندما تنتهي اللعبة يشعر المرء غالباً بأنه جُرح.

أما أنا وموجو، فقد بدا أننا انتهينا من هذه اللعبة بسلام، وتولدت لدينا، على نحو غريب، طبقة أخرى من الثقة والسلاسة مع أحدنا الآخر. في الواقع، بعد أن اجتزنا الاختبار الجنسي، بدأت أرى خاتم زواج متلألئ ليس بعيداً عني، لأنه عندما أثارت صديقتاه السابقتان موضوع الزواج، استخدم موجو طريقة الثلاثي الجنسي كتجربة أو كوسيلة لإخافتهما وإبعادهما. وربما لأنه لم يكن قد مضى على طلاقه في ذلك الحين فترة طويلة ولم يكن مستعداً للزواج.

لازمتنا أحاسيس تلك الليلة أياماً عديدة. ولم نمارس الجنس مرة أخرى. كان وكأننا قد حصلنا على حصتنا من الجنس للسنوات العشر القادمة، مع أن ذلك الشعور بالانتشاء لم ينطفئ، ولم يتوقّف عن إغوائنا.

إن الجنس الرائع يجعل النساء جميلات، فعندما أسير في الشارع يمتدح الرجال جمالي. لكن بدا أن شيئاً قد بدأ ينزلق في مكان ما، فقد أصبح موجو تجسيداً للحبّ والجنس، وكنت على وشك أن أدمن عليه، يا إلهي. فقد بدأت أفكّر فيه في كلّ ثانية من كلّ دقيقة. ولم أستطع أن أتخيل اليوم الذي يمكن أن يترك أحدنا الآخر.

لكن لا يوجد شيء أبدي في هذا الكون، مثالي. بل المهم أن تكون راضياً بما قسم لك، وأن تتعاطى الحياة بروح من الفهم والتسامح، وخاصة العلاقات بين الرجال والنساء.

١٧
نِك القاتل

إني عشيقة حرة!

جورج ساند

عندما سافر موجو إلى جمهورية الدومينِكان ليضع اللمسات الأخيرة على الفيلم الوثائقي الذي يصورّه، صادف أن ابنة خالتي زو شا، امرأة الأعمال، ستأتي إلى نيويورك لحضور بعض الاجتماعات الهامة. ونتيجة ما حققته من إنجازات كبيرة في السوق الصينية في العام الفائت، أضحت المرأة المدللة في الشركة، لذلك حجزوا لها جناحاً كبيراً في الفندق، مليئاً بالأزهار التي تفوح منها الروائح المنعشة، في ساحة يونيون سكوير العصرية.

اتفقنا على أن نلتقي في الفندق الذي تقيم فيه.

ما أن فتحت لي باب غرفتها، حتى علت أصواتنا ورحنا نضحك وتعانق إحدانا الأخرى. فعندما تلتقي بأحد أفراد أسرتك في نيويورك بعد أن يكون قد اجتاز كل تلك المسافة، يعتريك إحساس غريب بعض الشيء، لكنه دافئ، خاصة وأن زو شا قد جلبت لي معها قطعة من جاتو الفاصوليا الحمراء التي أحبّها كثيراً، وبراعم الخيزران المخلّلة المجفّفة التي أعدتها لي أمّي. وقد خافوا في البداية أن تصادر الجمارك هذه المأكولات اللذيذة.

بدأت أمزّق طبقة بعد أخرى لأفتح الرزم الملفوفة بعناية، ووضعت قطعة من جاتو الفاصولياء الحمراء في فمي، وبعد أن ابتلعت قطعة منها، أغمضت عيناي تلقائياً. فلا يمكن لأحد أن يصنع شيئاً لذيذاً كهذا سوى أمي. فعندما ترى ذلك الحبّ الأمومي الكبير، يغمرك دائماً شعور بالسعادة، لكنك لا تعرف كذلك كيف يمكنك أن ترد هذا الحبّ بطريقة مناسبة.

لم نتوقف عن الحديث ـ وخاصة أنا. فلم تتح لي فرصة كبيرة لأن أتحدث باللغة الصينية في نيويورك. وفيما راحت تنصت إليّ، حدثتها عن كلّ ما حدث لي في نيويورك ـ بما في ذلك موجو.

لقد ازدادت زو شا نضجاً، وأصبحت أكثر وقاراً، إلا أن الابتسامة الحليمة على وجهها لم تتغير. وقد أراد زوجها آه ديك، الذي كان يصغرها بثماني سنوات، أن يرافقها، لكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة دخول. وكنت قد تعرضت أنا نفسي إلى هذه المشكلة، وكذلك إكسير، التي كانت تريد دائماً أن تمضي إجازة في نيويورك، فقد حاولت ثلاث مرات، لكنهم لم يمنحوها التأشيرة. فمن جهة، لا يختلف أسلوب حياة الشباب الصينيين كثيراً عن أسلوب حياة الشباب في أمريكا أو في اليابان، ومن جهة أخرى، تصطدم أحلامهم بالواقع. إذ لا يستطيعون أن يسافروا إلى باريس أو إلى طوكيو أو نيويورك كما يرغبون دون أن يعتريهم القلق بشأن الحصول على تأشيرة.

عندما بدأت زو شا تحدثني عن آه ديك، أصبحت نبرة صوتها غير مبالية، وكأنها تتحدث عن الهواء. ولم يعد في صوتها ذلك الحماس والحب اللذين لم تستطع أن تخفيهما عندما كانت تتحدّث عن ابنها ليتل وورم.

وبالطبع كنت قد سمعت بواسطة الرسائل الإلكترونية والمكالمات

الهاتفية من شنغهاي أن إبداع الفنان آه ديك يمر في مرحلة ركود بسبب ضغوط الحياة الزوجية. وكان الكازانوفا آه ديك هذا قد بدأ يخرج مع نساء يصغرنه بثماني سنوات؛ وقد استردت منه زوجته بطاقة الائتمان، بعد أن أظهرت الكشوف المالية نفقات مثيرة للريبة، مع أنه حصل بطريقة ما على بطاقة أخرى بعد فترة وجيزة؛ وكان من الواضح أن الأب آه ديك يحبّ ابنه حقاً، لكنه ربما لم يكن يحبه حباً حقيقياً، بل كان شكلاً من أشكال الحاجة.

عندما سمعت زو شا أنني أتوقع أن تدخل علاقتي مع موجو مرحلة جديدة تماماً، بل وأني أفكّر بالزواج منه، نظرت إليّ باندهاش لوهلة، ثم وضعت يدها على فمها وانفجرت في الضحك. فعندما تضحك زو شا من قلبها، كانت تضع دائماً يدها على فمها. إذ كان خجلها وتهذيبها من أكثر الصفات التي تميزها.

قالت: «إنك مجنونة. إنه حقاً أمر يدعو للحيرة. يبدو أننا تبادلنا الأدوار. فقد كنت أبدو دائماً تلك المرأة التي يناسبها الزواج وإنجاب الأطفال، في حين كان الجميع يتوقعون أنك ستجوبين العالم وترتدين الكيباو الحريري، وتكتبين وتخرجين مع عدد لا حصر له من الرجال الذين يصطفون في انتظارك. أما الآن؟ فقد جريت الآن إلى عالم نيويورك وبدأت تفكرين بالزواج فعلاً، والأنكى من ذلك، أنك ستتزوجين من شاب ياباني! يا إلهي! أما أنا؟ فهذا زواجي الثاني، ويبدو أنه لن يدوم طويلاً أيضاً... ففي كلّ مرّة كنت أفكّر بالزواج وأتعلق بشخص، على مبدأ المثل الصيني القديم «أسس عائلة أولاً، ثم أسس عملاً» إلا أن ذلك لم يجد نفعاً».

أمسكت يدي برقة، وأضافت قائلة: «كوكو، فكّري جيداً. إن

الوقوع في الحبّ سهل، لكن البقاء معاً صعب». تنهّدت ثانية وقالت: «من هم في داخل القلعة يرغبون دائماً أن يخرجوا منها، والذين في خارج القلعة يريدون دائماً أن يدخلوا إليها. إن الحياة تبدو دائماً هكذا».

هززت رأسي وقلت: «لا يمكنك أن تفكّري كثيراً. عندما تفكّرين كثيراً، تتلاشى شجاعتك ولا يصبح بإمكانك أن تنجزي شيئاً».

ثم صمتنا، ورحنا نلتهم الشوكولاته على المنضدة الصغيرة، ونتفرج على مجموعة الصور التي أحضرتها معها.

كان طفلها يبدو في حالة صحية ممتازة. وكانت الصور تركّز أحياناً على لثته الخالية من الأسنان وعلى لسانه الوردي الذي يشبه لسان الكلب، أو وهو يلعب بأصابع قدميه بهدوء.

عندما شاهدت الطفل الرائع ترقرقت عيناي بدموع الحنان. ولم أتمالك نفسي من القول: «ربما كتب على المرأة أن تنجب أطفالاً».

«نعم»، حدّقت زو شا بثبات في وجه ابنها المبتسم، ثم أضافت: «تشعر الكثير من النساء بالأسف لأنهن صادفن رجلاً معيناً، لكن لا توجد امرأة تشعر بالأسف لأنها ولدت رجلاً».

«بمعنى آخر، لا يشعر الرجال بمسؤولية كبيرة، وعندما لا تعودي تعتمدين عليهم، يصبح الابن بديلاً عن الرجل».

«هذا شيء طبيعي»، قالت زو شا، «فابنك يأتي من بطنك».

انفجرنا في الضحك. لقد تغيّرت زو شا. فقد جعلها زواجان حزينان تشعر بالمرارة تجاه الرجال، إلا أن الأمومة منحتها شيئاً من النضج ولم تعد تبدو هشّة وضعيفة.

قرّرنا أن نتناول عشاء فاخراً أولاً، ثم نذهب إلى أحد النوادي.

وبسبب نظريات زو شا بأنه لا يوجد طعام صيني جيد في نيويورك، والطعام الغربي الجيد يفوق كثيراً الطعام الصيني السيء، لم يكن أمامي من خيار سوى أن أرافقها إلى مطعم إيطالي غالي الثمن يدعى «بابو» في حي الفيليج، مع أنني كنت أفضّل أن أتناول طعاماً صينياً سيئاً على أن أتناول طعاماً غربياً جيداً. لكنها ضيفتي القادمة من مكان بعيد، فضلاً عن أنها هي التي دعتني إلى العشاء.

كان الطعام الإيطالي لذيذاً، ولعل ذلك جعله مرتفع الثمن كثيراً. لكننا عندما حاولنا أن نتبادل قليلاً من الطعام، اقترب منا نادل نحيف مسن يضع نظارة على عينيه، وذكّرنا بنبرة تشي بالصبر بأنه من الأفضل ألا نفعل ذلك، لأن اختبار أنواع مختلفة من الطعام في وقت واحد قد يفسد نقاء إحساسك بالنكهة.

قلت: «لعلهم سيمنعون الكلام أثناء الأكل في يوم ما، لأنه يصرف الانتباه أيضاً، أليس كذلك؟»

«يمر العالم الآن في حالة من الاضطراب والبلبلة. فقد أدت الحرية الزائدة إلى الإحساس بالتبرم والتنافر، ولعل وجود بعض القيود ليس بالأمر السيء. فإذا وضع الناس بضع قواعد «لا تستطيع أن تفعل هذا» و» لا تستطيع أن تفعل ذلك» فربما عرفوا قيمة ما يوجد لديهم»، قالت زو شا.

بعد أن تناولنا الحلوى، رحنا نتناقش إلى أيّ حانة سنذهب. ومثل مليونيّ شخص من سكان شنغهاي المحترفين، كانت زو شا معجبة بمسلسل «الجنس والمدينة»، وكانت تريد أن تزور حانة بويري (التي تدعى حالياً حانة بي) والتي ترتادها غالباً شخصيات المسلسل. كما كانت ترغب في أن تذهب أيضاً إلى مقهى كارلايل في الطرف الشمالي الشرقي من مانهاتن لترى وودي ألان وهو يعزف على الكلارينت. إلا

أن وودي ألان لم يكن مدرجاً في برنامج تلك الأمسية، لذلك توجهنا إلى حانة بويري.

كانت حانة بويري بحراً يموج بالرؤوس، ومع أنها لم تمنحنا في البداية ذلك الشعور بالبهجة الذي كنا نتوقعه ـ ذلك الشعور الذي قد يجعلك تبدأ مغامرة أو تقيم علاقة غرامية. إلا أننا بعد حوالي ثلاث ثوان من وصولنا، حدث شيء كالسحر ـ فقد صادفت شخصاً أعرفه.

إن القول بأنه شخص أعرفه ليس كلاماً دقيقاً تماماً؛ فقد التقينا ذات يوم في حفلة كوكتيل أقامتها دار النشر ودار بيننا حديث لطيف. كان اسمه إيريك، ناقد الكتب الذي حصل مؤخراً على ترقية في صحيفة نيويورك تايمز. وتحت كتلة الشعر الأحمر تلك، كان وجهه جميلاً وابتسامته خجولة. وبعد أن اصطدم أحدنا بالآخر، فغر كلّ منا فمه وصاح: «أوه!» ثم عانقنا بعضنا على عجل. وعندما انفصلنا عرّف كلّ منا الآخر على مرافقه.

عندما ألقيت نظرة على الرجل الواقف إلى جانبه، سرت في جسدي رعشة لا إرادية. فقد كان يشبه جورج كلوني كثيراً، بل كان أجمل منه، أكثر رشاقة ووسامة، وكان يرتدي ثياباً سوداء كلها من ماركة أرماني. كان اسمه نِك، في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، وهو عمّ إيريك.

عندما بدأ يتكلم، فتنني صوته المغناطيسي. فقد كان الاستماع إليه وهو يتحدث مثل الآيس كريم وهي تذوب في الفم.

وخلال الساعتين التاليتين، لم نتوقف أنا وزو شا عن التحدث والضحك مع إيريك ونِك، اللذين جلسا إلى جانبنا. لم أشرب مشروباً كحولياً، ولم أدخّن. إلا أن نِك أشعل سيجارة حشيش في الزاوية بالقرب من الحمّام، ولسبب ما رحت أشاركه فيها.

عندما كنا واقفين عند الزاوية المعتمة قليلاً تحت سحابة الدخان، شعرنا بشيء من السعادة الخفية. وكان بين الحين والآخر، يمرّر أصابعه في شعره السميك الكستنائي اللون، ويحدّق في الغادين والرائحين أمامنا. سواء كانوا رجالاً أو نساء ـ كان ينظر إليهم جميعهم بثبات بذلك التعبير الفضولي الذي يميّز زير النساء.

رأينا إثان هوك، لكننا لم نر زوجته أوما ثورمان. ووقفت إلى جانبه فتاة أمريكية قصيرة شهوانية ترتدي كيباو صيني أحمر اللون، ضيّقاً يلتصق بجسدها، مثل قطعة نقانق صغيرة لم تحش جيداً. ضحكت رغماً عني. وابتسم نِك ابتسامة عريضة، مع أنه لم يعرف السبب الذي جعلني سعيدة هكذا.

اقتربت منه وهمست في أذنه ضاحكة: «أراهن بأن ما ترتديه تلك الفتاة ليس من الحرير الطبيعي». ألقى نظرة إلى الفتاة، ثم نظر إليّ وقال: «هل تريدين أن أذهب وأسألها؟» لذلك كان جذّاباً ـ فبإمكانه أن يحوّل أمراً تافهاً إلى أمر مثير للاهتمام، وكان يبدو أنه لا يوجد شيء لا يمكنه أن لا يقدم عليه.

عندما انتهينا من التدخين عدنا إلى أماكننا. أحسست أني حقاً أمضي وقتاً ممتعاً وأنا في حانة بويري الرائعة بصحبة ابنة خالتي المحبوبة زو شا وبرفقة رجلين جذابين. وفجأة تحسنت لغتي الإنكليزية كثيراً بحيث أصبحت أتذكر كلمات صعبة مثل «شهواني» و«سن اليأس» التي لا يستعملها الأمريكيون كثيراً. ورويت قصصاً كثيرة، مثل تلك القصص عندما كنت أغار من زو شا عندما كنا في المدرسة الابتدائية، وقد أخجلتها أمام الجميع عندما سكبت على تنورتها البيضاء حبراً أزرق قبل أن تصعد إلى خشبة المسرح.

ضحك نِك وهو يرمقني، أما إيريك فكان يحدّق في زو شا.

ثم حكى لنا نِك قصته عندما أُغمي عليه بعد أن أسرف في شرب الكحول وتعاطي المخدرات في إحدى الحفلات، واستيقظ ليجد فتاة عارية تقرفص فوق وجهه. وعندما وصل إلى نهاية القصة، كاد يغشى علينا من الضحك.

بسعادة، لكن أيضاً بشعور بالذنب، رحت أنظر إلى وجه نِك الذي يشبه وجه نجم سينمائي ترتسم عليه ابتسامة البلاي بوي، وهززت رأسي. كان هذا مستحيلاً. الآن لم أكن بحاجة إلى علاقة عابرة لليلة واحدة، ولم أكن بحاجة لأيّ مماحكة. سيكون نِك بمثابة إزعاج كبير. إذ إن جاذبيته سامة. فقبل أن التقي بموجو، كنت أُفتن بهذه النوعية من الرجال.

فما أن كانوا يشرعون في إطلاق صفاراتهم، حتى كنت أُغرق سفينتي وأعوم نحوهم دون أن أتطلع إلى الوراء ـ مركب مصنوع من ورق الأشجار في مهبّ عاصفة، أدور ثم أحطّ في أحضانهم. وبعد أن تنتهي العاصفة، كان يختفي كلّ شيء على نحو سحري، وأظل وحدي، وحيدة على الطريق، أكتب المزيد من الروايات عن المصابين في معركة الجنس، وأعيش حياة عاصفة.

عندما اكتشفت أن الساعة أصبحت الثالثة صباحاً، أدركت أنني نسيت مخابرة موجو اليومية قبل النوم من جمهورية الدومينِكان. واعتراني فجأة شعور بالتعب وتوقف في دماغي زرّ «الحفلة».

«أوه، لقد تأخر الوقت». وبدأت أبحث عن حقيبتي اليدوية وعن معطفي، لكن بما أن رأسي كان يلّف ويدور بهذه الطريقة أو تلك، لم أعثر عليها لفترة من الوقت.

«لا تقلقي يا عزيزتي»، ومدّ نِك يده نحوي. كان يمسك حقيبتي اليدوية بيد، ومعطفي باليد الأخرى.

كان نِك يملك سيارة مرسيدس بنز سوداء وكان السائق ينتظر خارج الحانة. ركبنا نحن الأربعة معاً. جلس إيريك إلى جانب السائق، وجلست بين نِك وزو شا. آه، عاد إليّ شعور أميرة شنغهاي الذي فقدته منذ أمد بعيد. راحت السيارة تنساب مثل مركب على طول الشوارع المتعبة، ولكن المتلألئة في ليل مانهاتن. وبدا أن المدينة كلها كانت معلّقة بين الجنة والجحيم، بين الحضارة والشهوة الحيوانية.

اعتراني شعور بالدوار بسبب ركوبي السيارة. وبشكل عام، إن كنت أجلس إلى جانب رجل غريب في سيارة وأحسست بدوار فهناك احتمالان: إما أني أحببته حقاً، أو أني كرهته حقاً.

أوصلتني السيارة أولاً إلى شقّة موجو في الطرف الغربي من مانهاتن، حيث عانقت وقبّلت مودّعة كلّ من كان في السيارة. وعندما قبّلت خد نِك التمعت شرارة زرقاء بيننا، أصابت جلدنا عندما لامس أحدنا الآخر. كانت مثل شرارة الكهرباء الساكنة التي اعترتني عندما قبلّني موجو أول مرة. وكنت واثقة من أن الاحتمال الثاني لم يكن يصف مشاعري الحقيقية تجاه نِك.

«إن نيويورك جافة جداً»، قال نِك ليخفف من حدة الشعور بالحرج. ضحكنا بصوت عال، وأحسسنا كلانا بتلك اللِسعة المتبقية وشرارة الكهرباء الساكنة تلك. «أرجو أن أراك ثانية قريباً جداً»، وأغلق باب السيارة وانطلقت السيارة في هبة دخان.

مكثت زو شا في نيويورك خمسة أيام. وعندما لم تكن تحضر اجتماعات مع رئيسها، كنا نخرج ونتمشى ونتسوق معاً ونجلس في

المقاهي على الرصيف، نراقب الناس ويراقبنا الناس، وزرنا المعارض الفنية في تشيلسي، وحضرنا عرضاً مسرحياً في برودواي.

وبناء على توصية من أحد أصدقاء زو شا النيويوركيين الذي يعيش في شنغهاي، قمنا بزيارة خاصّة أيضاً إلى صالون تجميل إيجي في جادة ماديسون وشارع ٦٥. وكانت زو شا قد أصرّت على أن نستقل قطار الأنفاق في نيويورك، لذلك أخذنا قطار R المتجه شمالاً من ميدان يونيون سكوير ونزلنا في شارع ٥٩. لم نعرف في أي اتجاه نسير، فأخذنا نمشي مرتبكتين نحو بوابة أوك بار، ثم أدركت أن هدوءا شديداً يخيم على المكان، ولم يكن يوجد أحد غيرنا. وبغتة، وكما لو كنا في مسرحية، قفزت ثلاثة أشكال من الظلّ. وعندما أمعنت النظر، تبين لي أنهم ثلاثة فتيان سود. كانوا في حوالي الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم، يضعون عصابات بيضاء على جباههم ويعتمرون قبعات بيسبول ويرتدون بناطيل ذات خصر منخفض وسيقان عريضة فضفاضة بحيث لم يكن بوسعك أن تحدد مكان سيقانهم الحقيقية.

أما أنا وزو شا، فكنا ننتعل أحذية ذات كعب عال ونرتدي تنورات، وكنا نبدو مثل طيرين سهلي الاصطياد قادمتين من بلادٍ أجنبية. وفي أجزاء من الثانية، كانت ردة فعلي الفطرية أني خلعت حذائي وحملته بيدي.

لكن بعد مواجهة صامتة دامت قرابة نصف دقيقة، تناهى إلينا صوت خطوات كثيرة تهبط الدرج المؤدي إلى الرصيف، وظهر عدد من السيّاح الأمريكيين البدينين القادمين من الجنوب يحملون آلات تصوير وخرائط. هرعنا أنا وزو شا واجتزنا الفتيان الثلاثة وأخذنا نصعد الدرج لننضم إلى باقي الناس في الشارع الذي تضيئه الشمس.

نظرت إحدانا إلى الأخرى، وضحكنا بشيء من التوتر، إذ لم نكن

نعرف تماماً حقيقة ما حدث. «على كلّ حال، حدث شيء يمكننا أن نتبجح به عندما نعود إلى شنغهاي»، قلت مازحة. وبعد أن تحدثنا في الأمر قليلاً، قرّرنا أن نجلس في مقهى ونحتسي شيئاً، ثم نتوجه إلى صالون إيجي.

كان رأس إيجي مكسواً بشعر مجعّد أهوش يتدلى بشكل فوضوي على قميصه الكتّاني الأبيض المفتوح الصدر. وعندما كان يقصّ شعر إحداهن، لم يكن يفه بكلمة واحدة، مع أن عينيه كانتا تشعان حماساً. وبدون مبالغة كان يبدو أنه يهتمّ بكلّ شعرة على رأسك. كان تركيزه هذا على طريقة زن الذي كان جوهر سمعته وشهرته في مانهاتن، بل وحتى في شنغهاي.

أمضى ساعتين كاملتين وهو يصفف شعر زو شا! أما أنا فقد صفف شعري رجل ياباني آخر كان شعره الطويل ينسدل على كتفيه. كان ينتابني إحساس لذيذ عندما يلمس أحدهم رأسي بأناة وعناية. إن أفضل الرجال هم الذين يستطيعون أن يحيطوا المرأة برعايتهم ويهتموا بها. ولا عجب أنه عندما يقوم أحدهم بتصفيف شعري أو بتدليك قدميّ، فإني أقع في غرام مصفف الشعر أو المدلّك، حتى لو كان ذلك لبضع ساعات فقط.

لوهلة تمنّيت أن يكون صديقي موجو يتمتع بصبر إيجي ورغبته في خدمة النساء.

كنت أراقب إيجي طوال الوقت، لكنه لم يبعد عينيه عن شعر ابنة خالتي. أغمضت عيني، ورحت أستمتع باليدين اللطيفتين اللتين تعملان على رأسي.

فيما كنا أنا وزو شا في طريقنا إلى الخارج، رأيت على طاولة الاستقبال مجموعة من المغلفات المطوية بأناقة ليضع فيها الزبائن

الإكرامية. فالأمريكيون يقدمون الإكرامية علناً، أما اليابانيون فيضعونها في مغلفات، أما الصينيون - فإنهم لا يقدمون إكرامية. إذ لا يعرفون هذه العادة خلال ألف سنة من حضارتهم.

بعد أن غادرنا صالون إيجي، قلت لزو شا وأنا ابتسم: «هل لاحظت كم كانت رائحة إيجي رائعة؟»

في تلك اللحظة، كانت زو شا تنظر في مرآة صغيرة، معجبة بشعرها. عندما سمعت تعليقي نظرت إليّ وقالت: «نعم؟» ورفعت حاجبها.

كنا أنا وزو شا نحب الأحذية كثيراً (لا توجد امرأة في العالم لا تحبّ الأحذية). كانت ساقاها طويلتين، رشيقتين وفاتنتين، وكانت تبدو رائعة في صندلها ذي الأشرطة والكعب العالي. وبإلحاح مني، اشترت زوجين من أحذية مانولو بلانِك في بارني، كلاهما بأشرطة رفيعة جداً.

وبعكس توقعاتي، تبين لي أن إيريك لم يكن لوطياً، وقد وقع في غرام زو شا. وكانت زو شا تجد نفسها دائماً أن أحداً قد وقع في غرامها، وغالباً ما يكون شاباً يصغرها في السن. فقد كانت تحمل لهم نوعاً من سحر ملكة نحل.

عند العشاء مع إيريك، انتعلت زو شا الصندل الذهبي الذي اشترته مؤخراً بأربعمائة دولار والذي جعل نظرات إيريك تنزلق تحت الطاولة. لكن مع أنهما أمضيا وقتاً طويلاً معاً قبل أن تغادر زو شا نيويورك، لم يتجاوزا بضع قبلات طويلة واحتكاك ثيابهما ببعضها. إن تجربتها مع زوج شاب غير وفيّ، جعلت زو شا تصدّ الرجال الذين يصغرونها سناً، مع أن شخصاً مثل إيريك كان أفضل ما يمكن أن تقدمه لها نيويورك.

وعندما ذهبت زو شا لتناول طعام الغداء مع رئيسها في العمل في اليوم التالي، انتعلت أغلى حذاء اشترته من بارني، الحذاء الذي اشترته بخمسمائة دولار. ففي الثالثة والثلاثين من العمر، وهي تشعر بالألم من الرجال، كان بإمكانها أن تميّز جيداً بين أهمية موعد مع رئيسها في العمل وبين موعد مع رجل التقت به أثناء رحلتها.

وفي يوم ماطر، غادرت زو شا نيويورك وهي تحمل صندوقاً مليئاً بألعاب اشترتها لابنها من محلات فاو شوارز بالإضافة إلى زوجين من الأحذية اشتريتهما لأبويّ.

في أثناء ذلك، لم نر عمّ نِك على الإطلاق. فبعد تلك الأمسية في حانة بويري، اختفى مثل فراشة نادرة، ولم نره مرّة أخرى. وحسب ما قاله إيريك، فقد ذهب إلى أوروبا في مهمة عمل.

١٨
يوميات العيش معاً

أن تحبّ فهذا يعني أن تتألم. ولكي لا تتألم يجب ألا تحبّ. إلا أن المرء يتألم لأنه لا يحبّ. لذلك فأن تحبّ يعني أن تتألم، وأن لا تحبّ يعني أن تتألم. أن تتألم يعني أن تتألم. ولكي تكون سعيداً يجب أن تحبّ. ولكي تكون سعيداً فهذا يعني أنك تتألم. لكن الألم يجعل المرء حزيناً. لذلك، لكي تكون حزيناً يجب أن تحبّ، أو أن تحبّ لكي تتألم، أو تتألم سعادة كثيرة. أرجو أن تدّون ذلك.

وودي ألين، «الحبّ والموت»

كلما ازدادت معرفتي، قلّ فهمي.

لاو تزي

شهر أيار في نيويورك. طال العشب وبدأت العنادل تحلّق في السماء.

وبدأت أزهار الكرز على طول الشارع تذبل وتتناثر أخيراً، فكنت ترى بتلات صغيرة ذات لون وردي فاهٍ تتطاير مع الريح الدافئة أحياناً عبر النافذة المفتوحة وتسقط في كوب شاي النعناع الذي أحتسيه.

جلست في مقهى فرنسي صغير في الطرف الغربي من مانهاتن، أدوّن في مفكرة ذات غلاف جلدي أحمر. فبعد عدة أشهر من العيش في نيويورك، ازدادت المفكرة سماكة. وكنت سعيدة لأني دأبت على

هذه العادة منذ مدة طويلة، مهما كان البلد أو المدينة التي أقيم فيها، وسواء كانت حياتي براقة ومتلألئة كالألعاب النارية، أو سيئة مثل كومة من خراء الكلاب.

تخللت الحياة مع موجو فترات من التوتر وفترات من البهجة. فعندما يقترب شخصان كثيراً من بعضهما إلى درجة لا تعود توجد مسافة بينهما، فلا بد أن تظهر العيوب التي لم تستطع أن تراها من قبل.

ألقيت نظرة على ما دوّنته في مفكرتي:

الشهر س، اليوم ع. نهضتا هذا الصباح، كانت أشعة الشمس لطيفة. شممت رائحة بيض مقلي وخيّل إليّ أني كنت أحلم، لكن لا، فقد كان موجو يعدّ طعام الفطور. شيء غير عادي. وضع قطعة نقانق صغيرة في طبقي، وقد بدا ذلك أنه تعبير عن الصداقة أكثر منه إيماءة حبّ: «يجب أن تفعل هذا النوع من الأشياء».

إن القيم السائدة في اليابان والتي لا تزال تحظى باحترام كبير من الرجال والنساء على حد سواء في عمره هي:

١ ـ يجب ألا تغادر المرأة الفراش بعد الرجل.

٢ ـ يجب ألا تدع المرأة الرجل يدخل المطبخ.

٣ ـ يجب ألا تتحدث المرأة بطريقة سيئة أو بخشونة مثل الرجال.

٤ ـ يجب ألا تبقى المرأة عارية أكثر من خمس دقائق حتى بعد ممارسة الجنس.

أما معايير موجو الشخصية الجنسية فهي:

١ ـ الجنس الذي يمكن ممارسته بسهوله ليس مثيراً.

٢ ـ المرأة التي توجد فيها ميول للتعري والكشف عن مواضعها الجنسية ليست مثيرة.

٣ ـ المرأة التي تخلع ثيابها أمام رجل من تلقاء نفسها امرأة غير مثيرة نسبياً.

٤ ـ أما المرأة التي تدخل إلى المطبخ في الصباح الباكر، دون أن تمشط شعرها وهو يتدلى على وجهها، وهالتان داكنتان تحت عينيها الفاسقتين، وهي تعدّ طعام الإفطار ـ فهي مثيرة للغاية.

الشهر س، اليوم ع. مشغولة مرة أخرى، لكني لا أزال أشعر وكأني لم أفعل شيئاً اليوم. لم أحتس شيئاً من الكحول، ولم أدخّن، ولم أتناول أيّ عقاقير قد تشوش تفكيري أو تمنحني شعوراً بالنجاح. مارست نصف ساعة من اليوغا والتأمل الطاوي، وأمضيت ساعة على الهاتف مع إكسير التي لم تعثر بعد على رجل في شنغهاي. يجب أن تأتي إلى نيويورك، حيث لا يعرف أحد أنها كانت رجلاً في الماضي، مع أني أرتاب في أنها ستكون على ذلك القدر من الجمال لهؤلاء الرجال الأمريكيين التافهين المتغطرسين. أحياناً، عندما لا أتمكن من كبت غيظي من رجل معين (مثل موجو، عندما يجادلني، أو المحامي أو المحاسب الذي يعمل لديّ) تنتابني رغبة جامحة في أن أمزّقه إرباً إرباً، وأتصور بأني أعرّفه على إكسير، وأجعله يحبّها، دون أن أعلمه بالحقيقة. لكنها مجرد خاطرة، إذ إني لا أستطيع حقاً أن أخون أصدقائي.

عاد موجو من المكتب هذا المساء وكان سيئ المزاج، وكان يبدو منهكاً للغاية. إذ كان يساوره القلق خلال الأيام القليلة الماضية لأن المكتب الذي يديره تجاوز ميزانيتهم المحددة. فبعد أن انتقلت إلى بيته، بدأت اكتشف أن وجود ابتسامة على وجهه لا يعني بالضرورة أن كل شيء يسير على ما يرام. ففي واقع الحال، إنه إنسان مثل أي شخص

آخر يحمل هموماً عادية عديدة. وقد يساعده نضجه في إخفاء هذا الشعور بالقلق في معظم الأحيان، بل وحتى يمكنه أن يبدده.

. . . مهما كان، فمن الواضح أنه لا يحبّ عادتي الفوضوية في ترك الأشياء مبعثرة في كل مكان. وفي الواقع، بذلت اليوم جهداً خاصاً لأمضي ساعة في ترتيب الشقّة قبل أن يعود إلى البيت، لكنه عندما نظر إلى غرفة الجلوس قال بدفء لكن بحزم: «كوكو، لقد نسيت أن ترفعي هذه الأشياء من فوق الأريكة والمنضدة الصغيرة».

ذهلت. تمنيت أن أرمي بنفسي في فتحة المرحاض.

الشهر س، اليوم ع. يا إلهي، بدأت أفهم أخيراً أنني غير قادرة فطرياً على أن أكون خادمة. إذ لا أستطيع أن أقوم بالغسيل، وبطريقة ما لم أر كلمة «مبيّض» على إحدى قناني منظفات الغسيل! لذلك أتلفت غلاف وسادتين مطرزين، وقطعتي قماش ملونتين لغسل الصحون، وقطعتين من ملابسه الداخلية السوداء، وجوربين من جواربي. وفي آخر مرّة، أضعت فردة من جواربه. وفي هذه المرة، كان الوضع مأساوياً للغاية! وكانت أول الكلمات التي تفوهت بها عندما رأيته «أنا آسفة!» وقلت له إني سأشتري خرقاً جديدة لغسل الصحون، وأغلفة وسادات وملابس داخلية له من محلات بلومينغدايل.

الشهر س، اليوم ع. بدءاً من الأسبوع القادم، ستبدأ الخادمة الجامايكية بالمجيء ثلاث مرات في الأسبوع بدلاً من مرّة واحدة لتنظيف الشقّة وغسل الثياب. وقد رغبت في أن أدفع أجر زيارتين من هذه الزيارات من جيبي، لكنه أصرّ على دفع الأجر بكامله. فقد قال: «لا توجد مشكلة، كلّ شيء على ما يرام». لكنني لا أثق بنفسي، وأنا عاجزة عن التمتّع بالتدبير المنزلي، لذلك كيف يمكن أن يكون كلّ شيء على ما يرام؟

الشهر س، اليوم ع. قال: «يا لك من أميرة!» لكن ذلك لم يكن إطراء. فقد كان بوسعي أن أسمع في صوته نبرة استياء. أذكر أني قبل أن أنتقل إلى شقّته، كنت أغادر بيته كلّ ليلة ، وكنت أطلب منه دائماً أن يوصلني إلى الطابق الأرضي، ويرافقني إلى شارع برودواي حتى أستقل سيارة أجرة. وذات مرّة، وفي ساعة متأخرة من الليل، ولأنه كان متعباً جداً لم يوصلني إلى الطابق الأرضي لآخذ سيارة أجرة، وعندما عدت إلى شقّتي اتصلت به ورحت أؤنبه، إلى أن قال «أنا آسف» خمس مرات. وقد زاده هذا تعباً، وكنت واثقة من أنه كان يقول لنفسه: «كان من الأفضل أن أوصلها إلى الطابق الأرضي، فهذا أفضل من الجدال معها».

الآن وبعد أن أصبحنا نقيم معاً، أصبح يدعوني دائما «أميرة».

وفي مناقشة ودّية، لكن صريحة دارت بيننا اليوم، قال إنني أبدو في غاية الأنوثة من حيث المظهر وأسلوبي في الثياب (يفتن الرجال بي دائماً في البداية)، لكني ما أن أفتح فمي، حتى يتبين للآخرين بأني امرأة قوية، إلى درجة أني أتفوق على النساء الأمريكيات (لماذا يقارنني بالنساء الأمريكيات؟).

«فقط بسبب لغتي الإنكليزية»! قلت موضحة على الفور للدفاع عن نفسي. «إن لغتي الإنكليزية ليست راقية بما يكفي. لذلك فإني أختار غالباً الكلمات الخاطئة وأخطئ في القواعد».

قال مشرعاً يديه: «إنك تعطين انطباعاً بأنك قوية، وهذا يبعدني عنك في بعض الأحيان، يمنحني إشارة تقول: «اهتم بأمورك، فأنا أستطيع أن أهتم بكل شيء وحدي».

كم أكرهه عندما يحرك يديه بهذه الطريقة. قلت له: «كما تعرف فأنا مجرّد فتاة صغيرة». ونظرت إلى أصابعي بحزن، ففي عشر من الثانية أصبحت طفلة قلقة.

١٩

الزوجة السابقة في المطبخ

ما هو ذلك الشيء الذي يجعل ماريا، عندما تنضو عنها ثيابها الخارجية. . . تعبق برائحة الفانيلا الساحرة الجذابة؟

. . . ومع أن ماريا لم تضع هذا العطر على جسدها، فإن رائحته تتضوع منها.

وأوسكار يعشق حتى يومنا هذا تلك الرائحة من بين جميع الأشياء الأخرى.

غونتر غراس، «طبل من الصفيح»

وجهت لي دور النشر الإسبانية والأرجنتينية دعوات لزيارة مدريد وبرشلونة وبوينس آيرس للترويج للسنخة الإسبانية من روايتي «شنغهاي بيبي».

في البداية، خطر لي أن أرفض، لكن وكيلي الأدبي أقنعني بقوله إن اللغة الإسبانية واسعة الانتشار، وما إلى ذلك. لكن السبب الذي جعلني أقبل هذه الدعوات أخيراً هو أنني بدأت أشعر بالملل من مانهاتن ـ الجزيرة الطويلة الضيّقة، التي تبدو وكأنها أقيمت فوق بركان ثائر. فقد كانت أحداث الحادي عشر من أيلول قد غيّرت أموراً عديدة لمدّة شهر أو شهرين، لكن القمامة وباقي جميع السموم الأخرى عادت للظهور ثانية، وعاد الناس إلى ذواتهم الدنيوية اليائسة.

ولإظهار حسن النية، عرضت دور النشر أن تدفع تكاليف صديق أو

قريب يرافقني. وبطبيعة الحال فكّرت بموجو على الفور. لكنني عندما أخبرته بذلك، بدا أن الفكرة لم ترق له كثيراً، وقال إنه يجب أن ينظر في جدول أعماله قبل أن يؤكد لي إن كان باستطاعته أن يرافقني أم لا.

ففي الآونة الأخيرة، كان معكّر المزاج. إذ ظل الاقتصاد الأمريكي ضعيفاً بعد الحادي عشر من أيلول، وكان اقتصاد بلده، اليابان، لا يزال يمر في حالة كساد شديدة. ونتيجة لذلك، خسرت شركة موجو أربعة أو خمسة زبائن من كبريات الشركات التجارية ـ التي كانت تعتبر أساسية في دعم الأفلام الوثائقية التي ينتجها والتي كانت تحظى بثناء كبير، ولكن لم يكن يشاهدها عدد كبير من الناس ـ ودروس الرعاية الاجتماعية التي يعطيها في مركز الصحة. بيد أنه لم يتخل عن هذه المشاريع التي لا تدر عليه مالاً، إذ كان يتمتع بطاقة غير معهودة وإحساس غريب بالعمل، وقد أصبح ذلك نوعاً من الحكمة الحدسية التي جعلته يختلف عن معظم الناس.

وكان من المزمع أن ينهي موجو ذلك البرنامج الوثائقي عن المغني الأمريكي اللاتيني خوليو، وأن يعطي دروساً في التأمل واليوغا في منظمات مختلفة في نيويورك. وبصعوبة بالغة، تمكن من أن يجد ثلاثة أيام في نهاية رحلتي، واتفقنا على أن نلتقي في بوينس آيرس.

في البدء تعين عليّ أن أحصل على تأشيرات السفر لهذه البلدين. ولم يتمكن موجو من مساعدتي كثيراً بسبب أعماله. لكنه طلب من أحد مساعديه، شاب مكتنز، لطيف، شاذ جنسياً، يدعى بيتر، أن يساعدني في الحصول على عناوين القنصليات، وساعات الدوام، والاستمارات التي يجب أن أملأها، ومتى يمكنني الحصول على التأشيرة، ورسوم التأشيرة. بل وساعدني في الاتصال بدور النشر فيما يتعلق برسائل الدعوة، وحجز تذاكر الطائرات والفنادق.

وبفضل بيتر، توفر لديّ الصبر الكافي لإتمام جميع هذه الأمور، الواحدة تلو الأخرى، وحصلت على التأشيرات المطلوبة في الوقت المناسب. وفي مساء اليوم الذي حصلت فيه على آخر تأشيرة، دعوت موجو ومساعده بيتر وخبيرة المونتاج كاري إلى العشاء في مطعم يقدم مأكولات من شنغهاي يدعى «أولد زينغ كسينغ» في الحيّ الصيني.

في تلك الليلة، ولسبب ما، أخذ الناس يطلقون مفرقعات نارية في الشارع خارج المطعم. وكنا نسمع الصوت الذي يشبه طقطقة إطلاق النار، ونشم رائحة الكبريت الخفيفة، ولكن اللاذعة. وفي الحال، خطرت ببالي كلمة «الصين». فقد كان ذلك الصوت، وتلك الرائحة، وتلك القصاصات الحمراء المتناثرة التي كانت تغطي الأرض - ترتبط بذكريات بعيدة. فعندما تكون شاباً وعصرياً يمكنك أن تلعب ألعاب فيديو، وتستمع إلى موسيقى الهيب هوب، وتحتسي الكولا، وترتدي ثياباً من ماركة أديداس، لكن ما أن تسمع صوت هذه المفرقعات القديمة العهد، حتى لا يكون بوسعك إلا أن تستجيب لها، لأنها تسربت إلى أعماقك وأخذت تسري في مجرى دمك الصيني.

نظرت إلى الأشخاص الثلاثة المتحلقين حول المائدة، واعتراني إحساس عاطفي غريب في وسط صوت المفرقعات تلك. وشعرت بأنه ما أن تنتهي وجبة الطعام هذه، حتى أفارقهم إلى الأبد.

دفعت الفاتورة وتبعت موجو إلى الحمّام، تبعته بهدوء تام. وقد فوجئ بي وأنا أقفل باب الحمّام ورائي، واتجهت إليه، وأمسكت وجهه بقوة بين راحتيّ يدي، وطبعت على فمه قبلة مثل عاصفة من الريح أو وابل من المطر. ثم فتحت الباب وخرجت. عندما سمعت صوت ضحكه خلفي، لم أتمالك نفسي من الضحك أيضاً.

فيما كنت على وشك أن أغادر إلى إسبانيا، وقعت سلسلة من

الأحداث الغير متوقّعة. فقد جاءت زوجة موجو السابقة اليهودية إلى نيويورك من أتلانتا، برفقة ابنها وابنتها لزيارة أبيها المريض، واتصلت بموجو في إحدى نزواتها.

كنت أضع على وجهي قناعاً من الطين الأسود من البحر الميت، عندما خرجت من الحمّام مسرعة لأردّ على الهاتف. كان ردّ فعلنا نحن الاثنين واحداً عندما رددت عليها. فقد باغتتنا المفاجئة.

«هالو، أنا كيتي»، جاء صوت طفولي على نحو غريب، يرتعش قليلاً. «مرحبا، أنا كوكو». وبما أن وجهي كان مكسواً بقناع البحر الميت السميك الصلب، لم أكد أستطيع أن أفتح فمي لأتكلم.

«أوه، دعيني أقدّم لك نفسي. أنا زوجة موجو السابقة مياناغا... وقد وصلت للتو إلى نيويورك ـ وأريد فقط أن أسأل عنه!»

«أوه، حسناً، سأخبره بذلك». ومن الطبيعي، وحتى دون أن أعرّفها على نفسي، كان بإمكانها أن تخمن أني صديقته الحالية.

«شكراً».

«حسناً».

بكلتا يديّ أمسكت وجهي الذي أصبح أسود وصلباً كالصخرة. حاولت أن أفهم السبب الذي جعل هذه الزوجة السابقة، كيتي، بصوتها الذي يشبه صوت طفلة صغيرة أن تخابر. وعلى الفور قرّرت ألا أفكر بالأمر ثانية. فعندما لا تعير شخصاً أو شيئاً اهتماماً فلا يعود له وجود. وبالعكس تماماً، كلما أبديت اهتماماً أكبر، امتص ذلك طاقة من خوفك وقلقك.

قرّرت أن أنسى هذا الأمر. ولم يكن من الضروري أن أخبر موجو عن هذه «التحية» من زوجته السابقة. لكنه عندما عاد من عمله، لم أتمالك نفسي من أن لا أخبره لأرى ردّة فعله.

رفع حاجبيه مندهشاً، وفتح عينيه على وسعيهما، وقال: «كيتي في نيويورك؟» عندما ذكر اسمها، أحسست بالضيق.

«هل تركت رقم هاتفها؟»

«يمكنك أن تعرف ذلك بنفسك»، واتجهت خلال ذلك إلى المطبخ، وسمعت خلفي صوت بيب ـ بيب الصادر من اتصال موجو بالهاتف.

«ها قد وجدته. أظن أن هذا هو الرقم». كان بإمكانك أن تسمع نبرة الحماس في صوته. لم يكن بإمكانه أن يخفي شيئاً. كنت أحياناً أتمنى ألا يكون صديقي بهذه الدرجة من الشفافية والصراحة. كنت أتمنى أن يزوّق الأمور بعض الشيء، وأن يكون ساحراً أكثر من ذلك بين الحين والآخر.

إن والد كيتي الذي كان على فراش الموت جعل الأمور تتحول نحو الأفضل. وحسب الاتفاق بين موجو وكيتي على الهاتف، كان علينا أن نلتقي نحن الثلاثة في أحد مقاهي ستارباكس في عصر يوم دافئ. كنت أعرف أنه ربما كان ذلك أمراً غريباً بعض الشيء، إلا أن فكرة موجو جرفتني معها. ومع أنه دعاني، فقد بدا أنه قلق قبل هذا اللقاء عندما تذكر شدة غيرتي.

وعندما كنا متوجهين إلى المقهى، راح يكرر على مسامعي مراراً: إنك تعرفين أن الأمر كان في الماضي، أليس كذلك؟»

تأخرت عن الموعد نصف ساعة، ولم تحضر معها الطفلين كما قالت. كانت ترتدي بدلة سوداء مائلة للأخضر، وتلف حول رأسها وشاحاً موشى بالأزهار، وتضع على عينيها نظارة شمسية فاتحة اللون. كانت تبدو طرية، مثل نبتة خضراء غضة، رغم بعض التوتر الذي كان يشوب سلوكها.

عانقت موجو، ثم صافحتني فقط. قالت له: «يا إلهي، إنك تبدو رائعاً!» وجلست أمام موجو، وبدأت ترخي الوشاح المزّهر، لكنها نسيت أن تنزع نظارتها الشمسية.

«وأنتِ كذلك» قال موجو مبتسماً وفي صوته نبرة من الحرج أيضاً، وكاد يقلب فنجان القهوة أمامه.

كان من الواضح أن وجودي أربكهما. ولم أكن أعرف أن لزوجة موجو السابقة وجه نجمة سينمائية، وصدر من الواضح أنه أكبر من صدري بكثير. لا بد أنها كانت ترتدي حمالات صدر من قياس D.

بدأا ينبشان ذكرياتهما. ولكي لا أشعر بأني مهملة، كان موجو يلتفت إليّ بين الحين والآخر ويقول أشياء مثل: «كوكو، هل تعرفين أن كيتي فازت ذات يوم ببطولة مسابقة رقصة الهولا في أنحاء أمريكا. وكان خصرها آنذاك نحيفاً جداً»، أو «كوكو، لن تصدقي ذلك، لكن أمّ كيتي كتبت رسالة إلى كيتي ذات مرة، وقالت لها في نهاية الرسالة: «لا تنسي أن تخبري موجو أنه عندما يتناول الطعام في بيت أمريكي فمن الأفضل ألا يستخدم مناديل المائدة عندما يتمخط، بل عليه أن يستعمل محارم ورقية».

بدأت أعتقد شيئاً فشيئاً أن موجو أمضى فترة زواج جيدة.

وبسبب زواجه من امرأة يهودية، غضب أبواه المحافظان ونبذاه من العائلة. وكان لا يزال لا يُسمح له بالتدخل في شؤون العائلة.

سرحت بأفكاري. وكلما تحدثنا أكثر، ازداد إحساسي بأني غريبة بينهما. وانجرف موجو بدون قصد مع كيتي في ذكرياتهما الزوجية. إن الزواج والحبّ شيئان مختلفان. فقد كان يبدو أن هذه الزوجة المطلّقة تتمتع بنوع خاص من الثقة والقوّة الغامضتين، على عكس صديقته الحالية.

لا أعرف كيف حدث ذلك، لكننا عندما كنا على وشك أن نودع بعضنا، وعدت كيتي بجوّ عاطفي حميم بأنّ تحضر الطفلين إلى شقّتنا قبل أن تعود إلى أتلانتا وتطهو لنا وجبة طعام.

لم يتوقف رأسي عن الدوران في الأيام التي سبقت ذلك. إذ ستأتي زوجة موجو السابقة إلى مطبخنا الكبير، ولا شك أنها ستضعني في موقف حرج مرة أخرى.

لم أحتمل هذه الرومانسية التي تنتمي إلى مدرسة الطهي القديمة. فقد ولّت الأيام التي تسيطر فيها المرأة على قلب الرجل عن طريق معدته. لكن يبدو أن تلك الأيام بدأت تعود. وخطر لي أن أغيّر مهنتي من كاتبة روايات مثيرة جنسياً إلى كاتبة في فن الطبخ.

اتصلت بجيمي ونغ وألححت على موجو أن يدعو ريتشارد وزوجته وو ليأتيا أيضاً. في تلك الأمسية، امتلأت شقّتنا بالناس، وأصبحت أسرة تضم شعوباً مختلفة. وأحضرت وو قليلاً من السوشي والحلوى اليابانية المصنوعة في البيت. وأحضر جيمي زجاجة من النبيذ الجيد.

انهمكت كيتي في المطبخ كما تفعل ربة بيت حقيقية، أما أنا فقد استرخيت بتكاسل على الأريكة، منتعلة خفاً مطّرزاً، مثل سيدة حقيقية. كانت الأجواء هادئة ومسلية.

كان طفلا كيتي شقيين. وكانت قد أثارت الألعاب التي تأخذ شكل حبات الخوخ وصور النساء العاريات التي تملأ شقّة موجو انتباههما. وكسرا أخيراً الفيل الخشبي الذي كان قد جلبه موجو من الهند قبل ثلاثين سنة.

كان يبدو أن كيتي تعرف مدى أهمية هذه اللعبة بالنسبة لموجو. فهرعت من المطبخ غاضبة، ووبخت الطفلين: «هل نسيتما ماذا حذرتكما مامي؟ بسرعة، قولا للعمّ موجو أنكما آسفين».

«حقاً، لم يحدث شيء»، قال موجو وأمسك وجهيّ الطفلين الحمراوين المبللين بالدموع، في كل يد وقال: «إنه فيل قديم جداً. وقد آن الآوان لكي ينكسر».

تستطيع أن تقول إن له علاقة قدرية تجاه الأطفال.

كانت كيتي قد درست في أكاديمية الطهي الفرنسية لمدة سنة، ثم التقت بموجو وتزوجته وأصبحت ربّة منزل. وبعد طلاقهما، تزوّجت بسرعة مرة أخرى من رجل ثري من أتلانتا، وأنجبت صبياً وفتاة جميلين. وبتلك الطبيعة المحبوبة والوديعة التي تمتاز بها، احتلت موقعاً آمناً للغاية في أسرة زوجها الجديد، وكان جميع أفراد أسرته يحبونها.

لكنها كانت تفتقر إلى بساطة الحياة الذكية التي كانت تحياها قبل زواجها من عائلة غنية، وكانت تردد العبارة الشاعرية ـ «مثل السماء العارية التي لا يسترها شيء». كما أنها افتقدت مطبخ موجو. وكانت ترى أن لمطبخ موجو شخصية أكثر من أيّ مطبخ آخر في العالم. هذا الحنين هو الذي جعلها ترغب في أن تعدّ لنا وجبة عشاء في تلك الأمسية.

أخذت لها بضع صور في المطبخ. وقد اكتشفت أنني بدأت أحبّ هذه المرأة، التي كان جمالها يتجلى بشكل أكبر في المطبخ وسط رائحة الطعام. فهذا النوع من التفاعل الكيميائي الرائع لا يمكن أن يحدث إلا لبعض النساء. وكان يوجد لأمّي هذا النوع من التفاعل أيضاً. فقد كان المطبخ يشعرها بأنوثتها على نحو أكبر.

كانت تدندن أغنية بصوت ناعم، وتتحرك بخطوات رشيقة، وتعمل بلمسات خفيفة. وكساحرة أرتني كيف تستخدم هذه الأعشاب التي تبدو لي كاللغز: ورق زعتر، جوز الطيب، حبق حلو، وعشب الليمون.

وجدت أنه يصعب عليّ دائماً أن أتذكر كلمات المكونات باللغة

الإنكليزية، وكانت قوائم الطعام بالإنكليزية في المطاعم تسبب لي صداعاً شديداً.

«إن الطعام والنساء والأطفال أجمل الأشياء في العالم. بدأت أدرك كم كنت محظوظة» قالت وهي تضع الخضار في أحد الصحون، «عزيزتي، هل يمكنني أن أزعجك وأطلب منك أن تأخذي هذا الصحن إلى المائدة؟»

أخذت الصحن الكبير الذي أعطتني إياه وغادرت المطبخ. وقعت عينا موجو عليّ وهززت كتفيّ. لم أعرف لماذا طلقّ كيتي، وخاصة وأن فلسفتها وفلسفته في الحياة يبدو أنهما متطابقتان تماماً.

فيما كانا يقفان هما الاثنان أمام النبتة التي كانت قد أهدته إياها بمناسبة طلاقهما يتجاذبان أطراف الحديث وكان كل منهما يحمل صحنه بيده، حاولت أن أفسّر هذا المشهد، لكني أدركت مدى تعقيد الحياة.

كان ريتشارد وجيمي يتناقشان بصوت مرتفع. وكانت لديهما اهتمامات مشتركة، ولم يتوقفا عن الحديث عن الفنّ والحياة. وكانا قد أصبحا الآن مثل صديقين حميمين.

أخذت وو إلى غرفة النوم لأريها ملابسي. وقد لفتت الثياب الحريرية الصينية المطّرزة اهتمامها وتبادلنا أرقام هواتف خياط كلّ منا.

فقد كان خيّاطها في طوكيو الذي يخيط لها الكيمونو يطلب سعراً أعلى من خيّاطي في شنغهاي الذي يخيط لي الكيباو. وقالت بما أن الاقتصاد يمر في مرحلة كساد، فإن عدداً قليلاً من الناس الذين يطلبون حالياً خياطة كيمونو غالي الثمن.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، جاءت أخت كيتي الأصغر لتوصلها هي وطفليها.

وفيما كانت على وشك أن تغادر، أمسكت كيتي يدي وقالت أشياء كثيرة تنم عن الإطراء والثناء: «إنك الأفضل. . . حقاً، إنك الأفضل». عانقتها بحرارة وشممت رائحة كحول. فقد كانت قد شربت قليلاً وازدادت حماساً. كنت سعيدة عندما وجدت أن لهذه المرأة الجميلة هذا الولع المخلص بالمطبخ، وسعيدة لأتي رأيتها تغادر محمّلة بمشاعر رقيقة. قلت لها وأنا ألوّح لها بيدي: «إلى اللقاء يا كيتي».

لم يكن لدى موجو وقت لتوديعي في المطار في يوم سفري إلى مدريد. ولم يكن يريد أن يذهب إلى المطار ليستقبل أو يودع الناس. ففي المرة الوحيدة التي جاءت فيها أمّه، التي لعبت دوراً حاسماً في حياة الأسرة، إلى نيويورك لم يعبأ بالذهاب إلى المطار لاستقبالها. كان يشعر أن هذا مضيعة للوقت. وبسبب تصرفه هذا، أظن أني وصفته بدقّة في إحدى المشاجرات الحادة بيننا عندما صحت فيه وقلت إنه أسوأ توليفة تجمع الرجال اليابانيين والأمريكيين والأمريكيين اللاتينيين.

كنت أرتدي بلوزة من قماش الدينيم التي تشبه سترات فتيات المرشدات في الكشافة من ماركة مارك جاكوبس، وقد جلست في سيارة الأجرة التي جلبها لي موجو. شعرت بدوار السيارة طوال الطريق إلى المطار، وأصبح لون وجهي أبيض على نحو مخيف.

عندما وصلت إلى المطار، زادت أرتال حرّاس الأمن المتجهمي الوجوه من توتري وعصبيتي. وكانت حقائب رجل من الشرق الأوسط مبعثرة على الأرض مثل قمامة في الشارع. وكان هناك رجل أمريكي قصير يقف عند مكتب تسجيل المسافرين وقد غطّى رأسه بيديه يائساً وهو يبكي، ويدمدم بشيء للمضيفة الواقفة وراء الكاونتر.

أما أنا، فلم يكن حظي سيئاً إلى هذه الدرجة. فقد قلبوا حقيبتي أعلاها أسفلها، ووضعوا مقصّ حاجبي في كيس بلاستيكي شفاف.

واصطحبتني امرأة سوداء متجهمة ترتدي بدلة رسمية إلى مكتب تسجيل المسافرين، وعندما انتهى ملء الأوراق، وضعوا المقصّ الصغير في الحقيبة الكبيرة، ووضعوا عليها لاصقة ووضعوها فوق حزام النقل ورحت أراقبها وهي تختفي أمام عينيّ.

تأخرت الرحلة عن الإقلاع ساعة ونصف الساعة. كان المسافرون في الطائرة مشوشين وقلقين. وفجأة انطلق صوت في المذياع: من فقد طفلاً صغيراً؟ يوجد طفل صغير خلف المقصورة، قرب الحمّام. يرجى من ذويه الحضور لأخذه». انتفضت أمّ شابة ونهضت بسرعة من مقعدها وجرت إلى وراء المقصورة. أخذ الجميع يضحكون.

كان موجو يتصل بي كلّ بضع دقائق على الهاتف الخليوي. وكنت أقول: «لا أزال هنا».

قال: «اشربي مزيداً من الماء، فهذا سيسهل عليك الأمر. أو يمكنك أن تقرئي مجلة».

«ماذا لو حدث مكروه للطائرة؟ كان عليك أن تودعني في المطار. إنك لا تبالي بي...» قلت، مجروحة.

«لا تدعي خيالك يأخذك بعيداً. لن يحدث شيء. سأراك في الأرجنتين. حبيبتي».

٢٠
راهبان

الذين يعرفون لا يتكلّمون، والذين يتكلمون لا يعرفون.

لاو تزو

جزيرة بوتوو ـ الخريف

رويداً رويداً بدأت ألوان الخريف تزداد كثافة. وبدأت أوراق أشجار البتولا والحور والقيقب التي تكسو الجبل تتغير. وبدت الأوراق الحمراء الداكنة أكثر حيوية في الصباح الباكر عندما يبللها الندى. وأضاء وهج الشمس القاني سطح البحر الأخضر الداكن الذي يشبه قطعة كبيرة من حجر الجاد الكريم. ورغم أن الجزيرة كلها كانت تنعم بالهدوء والسكينة، فإنها كانت مفعمة بالحيوية.

خلال فترات الصباح، لم أكن أفعل شيئاً سوى أن أراقب المحيط، سارحة في أفكاري، أو مستلقية على السرير أقرأ كتاباً. وكانت جميع الكتب التي قرأتها تعود إلى مئات السنين: «كتاب الوسادة»، «أحلم بالغرفة الحمراء» أو «قصائد تانغ وسانغ». وكنت في عصر كل يوم، بعد أن أتناول وجبة خفيفة من الطعام في مطعم الفندق الصغير، أتمشى على الشاطئ لفترة من الوقت قبل أن أتوجه إلى «معبد المطر الورع»، لزيارة الراهب «سيد الطبيعة الفارغة» ـ الراهب العجوز الذي صادفته في ذلك اليوم عندما تذكّر اسمي البوذي «الحكمة».

كان «سيد الطبيعة الفارغة» يمضي عادة نصف ساعة وهو ينصت إليّ وأنا أروي له قصصاً عن حياتي التي كانت أشبه بأعمدة دخان تحلّق بعيداً في الهواء.

كان يبلغ مائة سنة وسنة واحدة من العمر، وكما يقول الصينيون عادة: إن الجسور التي عبرها في حياته أطول من الطرق التي مشيتها. وهو لم يزر أمريكا أو أوروبا أو اليابان، لكن التلاميذ البوذيين من جميع هذا البلاد كانوا يأتون إلى جزيرة بوتوو لزيارته.

عاش الراهب «سيد الطبيعة الفارغة» متنسكاً في هذه الجزيرة خلال معظم القرن. لقد مرّ الزمن، لكنّه بقي في مكان واحد. وكان يعرف التغيرات التي يمكن أن تطرأ على هذا الكون اللا محدود، وكان الراهب «سيد الطبيعة الفارغة» قد أمضى حياة سعيدة وهو يفعل الخير، ويمنح كل ما يملكه، وكان محبوباً إلى درجة كبيرة، ويحترمه ويبجله جميع سكان الجزيرة. وكانت أكثر الحكايات التي تروى عن السيد هي تلك التي حدثت خلال فترة المجاعة الكبرى في الصين عام ١٩٦١، عندما تمكن رهبان المعبد من جمع نصف كيلو من الرزّ الأبيض الجاف بصعوبة بالغة وقدموه إلى السيد. وفي اليوم التالي، سأل أحد الرهبان السيد إن كان قد أعجبه الرزّ، فأجابه السيد: «لم أتناوله، لأني قدمته إلى امرأة عجوز تسكن في الجوار».

وحسب ما يقوله المسنّون في الجزيرة، فإن السيد يتحدر من عائلة محترمة من عائلات شنغهاي، وكان يعرف في شنغهاي بذكائه الحاد عندما كان شاباً. وكان يجيد العزف، واللعب بلعبة «غو»، والتخطيط والرسم ـ جميع مباهج الأدباء ـ فضلاً عن أنه كان يحبّ السفر. فقد سافر على امتداد معظم الأنهار، وعبر جبال الصين، لكنه بعد أن استقل العبّارة إلى جزيرة بوتوو، أدرك أجواءها المقدّسة وقرّر على الفور أن

يصبح راهباً بوذياً، واختار أن يقيم في معبد المطر الورع. ولم يغادر الجزيرة الصغيرة منذ ذلك الحين.

كنت أظن أن الانتقال من مكان إلى آخر يحتاج إلى شجاعة كبيرة، لكنني أدركت الآن، وبعد التمعن في هذا الأمر، أن اختيار مكان واحد وعدم مغادرته يحتاج إلى شجاعة أكبر.

كانت تظهر دائماً على وجه سيد الطبيعة الفارغة قسمات تشبه الابتسامة لكنها لم تكن ابتسامة في الحقيقة. وكان يبدو وكأنه نعس، فيما لم يكن نعساً. وكانت نظرته عندما ينظر إلى الناس هادئة وبراقة بدفء. وعندما كان يتكلّم لم تكن نبرته سريعة ولا بطيئة.

في حضرة هذا الرجل العجوز الودود، شعرت بالمهابة والوقار. وكنت عندما أحدثه أحياناً عن أشياء حدثت لي في الماضي وكانت تزعجني، كنت أرى نظرته الهادئة المطمئنة بعمق، ولوهلة كنت أفقد الوعي بوجود حدود بيني وبين العالم في الخارج... وفي تلك اللحظة، لم أكن أقدر على قول شيء.

بدأت أقدّر الطبيعة العبثية لهذا الكلام كله. فما أن كنت أحدّث السيد عن التجارب التي كانت تؤرقني وتعذبني، حتى أشعر بأني أصبح خفيفة وجذلة وتغادر الهموم جسدي، وتصبح أشياء لا علاقة لي بها. في وسط تلك الكومة من الرماد، رأيت العدم. كان ذلك كارما، إله الحبّ. إنها الرحمة.

تذكرت قصّة موجو التي حكاها لي، كيف أنه تتبع خطى معلّم عجوز ولم يفارقه أبداً، وكان يجلس تحت الشجرة عند حافة النهر صامتاً وهو يتأمّل. واعتراني الشعور ذاته. وفي المرّة الثالثة التي ذهبت فيها لأعبّر للسيد عن احترامي له، لم أقل شيئاً خلال نصف الساعة

تلك. بل أخذت أتحمم بابتسامته الرقيقة ونظراته الصامتة. لقد خلق السكون فيّ إحساساً غريباً بالأمان.

وفي المرّة الرابعة التي ذهبت فيها لأعبّر للسيد العجوز عن احترامي، قال شيئاً في غاية الأهمية بالنسبة لي - إن الجهل سبب جميع أشكال المعاناة في العالم. ولكي يتحرر المرء من الجهل، عليه أن ينميّ الرؤية الحقيقية والتأمل والعمل والرحمة - وقال إن الرحمة أساس الرؤية الحقيقية والتأمل والعمل. كوني رحيمة وعطوفة تجاه الآخرين، وكوني عطوفة ورحيمة تجاه نفسك، لأن الشخص الذي لا يعرف كيف يحبّ نفسه أو نفسها، لا يستطيع أن يعرف كيف يحبّ الآخرين.

لا تنطوي كلمة «الحبّ» التي نعرفها على المعنى الذي قصده السيد. إنه الحبّ المنبثق عن الحكمة التي تأتي من عقل منفتح. ولكي يكتسب المرء هذه الحكمة، يجب عليه أن يحبّ الأشياء في نفسه التي تعتبر عيوباً، كالغضب والخوف والغيرة والاستحواذ والعواطف السلبية الأخرى. وحسب العقيدة البوذية التقليدية، فإن هذه العواطف السلبية والعواطف الأخرى التي يعتقد الناس أنها إيجابية - كالشجاعة والفهم والكياسة وما إلى ذلك - أشياء جُبل عليها الناس، ولا يمكن الاستغناء عنهما كليهما.

فإذا فكرت بالعواطف الإيجابية، كالحبّ، كالأزهار في حديقة، عندها تصبح العواطف السلبية قمامة في تلك الحديقة. إن ما تحتاجين إلى إتقانه هو كيف تحوّلين القمامة إلى سماد يغذّي تلك الأزهار الجميلة.

ويظن البعض أن خصالهم الجيدة يجب أن تتغلب على صفاتهم السيئة، وأن يقهروا العواطف السلبية ويخرجوها من رؤوسهم وقلوبهم. هذا خطأ.

فالمعاناة والمأساة ليستا شراً. بل هما جزء عضوي من الحياة. وما عليك إلا أن تحولهما وأن تستفيد منهما.

في عصر أحد الأيام، أوقفني تلميذ سيد الطبيعة الفارغة ـ الراهب الشاب الذي يدعى هوي جوانغ الذي كان يلاعبه لعبة «غو» تحت الشجرة ـ عند باب المعبد، وقال لي إن سيد الطبيعة الفارغة متوعك الصحة.

توقّفت عند الحجرة الخضراء الرمادية على عتبة المعبد، وبدا على وجهي ضيق شديد. «ماذا أصاب السيد؟ هل هو مرض خطير؟»

«لقد أصابته قشعريرة خفيفة في الليلة الماضية. ووصف لنفسه جرعة من الأعشاب الطبية لينام! ليس الأمر خطيراً على الإطلاق»، طمأنني هوي جوانغ.

أحسست بشيء من الارتياح لسماع ذلك.

صادف أن هوي جوانغ كان ذاهباً إلى معبد آخر ـ معبد بوجي في الطرف الجنوبي من الجزيرة ـ ليحضر كتب بوذية مقدّسة. لم يكن لديّ شيء أفعله، لذلك رافقته، وأخذنا نسير في دروب جبلية متعرجة ونتحدث في طريقنا.

سألت هوي جوانغ عن السبب الذي جعله يصبح راهباً. قال إن أمّه بوذية مؤمنة، وبعد سنوات عديدة من العقم، نذرت لبوذا أنها إذا أنجبت صبياً فإنها سترسله ليصبح راهباً يخدم بوذا، وإذا أنجبت فتاة، فسترسلها لتصبح راهبة.

سألته: «خلال سنوات التدريب هذه، هل تشتاق إلى أمّك؟»

أطرق هوي جوانغ برأسه ولم يقل شيئاً. فقد كشف وجهه الأبيض اللون في جزء من الثانية تعابير حادة تراها غالباً على وجوه الرهبان

والراهبات التي تظهر نتيجة ممارستهم الزهد بصرامة. وكانت عباءته الصفراء الفاتحة، تتراقص بهدوء مع هبات نسيم المحيط الرطبة. وقد انبعثت من جلد رأسه الحليق اللامع، والمائل إلى اللون الأخضر الداكن قليلاً، رائحة الهرمون التي تنبعث من الشباب.

لقد أفضت تعابير وجهه لي بأنه مشتاق إلى أمّه بمرارة، إلى درجة أنه ربما اقترب من درجة الكراهية.

عند بوابة معبد بوجي، تحدث هوي جوانغ إلى الحرّاس وسمح لنا بالدخول بدون تذاكر. كان هناك عدد من الحجاج في معبد بوجي أكثر مما كان في معبد المطر الورع، لذلك عندما كنت تمشي كنت تصطدم بأحدهم بين الحين والآخر. وكانت المباني مزدانة على نحو رائع باللونين الأخضر والذهبي ومرصعة بالجواهر. وجد هوي جوانغ شين تيان بسرعة، راهباً شاباً آخر كان زميلاً له في المدرسة البوذية، وأخذ منه الكتب المقدسة. وقدم له شين تيان أيضاً قطعة صغيرة من الجاتو. فقد كانا مثل أخوين.

كان هوي جوانغ يمسك بيده بحرص شديد قطعة الجاتو المغلفة في علبة ورقية، في طريق عودتنا. لم يأكلها، بل كان يريد أن يقدمها إلى معلّمه «سيد الطبيعة الفارغة».

قال هوي جوانغ إن السيد لا يتناول إلا هذا النوع من الجاتو، الذي لم يكن جزءاً من الطعام النباتي المخصص للرهبان، فقد كان «سيد الطبيعة الفارغة» قد نشأ ابناً مدللاً من أسرة مرموقة، وكان الروس المنفيون الذي كانوا يطهون لأسرته الطعام يصنعون ألذ أنواع الجاتو بالكريمة في شنغهاي، لذلك فإن السيد يحب هذا النوع من الجاتو منذ أن كان صغيراً. وبعد أن أصبح راهباً، نبذ كلّ شيء إلا هذا النوع من

الجاتو الذي كان يتناوله بين الحين والآخر ـ والذي كان يطلق عليه «كمال النقصان».

سألت هوي جوانغ وأنا أضحك: «هل يستطيع الرهبان أن يتناولوا الجاتو؟»

قال: «ما دامت الكريمة من صنع البشر فلا بأس في ذلك».

«إذن هلّ بإمكانهم أن يتناولوا البيض؟»

«إن الرهبان في الجزيرة يبحثون في هذا الأمر. فنصفهم يقول إننا نستطيع، ونصفهم الآخر يقول لا نستطيع».

عندما وصلنا إلى معبد المطر الورع لم نجرؤ على أن نزعج «سيد الطبيعة الفارغة». أعدّ هوي جوانغ إبريقاً من الشاي الأخضر، وجلس معي تحت شجرة بودي، وعلّمني بضع حيل في لعبة «غو».

فهذه اللوحة السوداء والبيضاء ما هي إلا تجسيد مباشر للحكمة الشرقية. ولا تهدف اللعبة إلى أن تقضي على منافسك أو أن تأسر ملك خصمك. فاللاعب الذي يحتلّ معظم الأرض يفوز، لكن يستحيل على أحد اللاعبين أن يستولي على أرض العدو كلها لنفسه، لذلك فإن النصر فيها نسبي وضئيل، ويستند الفوز إلى تعايش الخصمين.

مرّ الوقت بسرعة. قرع صوت حادّ وواضح بمطرقة خشبية. لقد حان الوقت للذهاب إلى غرفة التأمل لتلاوة السوترا والجلوس للتأمل. جمع هوي جوانغ الشاب قطع اللعبة ولوحة اللعبة. جرعت ما تبقى من الشاي في فنجاني، وودع أحدنا الآخر. رحت أمشي الهوينى في الدرب الضيّق وعدت إلى حانة الوصول السعيدة.

٢١

في مدريد

دعونا نواجه الأمر، فعندما يظهر رجل جذّاب، تندفع إليه الكثيرات منا ويكنّ مستعدات لتلميع حذائه بملابسهن الداخلية.

ليندا باري

مدريد ـ الصيف

عندما هبطت من الطائرة ودخلت إلى قاعة مطار مدريد التي تعّج بالحركة، رأيت الكثيرين ممن ينفثون دخان سجائرهم بسعادة ورضا في وسط سحابة هائلة من دخان السجائر. وقد ذكّرني ذلك على الفور بأنني لم أعد في أمريكا التي تحظر التدخين في الأماكن المغلقة، بل أصبحت في أوروبا الضبابية، الغامضة المليئة بالدخان.

وفي تلك اللحظة بالذات، اعتراني شعور بالراحة. كانت السيارة التي أرسلتها دار النشر تنتظرني في الخارج. أنزل السائق اللوحة التي كتب عليها اسمي ووضع حقائبي في صندوق السيارة. ثم أخذ يقود بسرعة جنونية، وراح يشقّ طريقه عنوة بين السيارات وإشارات المرور.

بعد أن كنت قد سمعت قصصاً وحشية عن إسبانيا، فتحت عينيّ ـ اللتين كانتا حمراوين قليلاً بسبب إرهاق السفر ـ على وسعهما، أبحث عن ذلك المشهد الطبيعي الخلاب، والهندسة المعمارية الرائعة، والفتيات الإسبانيات ذوات الخصور الرشيقة. وبالطبع، تذكرت كذلك وجهين جميلين لمصارعي ثيران إسبانيين.

هدأ ضوضاء المحرّك عندما توقفت السيارة أمام أحد الفنادق الفخمة. وبسبب عدم مجيء موجو إلى مدريد، كانت الميزانية التي خصصتها دار النشر أكثر من كافية. إذ حجزوا لي غرفة في واحد من أفضل الفنادق في المدينة لليلتين فقط.

بدأت المقابلات الأولى بعد ساعتين فقط من وصولي. وفي الطابق الثاني من مطعم الفندق، كانت ترافقني المحرّرة من دار النشر، المسؤولة عن الدعاية والترويج، والمترجمة التايوانية المفعمة بالحيوية. وكانت المائدة مليئة بالمأكولات. وكان ردّ فعل معدتي على إرهاق السفر قوياً دائماً، فقد كنت أشعر بقرصات جوع هائلة.

لقد عذّبني هؤلاء الصحفيون، لكني كنت أخرج من لقاءاتهم بسلام، الواحد تلو الآخر. وخلال الفترات التي كانت تفصل بين مواعيد المقابلات تلك، كنت أنا وسوزان، مسؤولة الإعلان والدعاية في دار النشر، نلعب الداما الصينية. وكان النادل يجلب لنا كأساً بعد كأس من الشاي أو القهوة بالإضافة إلى الشوكولامو. انتهت جميع المقابلات في اليوم الأول بنجاح، وكان الجميع سعيدين تقريباً.

تناقشنا أنا سوزان أين سنتناول العشاء. قالت: «لا تتناولي الطعام في الفندق. فربما كنت ترغبين في أن تخرجي وتشاهدي مدريد؟»

«هذا ما أفكّر به»، قلت.

تمشّينا في شوارع مدريد ونحن ننتعل أحذية ذات كعب واطئ، نتفرج على محلات بيع الأحذية ومحلات البوتيك وبيع الجواهر. وبإلحاح منها، اشتريت حذاء يدوي الصنع، وتنورتين من ماركة لوردز بيرجادا (ماركة محلية شعبية). وبالطبع قمنا بزيارة المكتبات أيضاً. وعندما أصرّت سوزان على أن أقف أمام صفّ طويل من رفوف الكتب التي تضم الطبعة الإسبانية من كتابي لالتقاط بعض الصور، اعتراني

شيء من التوتر. فلم يكن الوقوف أمام الكاميرا بهذا الشكل شيئاً جميلاً. كنت أخشى أن تقع الكتب فوقي.

كنت أحياناً أفضل أن أكون فتاة لا تعرف الكتابة، تسير في الشارع وعلى وجهها علائم الجهل الهانئ، وعلى شفتيها ابتسامة فتاة مسترخية لا تكترث بشيء. فتاة تفكر بأنها تستقل الحافلة وتتزوج في المحطة التالية ـ تماماً كما يجري في الروايات الأكثر رواجاً.

جلسنا في مطعم قديم يشتهر بتقديم لحم الحمل المشوي. وفي ضوء المصباح الخافت، بدت الأرض رطبة قليلاً، وازدانت الجدران بلوحات زيتية. كنا وكأننا نجلس في سفينة قرصان غرقت وغاصت إلى قاع المحيط منذ سنوات.

ساعدتني سوزان في قراءة قائمة الطعام، لكن حتى بترجمتها من الإسبانية إلى الإنكليزية، كان الصداع لا يزال يلمّ بي. قلت لها: «حسناً، لقد قرّرت. سأجرب أيّ شيء توصي لي به»، وأغلقت قائمة الطعام.

غمزتني وقالت: «لا تقلقي، إنه سيعجبك. كلّ شيء هنا من هذا العالم!»

وجدت متعة في الاستماع إليها وهي تتحدث بلغة إنكليزية ذات لكنة إسبانية ثقيلة. وكانت تتكلم بحماس وكأن «السماء لن تقع» مما كان يرفع معنوياتك ويشعرك بالبهجة. حتى عندما كانت تتجهم وهي تتكلم على هاتفها الخليوي وتصيح بأعلى صوتها في أحد الصحفيين، كانت تمنحك شعوراً متألقاً وقوياً. وعندما كانت تضحك بمتعة، كانت ضحكتها أشبه بشعاع نور يبعث كيلو واط من الطاقة.

باختصار، لقد أحببتها.

وبعد الحساء والسلطة، جاء الحمل المشوي اللذيذ.

«يا إلهي، رائع، ألذّ نكهة على وجه الأرض!» صاحت سوزان وهي تصفق بيديها. وافقت على أنه أطيب من أيّ طعام قد نتناوله في أي مطعم صيني في مدريد.

«كان ذلك يوماً شاقاً، لكن صدقيني، كنت رائعة حقاً».

رفعت سوزان كأساً من النبيذ الأحمر.

رفعت كأسي من ماء إفيان استجابة لها، وقلت: «شكراً».

«هل حقاً لا ترغبين في احتساء كأس من النبيذ؟»

«لا أريد حقاً».

«إن لحم الحمل لذيذ مع كأس من النبيذ الأحمر. هل أخبرك أحد أنك أنت وروايتك شيئان مختلفان تماماً؟ دعينا لا نتحدث عن الرواية. لا بد أنك تكلّمت عنها كثيراً حتى عُصرت عصراً».

«على أي حال، فأنا أحبّ أن أسمعك وأنت تتكلّمين».

«يكمن السرّ في هذا النبيذ الأحمر. فالنبيذ الأحمر يجعلك متألقة دائماً». ابتسمت وهزّت رأسها.

في تلك اللحظة، بدت متألقة.

ثم وضعت كأسها، وانحنت عليّ فجأة.

«مهما فعلت، فلا تلتفتي ـ فقد لاحظت شاباً يجلس إلى الطاولة إلى يسارك ولم يرفع عينيه عنك».

ابتلعت قطعة من لحم الحمل، فتحت عينيّ على وسعهما وظللت أنظر إليها لحظات. «لا أستطيع أن أتمالك نفسي، يجب أن ألتفت وألقي نظرة».

«لا، لا. . . تمالكي نفسك قليلاً. يجب أن نتصرف بشكل طبيعي. يا إلهي! إنه أروع رجل رأيته في حياتي، صدقيني».

بدأ قلبي يخفق بقوة. يا إلهي، لقد جعلتني جملتها الأخيرة أشعر بالاضطراب. فالرجال الوسيمون يشبهون الأزهار السامة. إنهم يجذبونك لكنهم يجعلونك تشعرين بالتوتر. وعندما لا تستطيعين أن تلتفتي وتنظري وتتظاهري بأن شيئاً لا يحدث، تصبح فكرة وجوده مغرية على نحو خاص.

«يا إلهي، لقد لاحظ. إنه يبتسم لي. يا إلهي، إنه ينهض! والآن ها هو يأتي إلى هنا!»

«حسناً»، وأخذت نَفَساً عميقاً، والتفت بغتة. . .

«مرحباً، هل هذا أنتِ حقاً؟ كوكو؟» وقف أمامي مثل شمس هائلة يلقي عليّ روائح الكحول والمخدر وهرمون التستستيرون. أحسست بأني منبهرة ومفتونة.

«نِك؟» وخبطت على صدري برقة وأنا أبتسم، وبذلت ما بوسعي لكي أبدو طبيعية، لكنني انزعجت من نفسي لأني ذكرت اسمه بهذه الطريقة الطائشة.

«رائع. يا لها من صدفة! أن أراك ثانية هنا. . . يا إلهي». كانت عيناه مثبتتين عليّ، شفافتين، براقتين كالابتسامة الهادئة، لكن المحبة كانت بادية على وجهه.

مدّ يده إلى سوزان وقال: «أنا آسف، اسمي نِك». كان يبدو أن سوزان لا تزال لا تعرف حقيقة ما حدث. «لماذا لا نتناول الطعام معاً؟ هل تمانعان إن أنا وصديقتي. . . انضممنا إليكما؟»

«طبعاً. . لا نمانع» قالت سوزان على الفور. نظرنا نحو طاولة نِك

ورأينا رفيقته على العشاء فتاة أمريكية جميلة شقراء وعلى وجهها تعبير غاضب.

انتهينا نحن الأربعة من تناول لحم الحمل بصمت غير مريح. وأسرف الآخرون جميعهم في الشراب. لم يبعد نِك عينيه عني. أما عينا رفيقته، فكانتا تتنقلان بيني وبينه، وكانت سوزان تراقبنا جميعنا باهتمام شديد. لم أكن أنظر إلى أيّ شئ، بل واصلت الابتسام.

كانت هذه اللعبة مثيرة وسخيفة في آن معاً. حتى أنني شعرت بشيء من الأسف على الشقراء ذات العينين الزرقاوين والصدر الكبير. فقد كان رفيقها غنياً، جذاباً ووسيماً على نحو مدهش ـ وهنا تكمن المشكلة، فقد كان يبدو أنه لا يستطيع أن يكتفي بامرأة واحدة، بل يرغب في الحصول على عدة نساء.

«أظن أني يجب أن أعود إلى الفندق»، قلت، وفتحت فمي أخيراً.

نظرت سوزان إلى الأشخاص الثلاثة وقالت: «لا يمكنك أن تفوّتي حياة الليل في مدريد. فلن تجدي حياة الليل المثيرة كهذه عندما تصلين إلى برشلونة»، لكن لم يكن يبدو من نبرة صوتها أنها مقتنعة بما قالته.

قال نِك: «لا تذهبي. أعرف مكاناً رائعاً سيكون مصدر إلهام لك. لا بد أن تجربيه».

«إني متعبة جداً. يجب أن نعود إلى الفندق أيضاً»، قالت رفيقته الشقراء ببرود شديد وهي تلوّح إلى النادل ليحضر الفاتورة.

«إذن يمكنك أن تعودي وحدك»، قال نِك ولم تعجبه إيماءة الفتاة إلى النادل. فبما أنه سيدفع الفاتورة، فمن حقه أن يستدعي النادل متى يشاء.

عندما جاءت الفاتورة، دفع نِك ثمن وجبات طعامنا جميعاً، مع أن سوزان قالت له أن الناشر سيدفع ثمن وجبتينا.

عندما اكتشفنا أننا نحن الأربعة نقيم في الفندق نفسه، أدركت أن الأشياء ستزداد تعقيداً. أخذ نِك رقم غرفتي ودوّن رقم غرفته على علبة سجائر فارغة وقدمها لي.

أخذت حمّاماً حاراً طويلاً، وتناولت حبة منومّ بسبب إرهاق السفر، ثم صعدت إلى السرير. وما أن رحت أعدّ حتى المائة حتى كنت أغطّ في النوم. لعلع صوت الهاتف عالياً.

فتحت عينيّ فجأة، وأخذت نفسا عميقاً، ورفعت السماعة. بالطبع كان نِك.

«أريد أن أراك»، قال.

«الآن؟»

«آسف، من المؤكد أني أزعجتك قليلاً، لكني أريد أن أراك حقاً».

لم أنبس بكلمة، وفي الواقع لم أعرف ماذا أقول.

«لقد غادرت الفتاة. فقد تشاجرنا في الطريق بعد أن غادرنا المطعم، وأنا سعيد بأنها ذهبت. لقد وجدت لها فندقاً آخر. ستأتي سيارة لتأخذها لذلك ستكون على ما يرام. أريد أن أراك».

«يا إلهي» صحت في نفسي. تنهّدت وأمسكت بيديّ رأسي الثقيل الذي أصبح مشوشاً ومتورماً من الحبوب المنومّة. لم أعرف كيف أتصرف مع هذا الرجل الأناني والمزعج لكن المغري على الهاتف. فقد صادفت أزهاراً سامة كثيرة. وفي كلّ مرّة كنت مثل عثّة تحوم حول اللهب، وفي النهاية لم يكن يتبقى سوى كومة من الرماد البائس.

«لا أظن أنك تمزح» قلت بصوت منخفض، ثم أضفت: «غداً ينتظرني عشرون مراسلاً إسبانياً لسحقي. يجب أن أرتاح قليلاً. إلى اللقاء!»

كنت على وشك أن أغلق سماعة الهاتف.

«توقفي قليلاً. إذن هلّ يمكننا أن نتعشّى معاً ليلة غد؟»

«أخشى أني لا أستطيع». كان صوتي أجشاً.

«إذاً ما رأيك بعد العشاء. سأقابلك في بهو الفندق في الساعة العاشرة والنصف».

«العاشرة والنصف؟»

«تصبحين على خير! أحلام حلوة»، قال برقة.

٢٢
إنه جذّاب، لكنه سامّ

تمضي النساء دائماً وقتاً طويلاً وهن يقلن: لا، لا، لا.

ماي ويست

الرشاقة رفض.

كوكو شانيل

لا أعرف أين أنا.

صوت الموسيقى يصمّ الآذان إلى درجة أنك تشعر بأنه سيمزّقك إرباً.

روائح كثيرة تمتزج في هذه الحرارة. يضع نِك يده على أذنه ويصيح شيئاً في هاتفه الخليوي، وهو يبتسم رغم كلّ هذه الضوضاء. لا أظن أنه يسمع شيئاً بوضوح! إنه دائماً مفعم بالنشاط.

يبدو أن الجميع هنا يتمتعون بطاقة غير محدودة إلا أنا. لا أعرف لماذا أجلس هنا وهالات داكنة تحت عينيّ، في حين كان يجب أن أكون في سريري منذ ساعة أهنأ بنوم عميق.

ينظر نِك إليّ مبتسماً وهو يدخّن. أشرب ماء إفيان وانظر إليه نظرة جانبية، ثم أقول له بغتة: «إنك رجل أناني. شديد الاعتداد بنفسك، ومتكلف كثيراً في أسلوبك، لكن يجب عليك أيضاً أن تتحكم بنفسك كثيراً».

ضحك عالياً.

«لماذا تضحك؟»

«الضحك أفضل من البكاء»، قال بعد أن صمت لحظة.

«إنك تعرفين أنني أحبّك، أليس كذلك؟»

في تلك اللحظة بدأت فتاة تعرّي تخلع ثيابها حتى لم يتبق شيء يستر جسدها سوى كيلوت ذي شريط رفيع جداً. وفيما كانت ترقص، كانت تضرب شاباً هائجاً بسوط. فيما كنا نتفرج على الثنائي الهائج، التفت إليه وقلت: «يجب أن أذهب».

«حسناً. إنك مثل سندريلا ذات النعل الزجاجي، تهربين قبل أن يحلّ منتصف الليل ويتلاشى السحر. أيّ جزء تفضلينه؟ الهروب اللانهائي؟

نظرت إليه، وأمسكت حقيبتي ونهضت.

«أنا آسف، إنني لا أنتقدك. إنه خطأي، فأنا لا أجعل الناس يشعرون بالراحة». وتوقف عن الابتسام، وأمسك ذراعي وشق طريقه عبر لحم البقر المفروم من ذلك الحشد وخرجنا.

عندما أخذنا نسير في الشارع، هبت عليّ نسمات عليلة تعبق منها رائحة النباتات فجعلتني أكثر يقظة، لكن صوتاً داخل جسدي ما فتئ يذكّرني: «إنك بحاجة إلى النوم، إنك بحاجة إلى النوم! عودي إلى الفندق، قولي له عمت مساء، أغلقي الباب، واستلقي على السرير».

لم نعثر على سيارة أجرة.

كان نِك يبدو مغتبطاً. «يا لها من أمسية رائعة!» قال لنفسه، وقد حشر يديه في جيبيه مثل شكسبير عاشقاً. ثم، وكما كنت أخشى، قال

بعد لحظة: «دعيني أغني لك»، وبدأ يغني فعلاً، بصوت عال، نشاز، ويحرك يديه وقدميه.

وراح يغني: «حبيبتي، حبيبتي، أحبك وأنت صامتة، وكأنك لست بقربي. أوه، إنك تسمعينني أجأر، لكن صوتي لا يحرّك أشجانك، يا حبيبتي. إني حقاً أحبك وأنت صامتة».

كنت أريد أن أهرب. فقد أثار حنقي. كنت أشعر وكأن مليون حشرة خفية تنهش لحمي، وتلسعني وتشعرني بالخدر. جعلني ذلك أشعر بالطيش لكني كنت خائفة. أخذ يدور أمامي، يتمعن في قسمات وجهي، وأنا أكتم ضحكة وأتحاشى النظر في عينيه.

مرت سيارة جيب فاخرة فيها فتيان يرتدون ثياباً بإهمال وأخذوا يصيحون فينا بالإسبانية ويصفقون. أُلقيت زجاجة بيرة فارغة على أرض الشارع. سمعت صوت ارتطام فانحنى نِك وندت عنه آهة. اعتراني خوف شديد وهرعت إلى جانبه وسألته: «هل أنت على ما يرام؟»

وعلى الفور ضمني إليه وقال: «أنا على ما يرام، إني جائع وعطشان فقط. إني أحتاج إلى اهتمامك، إلى قبلتك». لم تتمكن عيناي من الإفلات منه. لقد سُحرت.

وعندها تسقط هذه الفتاة المسكينة بين ذراعيه، ويذوب جسدها كله. هل هذه نعمة من السماء أم نقمة؟

في مصعد أغلى الفنادق في مدريد، كانت المرآة الكبيرة تعكس صورة رجل وفتاة يقفان جنباً إلى جنب.

لم ينبس أحدنا بكلمة. ظلت حرارة قبلتنا الملتهبة على طرف لساني. تحاشينا أن تلتقي عينا أحدنا بعينيّ الآخر، وأخذنا نرقب متوترين رقم كلّ طابق يصل إليه المصعد. كانت غرفته في الطابق

العاشر، وكانت غرفتي في الطابق السادس. عندما توقف الضوء مشيراً إلى الطابق السادس، فتح الباب.

تردّد نِك وهلة، ثم تبعني خارج المصعد. لم يفه أحدنا بكلمة، فيما كانت أقدامنا تطأ السجادة الناعمة دون أن تحدث صوتاً. عندما وصلنا إلى باب غرفتي توقّفنا وقلت متلعثمة: «أنا. . .»

«حسناً»، قال بسرعة، وأضاف: «إنك متعبة جداً، يمكنني أن أرى ذلك». وتعمد أن يشدد على كلمة «متعبة». كانت تبدو على وجهه أمارات الضيق قليلاً، لكنه بدا صادقاً. «لذلك سأقول لك طابت ليلتك ـ وأراك غداً في برشلونة».

«انتظر لحظة ـ هل قلت برشلونة؟»

«سأسافر إلى هناك بالطائرة، ثم أعود إلى نيويورك في ذات اليوم الذي ستسافرين فيه إلى بوينس آيرس».

ارتسمت على وجهي علائم الدهشة، لأن ابتسامة واثقة ارتسمت على وجهه. «أخبرتني سوزان أنه يوجد عرض فلامنغو في برشلونة بعد يومين. لعلي أستطيع أن أحجز مقاعد في الصف الأمامي».

لم أقل شيئاً، بل أخرجت مفاتيحي وفتحت الباب، ثم أغلقته بقوة.

«هل أنت على ما يرام؟» صاح، وقرع الباب. فتحته فجأة. كان لا يزال يبتسم.

بغتة استجمعت شجاعتي، وابتسمت له وقلت: «لا أعرف إن كانت فكرتك هذه جميلة، لكني أعرف أنه يوجد الكثير من الرجال الأنانيين من أمثالك وليس لهم قيمة. هذا جنون. طابت ليلتك!» أغلقت الباب خلفي، هذه المرّة صفقته بقوة.

٢٣

في برشلونة

لذلك أظن أنني عازبة.

ليز وينستون

برشلونة ـ الصيف

دارت الطائرة دورة أخرى في السماء. كانت سوزان تجلس إلى جانبي، وكنا نتصفح بعض الصحف من مدريد. قالت سوزان إن النقاد تحدثوا عن الكتاب بإيجابية. سألتها فجأة: «لا أحد يعرف في أيّ فندق سأقيم في برشلونة، أليس كذلك؟»

بدت عليها الحيرة قليلاً وكأنها لم تفهم قصدي، ثم صدر عنها صوت «آه. تقصدين. . .؟» تحاشيت نظرتها، ثم أضافت: «فليهدأ بالك. فلا أحد يعرف في أيّ فندق ستمكثين، بل إنك مسجلة باسم مستعار».

سادت لحظة صمت. «الحقيقة أنني لا أعرف. . .» بدت منزعجة قليلاً.

قلت بسرعة: «لا داعي للقلق». ابتسمت، وخفضت رأسي وتابعت النظر إلى صورتي في الصحف ـ فقد كان هذا الجزء الوحيد الذي كان باستطاعتي أن أفهمه في الصحف الإسبانية.

قررت أن لا أبالي إن رأيت السيد «أنيق» أم لا. فقد كان مجرد

شاب أفسده المال والنساء، لاعب كبير يعرف كيف يدخل السرور إلى قلوب الناس حوله ويتلاعب بهم. أما الآن فكلّ ما كنت أريد أن أفعله هو أن أسافر إلى بوينس آيرس لأكون مع موجو.

نقرت سوزان بطرف أصابعها على كتفي وأشارت إلى البحر الممتد والمدينة البيضاء النقية تحت الطائرة. «انظري، لقد وصلنا».

كان الناس في برشلونة مضيافين، وكانت لغتهم الإسبانية تبدو وكأنها أغنية.

خلال استراحة لمدة نصف ساعة، تسللت إلى المركز التجاري في الفندق وجلست في غرفة الإنترنت لأرى بريدي الإلكتروني.

كان هناك عدد كبير من الرسائل في صندوق بريدي. نقرت على رسالة موجو أولاً. كانت قصيرة وبدأت كالعادة بالطقس:

بلغت درجة الحرارة في نيويورك ٩٠ درجة فهرنهايت، وارتدى الناس على الفور ثيابهم الصيفية. لقد تغيّر كلّ شيء. فقد أصبح المكتب الآن في حالة من الفوضى. يجب أن أتحلى بالصبر. لا يمكنني إلا أن أعالج الأمور أمراً إثر أمر. كيف حالك؟ لا تقلقي كثيراً إن كنت تنامين كثيراً أم لا، فنوعية النوم هي المهمة. أفضل شيء هو أن تنامي بعمق. اشتقت إليك. أراك قريباً في بوينس آيرس! م.

أخذت رشفة من شاي الأقحوان، ورحت أحدّق صامتة في الأشجار التي تشبه مظلات خضراء خارج النافذة. كان الإسبان يقودون دراجاتهم البخارية الصغيرة ذهاباً وإياباً في الشارع. وفي ضياء الشمس، أحسست بنكهة الأرض الأجنبية المسترخية البهيجة.

ألقيت نظرة أخرى إلى رسالة موجو. كان يبدو أن هذا الأمر أصبح عادة لديّ. فقد كنت دائماً أقرأ رسائله عدة مرات. كنت كأنني أدقق

الاسم والعنوان على المغلف قبل أن أضعه في صندوق البريد. كاد ذلك يصبح نوعاً من الهوس. كنت أشعر دائماً بالقلق من أني سأفتقد شيئاً. وكان عليّ أن أؤكّد أن كلّ شيء يسير على النحو الذي كنت أريده، في جميع المجالات بدءاً من العلاقات الرومانسية وحتى المغلفات التي تحتوي على فاتورة الكهرباء الشهرية.

إن قراءة رسالة موجو ثبتت لي فكرة بدأت تراودني كثيراً في الآونة الأخيرة. فقد كنا مثل زوج وزوجة عجوزين، بعد أن اجتزنا طبقة العاطفة والشهوة وسقطنا في سرير الموّدة الأسرية، وبدأ الطقس والنوم والطعام يتردد على نحو متزايد في أحاديثنا.

لم يكن ذلك بالضرورة أمراً سيئاً. لكن المشكلة هي أننا لم نصبح زوج وزوجة بعد، ناهيك عن زوج وزوجة عجوزين.

فعندما يشعر الحبيبان بأنهما مثل زوج وزوجة عجوزين هكذا، فثمة نتيجتان محتملتان. الأولى أنهما أخذا ينفصلان ببطء، وهو أشبه بالشفاء من مرض مزمن. والآخر أنهما يجب أن يتزوجا بسرعة، ويقفزا إلى مصيرهما المجهول في وسط انفجارات الألعاب النارية الصينية التي تصدر فرقعات كثيرة.

عندما وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة، لم يكن بوسعي إلا أن أهزّ رأسي. فأنا لا أتوقف عن التفكير. فإذا لم أتزوج في حياتي، فلا شك أن مردّ ذلك إلى أني أفكّر كثيراً. وإذا كان جسدي حديقة سرية تجذب الرجال للكشف عن الرغبة، فإن متاهة عقلي التي تشبه الشبكة تكفي لإخفائها ثانية. وهذا ليس بالشيء الجيد. وحسب نظرية طبية صينية، قد يؤثّر التفكير الكثير حتى على نوعية شعرك.

أخذت رشفة أخرى من شاي الأقحوان، وأشحت بنظري عن جمال الشارع الذي تنيره أشعة الشمس خارج النافذة، وأدركت أنه لم يتبق

الكثير من الاستراحة التي لم تتجاوز مدة نصف ساعة. لذلك رحت أتصفح الرسائل التي أرسلها لي أبي وإكسير بسرعة.

أخبرني أبي أنه عُيّن أستاذاً زائراً لمدة ستة أشهر في كلية التاريخ في جامعة سنغافورة الوطنية وأنه سيغادر بعد شهر ونصف الشهر، وأن أمّي سترافقه. وقال إن الحذاء الذي أرسلته مع ابنة خالتي زو شا من نيويورك إلى أمي كان على مقاس قدمها وأن مقاس حذاءه ملائم تماماً، ومع ذلك، اشتكى أن كعب الحذاء واطئ قليلاً. إذ لم يكن أبي طويلاً، وأن انتعال حذاء بكعب مرتفع قليلاً كان يجعله يشعر بأنه في حال أفضل بكثير.

عندما قرأت ذلك ابتسمت. فكلما كبر أبي في السن، بدأ يولي صورته الخارجية مزيداً من الاهتمام. فمنذ أن ظهرت شعرات بيضاء في رأسه، بدأ يطلب من أمّي أن تصبغ له شعره باللون الأسود كلّ شهر. وكان عنده أكثر من أربعين ربطة عنق، وأكثر من عشرين زوجاً من الأحذية، لكنه لم يدخّن إلا نوعاً واحداً من السيجار ـ ماركة «التاج الإمبراطوري» المصنوع في الصين.

«يجب أن تضاعفي من حذرك عندما تسيرين وحدك في مكان غريب. يمكنك أن تشتري عدداً أقل من الأحذية، لكن لا تقتصدي أبداً عندما تتناولين الطعام خارج البيت. إذا كان بوسعك أن تفعلي ذلك فانفقي النقود على الطعام، إن ذلك أفضل شيء تفعلينه».

في نهاية الرسالة، لم يستطع إلا أن ينقل لي فلسفة شخص ذوّاق في الطعام.

أما رسالة إكسير فكانت أطول رسالة، ذكرت فيها تفاصيل لا نهاية لها عن آخر ما جرى من تطورات: فقد أصبح مطعمها واحداً من أهم المطاعم في شنغهاي، وكان الناس يصطفون أمامه، وهو يدرّ مالاً كثيراً

يوماً بعد يوم، لكن عدد العشاق بدأ يتناقص في سريرها؛ لقد كانت غنية، لكنها حزينة وبدون حبيب، وتشعر بأن حياتها أصبحت مثل لازمة تتردد يومياً.

«متى ستعودين؟ إن لم تعودي فإني سأموت. لقد أضحت شنغهاي مملة للغاية الآن. وجميع الأجانب الذين يأتون إليها ليسوا مفلسين فقط، بل مخادعين أيضاً، ودعينا لا نتحدّث عن كم هم مثيرون للملل. إنهم أسوأ مما كانوا منذ سنوات قليلة، في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد، عندما أصيب جميع الناس بمرض يدعى م.ك.ن. (ويعني الموت والاكتئاب والانحطاط) وكانوا مجانين وساذجين.

أما الآن فقد أصبح الناس عمليين للغاية. وأضحى جمع المال هو كلّ ما يفكّرون به ثم النوم مع فتاة بدون مقابل، ثم كسب مزيد من المال. إنهم يأتون إلى شنغهاي لكسب المال. فقد سمعوا أن شنغهاي آخر مكان متبق في العالم لا تزال توجد فيها فرص للثراء بين عشية وضحاها. «أخر منطقة عذراء» كما قال لي أحد الأجانب البارحة.

أه، تذكرت... هناك أخبار صغيرة كثيرة: فبعد أن فقدت «لي» عملها في حانة بوذا، ذهبت إلى حانة البرلمان التي أعاد افتتاحها شخص من تايوان، وفي النهاية طردت مرة أخرى. وقد ألقت الشرطة القبض عليها مؤخراً، لأنها باعت مخدرات للزبائن كما سمعت. وقد غادر شنغهاي أندي سميث، مهندس الديكور الداخلي البريطاني؛ وقد سمعت أنه أصيب بالإيدز. كما أن غيغي سيتزوج. فقد تلقيت بطاقة دعوة واسمك فيها، يبدو أنه لا يعرف أنك لست في شنغهاي. سأذهب إلى حفل الزفاف وأتفرج ثم سأخبرك كيف تبدو زوجته. ابق رطبة دائماً!»

عندما غادرت غرفة الإنترنت، رحت أفكّر بالرسائل التي تلقيتها.

كان عقلي يدور في دوامة وكأن باباً قد فتح في دماغي، وطار نصف وعيي إلى شنغهاي، أما النصف الآخر فقد كان مع موجو، وكان الربع المتبقي لا يزال في برشلونة، أجيب عن الأسئلة بابتسامة، أقف أمام الكاميرات لالتقاط الصور، وأواظب على العمل بلا كلل.

كان غيغي الذي ذكرته إكسير في نهاية رسالتها هو غي فيهونغ، الذي كان شاباً ناجحاً جمع الكثير من المال في تجارة الأسهم الدولية الآجلة. وكان يعمل غالباً عندما يكون الناس نياماً وينام أو ينفق مبالغ ضخمة من المال عندما يكون الناس في أعمالهم. وقد اختير ذات مرّة واحداً من «العشرة الأوائل من الشباب البارزين» في شنغهاي، إلا أنه بسبب عجرفته والتبذير والإسراف في أسلوب حياته، لم يحظ ثانية بأيّ تقدير رسمي. لكن اسمه كان يظهر كثيراً في العناوين البارزة في المجلات الشعبية المشهورة، وكان اسمه يتردد دائماً في قوائم مثل «ال ٥٠ عازباً ماسياً في البر الصيني».

وكنا قد ذهبنا إلى المدرسة المتوسطة نفسها، وكان يكبرني بأربع سنوات. وعندما اختير واحداً من الشبان «العشرة الأوائل البارزين في شنغهاي»، أصبح خطيبي أيضاً وعشنا معاً، إلى أن اكتشفت في صباح أحد الأيام بعد أن عشنا معاً بضع شهور، في صندوق البريد قرص سي دي في مغلف كتب اسمه عليه. وعندما رآه غيغي تغيرت تعابير وجهه كثيراً، واعترف بصلته بإحدى العصابات. وسرعان ما اختفى على نحو غامض مدة شهر، وعدت أنا إلى شقّتي.

في ذلك الوقت، لم يكن ثمة شيء يسير بيسر وسهولة. فقد كنت قد وصلت إلى طريق مسدود في كتابتي، وفي مساء أحد الأيام، بعد أن كانت تقع كارثة إثر أخرى، حاولت أن أقطع شرايين رسغيّ. لم يكن

الأمر مؤلماً فقط بل مرعباً أيضاً ـ ولم يكن شيئاً مسلياً على الإطلاق. وبعد أن بدأ الدم يسيل من رسغي، اتصلت بفتى كان يحبني سراً منذ سنوات فهرع إلى شقتي وأنقذ حياتي. كان ذلك منذ خمس سنوات فقط، لكني أشعر وكأن ذلك حدث منذ خمسين سنة. لقد اصفرّت بقع الدم في الحمّام، وأصبح وجهي مغبشاً في الصور، وها هو خطيبي السابق سيتزوّج أخيراً. لم أكن سعيدة ولا حزينة من أجله. فلم يكن يهمني ذلك البتة. ولم أتمكن من أن أمنع نفسي عن التفكير بتلك الذكريات الذاوية، أفكّر بتلك الفتاة التي انهارت مثل طير يموت في الحمّام في تلك الليلة الفظيعة. سرت قشعريرة في جسدي.

في مساء ذلك اليوم، رفضت دعوة سوزان ذات النوايا الحسنة بلباقة ولم أخرج للعشاء. وبقيت في الفندق وطلبت قسم خدمة الغرف. ثم شاهدت محطة البي بي سي قليلاً لأحصل على نكهة اللغة الإنجليزية باللهجة البريطانية. إن التحدث بهذه اللهجة الإنكليزية يبدو وكأنك تضع بيضة خفية في فمك ويجب أن تحرص على ألا تكسرها. إن عيبها الوحيد أنها تجعلك تبدو راقياً.

بعد نصف ساعة في الحمّام، ثم نصف ساعة وأنا جالسة وساقاي متصالبتان أمارس رياضة التأمل التي علّمني إياها موجو.

لا أعرف لماذا، لكن في وسط هذا النوع من التأمل كنت أُستثار جنسياً دائماً ـ وكان ذلك يستمر لبضع ثوان فقط. فبعد أن يسترخي الجسد كله، وتعود طاقتك إلى نشاطها، فإنها تنتقل آنيا إلى داخل جسمك، وعندما تصل إلى المنطقة الجنسية الحساسة، فإنك تشعرين بذلك الشيء الذي يطلق عليه الناس «مغرٍ جنسياً».

بعد أن تناولت بعض الحبوب المنومّة، استلقيت في السرير

واتصلت بموجو. كان كلّ ما سمعته تسجيل صوته على الهاتف. يبدو أن المشاكل في المكتب كانت لا تزال تشغله.

أطفأت الضوء عند طرف السرير، واضطجعت على الفراش الناعم الطري ويدي اليسرى فوق سرتي، ويدي اليمنى تقبض ثديي الأيسر. كانت هذه الوضعية تريحني جداً. وبدأت أعدّ الخراف ببطء كي أنام.

فجأة رنّ الهاتف. وبشكل غريزي بدأت أتعرّق قليلاً. «يا إلهي» صحت بصوت منخفض! ومددت يدي لأفصل خطّ الهاتف، ثم انقلبت على بطني، وواصلت عدّ الخراف. لا أعرف متى، لكن في نقطة ما تحوّلت الخراف إلى رجل يدعى نِك.

نِك واحد، نِك اثنان، نِك ثلاثة... لا توجد مشكلة. فقد تناولت حبة منومّة أخرى.

٢٤

مثل فيلم من أفلام هوليود

كلّ فتاة صغيرة تعرف أشياء عن الحبّ. ولا تزيده إلا قدرتها على المعاناة.

فرانسوا ساغان

في اليوم الذي كنت سأغادر فيه برشلونة، علمت أن كتابي يتصدر قائمة المبيعات في الأرجنتين، وحلّ قبل رواية «سيد الحلبة».

اتصل بي موجو وقال إنه ثبتّ حجزه إلى بوينس آيرس، وإنه سيصل بعد وصولي بيومين.

أوصلتني سوزان إلى المطار. واشترت لي علبة صغيرة من شرائح البرتقال المجفّفة المكسوة بالشوكولاته من محل صغير يدعى غوغو بالقرب من بيتها. «إني واثقة من أنك ستدمنين عليها. فالبرتقال المجفّف المغطس بالشوكولاته أفضل توليفة. ولا تباع هذه الشوكولاته إلا في محل واحد فقط في العالم كله وهو هذا المحلّ الصغير الذي يدعى غوغو بالقرب من بيتي». وانطلقت ضحكتها مثل فقاعات مشروب الصودا، تبقبق وتتصاعد إلى الأعلى... بالفعل لم أعد أقدر على فراقها.

«هل يمكنني أن أتناول قطعة منها الآن؟»

«طبعاً. فهي لك».

«شكراً».

فتحت غلاف العلبة وأخرجت قطعة لها ثم وضعت قطعة أخرى في فمي. مممم. كانت حقاً ألذّ شوكولاته أتذوقها في حياتي. فلم تكن الشوكولاته تكسو سوى نصف شريحة من البرتقال، لذلك يمتزج الشعور بذوبان الشوكولاته في فمك مع قوام شرائح البرتقال اللدن. قلت: «إنها لذيذة جداً».

قهقهت سوزان. قلت في نفسي إذا التقيت بفتيات مثلها دائماً، فإني أستطيع أن أجوب العالم دون أن أشعر بالوحدة، أو بالتعب على الإطلاق.

سلكت سيارة الأجرة إلى المطار طريقاً مختصراً عن طريق مبنى البلدية، إلا أن الطريق كان مسدوداً بواسطة حشد من المتظاهرين الفلسطينيين. وكان قد توقف عدد كبير نسبياً من السيارات هناك. ومما زاد الأمر سوءاً، وجود عدد كبير من رجال الشرطة يجوبون المكان.

«ماذا يفعل هؤلاء؟» سألت بعصبية.

«إنهم يحتجّون». بدا القلق على وجه سوزان أيضاً.

«على أي شيء يحتجّون؟»

«يصعب معرفة ذلك. ربما بسبب المشاكل في الشرق الأوسط».

قلت: «نعم، لا بد أن الأمر كذلك». كنت أعرف في قرارة نفسي بأننا، أنا وسوزان، لن نفهم تلك السياسة على الإطلاق، تلك الحروب ذات انفجارات التيستستيرون المتوحشة. لماذا الوضع في الشرق الأوسط في حالة غليان وعنف دائمة؟

«لدى البشر عادة ضارة في تصنيع المأساة»، قلت وأنا أقضم قطعة صغيرة أخرى من شريحة البرتقال المغطسة بالشوكولاته.

هزت سوزان رأسها وقالت بحزم: «لكننا لا نستطيع أن نتأخر على الطيارة»، وفتحت باب السيارة ونزلت إلى الشارع.

رحت أنظر إليها وهي تذرع المكان جيئة وذهاباً، تبحث عن حلّ. كان الوقت يمرّ وبدأ يعتريني القلق. كنت أكره أن تفوتني الطائرة وذلك الإحساس السيء الذي يعتريك عندما تشعر أنك عاجز عن عمل أي شيء، عندما تختلط مخططات سفرك. ربما كان لذلك علاقة بطالعي الفلكي. كنت أحبّ أن أخطط لكني لم أكن أحبّ أن تتحول خططي إلى فوضى.

سألت السائق إن كان بإمكانه أن يسلك طريقاً آخر، فقال سيلاً من الكلمات التي لم أفهم منها شيئاً، لكن لا بد أنه كان يقصد أنه لا يوجد أمل. فقد اصطف رتل طويل من السيارات أمام سيارتنا وخلفها، ولم يعد الرجوع إلى الوراء من الزقاق بالأمر السهل.

جاءت سوزان، وصاحت: «لا فائدة. يجب أن نأخذ سيارة أخرى!»

«موافقة، لكن كيف يمكننا أن نعثر على سيارة أجرة أخرى؟» قلت، وبدأت أخرج حقائبي بكلّ ما أوتيت من قوة من صندوق السيارة.

«لا تقلقي»، قالت سوزان وهي تفتح هاتفها الخليوي، وبدا القلق على وجهها. شققنا طريقنا بالقوة وخرجنا من الزقاق الصغير. أخذت سوزان تلعن بصوت مرتفع على الهاتف - فقد كانت خطوط عديدة مشغولة، أو أن أحداً لم يكن يجيب، وألمحت إلى أن الإسبان إما أنهم يتصلون جميعهم بعشيقاتهم الآن، أو أنهم مستلقون على الشاطئ يسمرّون أجسادهم. فمن المعروف أن هذا البلد رومانسي وعاطفي.

وقفنا إلى جانب الطريق نلوّح إلى كلّ سيارة تمرّ. ومثل مشهد سينمائي، توقفت أمامنا فجأة سيارة مرسيدس بنز سوداء.

أُنزل زجاج شباك السيارة ليظهر وجه باسم ساحر. «اصعدي، أيتها الطفلة!» وفتح الباب لامرأتين منذهلتين تقفان على جانب الطريق. «هيا أسرعا».

رجل يرتدي دائماً بدلات سوداء من ماركة أرماني في سيارة مرسيدس بنز سوداء، أكثر وسامة من جورج كلوني... رجل يظهر دائماً عندما وحيثما لا يتوقع أن يظهر. من يستطيع أن ينافس ذلك؟

ظل فمي مغلقاً. جلس إلى جانبي، راح نِك يمسد شعره السميك بيده، وتحدث قليلاً مع سوزان.

«يا لها من صدفة»، قالت سوزان.

«نعم، يا لها من صدفة»، قال نِك.

لم أكن أعرف أنك ذاهب إلى المطار أيضاً. كيف يمكن أن تحدث مثل هذه المصادفات؟» قالت سوزان.

«إنها العناية الإلهية» قال نِك.

ثم خيّم الهدوء في السيارة لوهلة. ولم يكن يسمع سوى صوت موسيقى الجاز المنبعث من المسجلة ينجرف في الهواء من حولنا.

«أوه، ما هذا؟» قال نِك، وكأنه يكتشف قارة جديدة عندما رأى بيدي علبة من شرائح البرتقال المكسوة بالشوكولاته.

لم أقل شيئاً، بل فتحت العلبة. هزّ كتفيه، ونظر إليّ وابتسم، ودون أن يفه بأي كلمة تناول قطعة ووضعها في فمه.

«ممممم!» هزّ رأسه وقال: «إنها لذيذة جداً».

ضحكت سوزان من كلّ قلبها، وضحكت أنا أيضاً، مع أني شعرت أنه لم يكن يجب عليّ أن أضحك. حينئذ، وبتلك الكهرباء الساكنة عندما قبلّ أحدنا الآخر في نيويورك، قال نِك ما قاله موجو: «إن

نيويورك جافة جدا!» والآن، ها هو يقول ما كنت قد قلته أنا: «لذيذة جداً»، تخيّل كيف أن احتمالية حدوث هذا النوع من المصادفات قليل جداً.

لم أتمالك نفسي إلا أن أتساءل إن كانت توجد علاقة ما تربط بين جميع هذه المصادفات. هناك نبوءة روحية شائعة تدّعي بأنّ جميع المصادفات تنطوي على منطق روحي أو باطني.

قبل أن نصل إلى المطار، كنا قد أجهزنا على علبة الشوكولاتة كلها، وعندما وصلنا، كنا نشعر جميعنا بالاسترخاء وبشيء من الراحة.

تعانقنا أنا وسوزان بحرارة، غير راغبتين في أن نفترق. وقد سار كلّ شيء في هذه الجولة الإسبانية القصيرة بيسر وسهولة، مع لحظات مأسوية قليلة على الطريق رسخت لديّ انطباعات دائمة.

ثم عانق نِك سوزان مودعاً، ومن قسمات وجه سوزان، كان بوسعك أن تعرف أنه كان حقاً زير نساء.

غادرت سوزان، وذهب كلّ منا إلى كاونتر مختلف. ثم أسرع نِك معي إلى البوابة. بدأ الركاب يصعدون إلى الطائرة. أعطاني بطاقة عمله بسرعة، ودوّن عليها جميع أرقام هواتفه الشخصية وعنوان بريد إلكتروني خاصّ لا تستطيع حتى سكرتيرته الخاصة أن تطلع عليه. وبعد أن تأكد أنه وضع في يدي كلّ سبل الاتصال المحتملة، أطلق تنهيدة بالارتياح.

قال: «لا أريد أن أدعك تذهبين، لكننا من المؤكد أننا سنرى بعضنا مرة أخرى. أعدك بذلك». لم أشكّ في كلماته ـ فإذا قال إنه سيراني مرة أخرى، فهذا يعني أنه سيراني.

فيما كنا على وشك أن نودع بعضنا، مال إليّ وطبع قبلة على خدي، وتردّد لنصف ثانية ثم قبّل شفتي.

كانت شفتاه حارتين وناعمتين، ورائحة نَفَسه حلوة. رائحة تجعلك تشعرين بالبلل على الفور.

غيّرت الطائرة في باريس. وخلال الرحلة الليلية من باريس إلى بوينس آيرس، وضعت سدادات في أذنيّ وعصبت عينيّ ونمت. ربما غططت في النوم لأنني كنت مرهقة، أو لأنني لم أعد أخشى رنين الهاتف، أو لأنني لم أعد أخشى أن يقرع أحدهم بابي بعد منتصف الليل.

في صباح اليوم التالي، وصلت إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي في بوينس آيرس، دون أن يمس عفافي أحد.

٢٥

شيء من الحبّ يتلاشى في بوينس آيرس

مهما كان سريرك كبيراً أو ناعماً أو دافئاً، يجب عليك أن تغادريه.

غرايس سليك

تذكّري فقط، أننا جُمعنا في هذا وحيدين.

ليلي توملين

إذا كنا نريد أن يبقى كلّ شيء على حاله، ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء.

جوسيبي دي لامبيدوسا، «النمر»

بوينس آيرس ـ الصيف

إن الشعب الأرجنتيني شعب مفعم بالحيوية وتملؤه مشاعر الوّد كما هو حال الشعب الإسباني. ورغم أنه يعاني من أزمة اقتصادية شديدة، فقد كان يبدي اللباقة المتأصلة فيه، ودفء شخصيته، وهو شعب يحبّ القراءة كثيراً. وفي ليلة باردة كئيبة، أثارت قراءة كتاب على ضوء مصباح صغير ذكريات قديمة في وسط الكارثة الاقتصادية. فأل جيد في وسط المأساة.

في هذه المدينة الرائعة، بسمائها الزرقاء الصافية الواسعة، وأشجارها

العملاقة، حيث ولد الكاتب العظيم بورخيس، أمضيت يومين حافلين بالعمل - في فندق ماريوت.

وقد أجريت جميع اللقاءات الصحفية في مقهى يقع في الطابق الأرضي من الفندق، وكنا نخرج في بعض الأحيان إلى الحديقة لالتقاط بعض الصور. كان الجوّ مفعماً بالحماس ومشحوناً بالصدق والعاطفة. وتبين لي أني لم أكن أستخدم رأسي في التواصل مع الناس من حولي، بل كنت أستخدم قلبي.

أسكرتني التعابير المتجهمة لكن المشعّة والمتألقة في وجوه الناس؛ وسحرتني الأشجار التي لا يمكن أن تجدها إلا في أمريكا الجنوبية؛ وأذهلتني الروائح الحالمة التي تملأ الهواء، وفتنتني الكنيسة بمروجها الفسيحة القريبة من جناحي في الفندق.

وعند الغروب، كنت أتخيّل ظلالاً على المروج، تمشي وترقص وتتكلم همساً. لعلها كانت أرواح خارجة من الكنيسة، أزعجتها الوحدة، وكانت تريد أحداً أن يكلمها، فأخذت تذرع المرج جيئة وذهاباً يملؤها الفضول خارج باب غرفة تلك الفتاة الصينية الشابة، فهي نادراً ما ترى صينيين هنا. وقد زعمت أجهزة الإعلام أنني أول كاتبة صينية تزور البلاد.

في صباح اليوم الثالث، كنت مستغرقة في حلم غريب عندما سمعت باب غرفتي يُفتح. ووجدت صعوبة في فتح عينيّ بسبب المهدئات التي ظلت أثارها في دماغي، مع أني عرفت أنه وصل.

مكث في غرفة الجلوس قليلاً، وأعطى عامل الفندق إكرامية، ثم سمعته يدخل إلى الحمّام. وبعد أن سمعت صوت طرطشة الماء، سمعت صوت الباب المفضي إلى غرفة النوم يُفتح. مشى ببطء وخفة

نحو السرير، انحنى فوقي وقبّلني. كانت رائحة نسيم الصباح في الخارج لا تزال عالقة بشفتيه، باردة قليلاً كالنعناع.

أبقيت عينيّ مغمضتين ومددت ذراعيّ لأضمه إليّ بقوة.

كان موجو قد أحضر عدّة علب من الشاي الأخضر الياباني لأهديها إلى المحرّر والمدقق اللغوي في دار النشر، ونحتفظ بعلبة منها لنحتسيها ونجلو رأسينا عندما نستيقظ في الصباح. في الواقع، فإن الشاي الأخضر الياباني والشاي الأخضر الصيني هما ذاتهما، مع أن اليابانيين يفضّلون طحن أوراق الشاي وجعلها مسحوقاً ناعماً.

فيما كنت مشغولة بلقاء الصحفيين في المقهى، راح موجو يتجول في شوارع وأزقة بوينس آيرس حاملاً حقيبة ظهره، وخريطة وآلة تصوير فيديو صغيرة.

وعندما هبط الليل، عاد وانزوى في ركن من المقهى يحتسي الشاي وينظر إليّ. كانت هذه أول مرة يراني فيها وأنا أعمل، وكنت أرى في عينيه نظرة إعجاب وافتخار.

بعد أن أنهيت عملي، انتقلت مجموعة منّا بالسيارة، ثم انطلقنا بمركب صغير إلى مطعم يقع على ضفة النهر لتناول طعام العشاء. وفي طريقنا عبرنا القسم الغني من المدينة، وأشارت لوسي، مرافقتنا، إلى قصر فاخر امتد على طول الشارع وقالت: «انظروا، هنا يقيم رئيس الجمهورية».

وأضاف آخر: «في الحقيقة رئيسنا مشغول دائماً في مكتبه فأصبح بلدنا في حالة من الفوضى التامة».

وصلنا إلى ضفة النهر وصعدنا إلى قارب. لا أتذكر اسم النهر، لكنه نهر مشهور لدى سكان بوينس آيرس. قالت لوسي إن الغابة الكثيفة

الممتدة على حافة النهر كانت تؤوي في الماضي الرجال المطلوبين للعدالة - خلال الفترة الثورية، الذين كان العديد منهم من الفنانين والكتّاب والشعراء الراديكاليين. وعندما ينفصل النهر تصبح المياه هائجة، وتنجرف في دوامة كما لو كانت عالماً منفصلاً، مكاناً مثالياً للانزواء.

جلسنا في المركب الصغير الذي انطلق بنا، ورحنا نحدّق بإمعان في حلكة الظلام في الأشجار الكثيفة والبيوت المتناثرة على كلا الضفتين ونحن نجتازها بصمت مطبق. وكان ثمة بدر يتربع السماء ويرصعّها. وكان ضوءه ينعكس على صفحة النهر الذي ينبعث من مويجاته خرير لطيف. وكان يخيّل إليك أنك تستطيع أن تمّد يدك وتلمسه. إن السماء في نصف الكرة الأرضية الجنوبي مشرقة وصافية.

وصل المركب إلى المطعم، وألقى مرساته فوق رصيف مرفأ خشبي بسيط، وتوقف هدير المحرّك.

كانت توجد في هذا المطعم الذي يدعى «كاليكو» قطة سمينة منقطة ونادلان. وكان أحد النادلين قصيراً وبديناً وأصلعاً وذا قسمات مسرحية. وكان أنفه العالي الأفطس يلفت النظر على الفور. كان يبدو مثل رسم كاريكاتيري. أما النادل الآخر فكان طويلاً جداً وأصلعاً أيضاً. وكان يبدو أنه يوجد جرح في وسط جبهته لأنه كان مغطى بضماد سميك، وكانت ترتسم على وجهه تعابير حزينة. ولا تتمالك إلا أن تتساءل عن العلاقة التي تربط بين هذين الشخصين المتباينين على نحو غريب.

كنا الزبائن الوحيدين في المطعم، واتخذنا أماكننا بالقرب من رصيف المرفأ الصغير في الهواء الطلق.

يبدو أن الجبن المقلي الذي يقدمونه في هذا المطعم هو الأفضل في بوينس آيرس، إلا أنه كان بالنسبة لي، أنا التي لم تكن أسناني مثالية،

مثل المطاط. أطعمت القطة المنقّطة حصتي منه، فابتلعته في ثوان معدودة. ولا عجب أنها سمينة إلى هذه الدرجة. وبدأ النادلان يحضران الصحن تلو الآخر، وبين الحين والآخر، كانا يهشّان القطة الجائمة بجانب مائدتنا وهي تلتهم طعامها.

كنا في أواخر الخريف. لذلك، عندما تجلس في الهواء الطلق في المساء، تهب عليك نسمات باردة خفيفة. إذ يتسلل النسيم الرطب الذي يهبّ من النهر بهدوء ويتغلغل داخل ثيابك، ويعلق بجلدك مثل ذاكرة بعيدة.

كان جميع من برفقتنا يدخنون. وكان موجو منهمكاً في مناقشة أحدهم عما يجري في البلد، أما أنا ولوسي فقد رحنا نتحدث عن سوزان في إسبانيا. فقد عاشت لوسي في مدريد عشر سنوات، وكانت هي وسوزان صديقتين منذ زمن بعيد.

كانت الريح الليلية تهبّ بشكل متقطّع خارقة الصمت. كنا نجلس إلى جانب النهر الذي كان يشبه الزمن ذاته. تمرّ أمامنا تياراته القوية، وتتدفق بهدوء حتى تمتزج بالمحيط، لكن شيئاً منه لم يكن يختفي. إنه الحياة، إنه الحب، إنه الأحلام.

أحبّ الجميع موجو. فقد مكنّته ابتسامته الدافئة وقلبه الكبير من أن يتخذ له أصدقاء في كلّ مكان يذهب إليه. إذ كان يعتبر أن العالم كلّه عائلة واحدة وأن كلّ شخص صديق محتمل. كان يذكّرني دائماً بذلك الفارس الضالّ في الشرق القديم الذي كان يمضي شاهراً سيفه حتى آخر بقعة من الكرة الأرضية؛ ذلك النوع من الرجال الذي كانت كلمته تساوي ألف قطعة ذهب، يمتطي أسرع حصان، ويحمل أمضى سيف، وعلى استعداد لأن يقطع رأسه هو لإنقاذ صديق؛ والذي يعتبر الأصدقاء أهم من النساء. وثمة حكاية صينية قديمة تروى قصة رجل قتل عشيقته

ليقدمها طعاماً لينقذ عدداً من أصدقائه الجائعين الذين حاصرهم العدو في مدينة نائية.

وكان موجو يرتدي دائماً أجمل الثياب وأكثرها عصرية، لكنه كان يخفي في داخلها روحاً قديمة، تقليدية، وكان ينظر إلى النساء وإلى أصدقائه وإلى كلّ شيء في العالم من خلال المواقف التقليدية التي مضت عليها قرون أو آلاف السنين. وكان وجوده مزيجاً من الزمن والطين. فضولي كالنمر يشقّ طريقه في الغابة الحضرية المعاصرة، يكتشف أن طفولة البشر البهيجة قد وصلت إلى نهايتها منذ أمد بعيد.

في صباح اليوم التالي، جلسنا على العشب خارج الفندق نحتسي الشاي الياباني، ونقرأ صحيفة باللغة الإنكليزية كانت قد وصلتنا في وقت مبكر. وفي الباب الثالث من الصحيفة تقرير عن الأزمة الاقتصادية في الأرجنتين، ذكر أن البارحة كان أول يوم منذ شهر كامل تمكن فيه الأرجنتينيون من سحب قدر من المال من المصارف التي فتحت أبوابها ثانية. وكانت قد اصطفت طوابير طويلة على نحو مرعب خارج الكثير منها. وذكر أنه عندما أغلقت المصارف أبوابها في الساعة المحددة، أُكتشفت جثث ثلاثة أشخاص مسنين ماتوا بسبب الجوع والوهن أثناء انتظارهم.

فقد كان البيزو يساوي ذات يوم دولاراً أمريكياً واحداً، أما الآن فهو يساوي خمسة وثلاثين سنتاً. قالت لنا لوسي: «لقد حان الوقت التسوق في الأرجنتين الآن». كان فندق ماريوت مليئاً بالسيّاح القادمين من المكسيك وأمريكا لانتهاز هذه الفرصة؛ ربما كان الأرجنتينيون بحاجة إلى دخل، لكنك كأجنبي كان بوسعك أن تشم في الهواء دائماً رائحة آثار الخراب والمأساة. ولا تستطيع إلا أن تبدي أسفك.

بعد أن أخرج نادل من الفندق عربة الفطور فوق العشب، وقبل إكرامية وغادر، ناقشنا أنا وموجو قليلاً مسألة مبدأ.

باغتني موجو بقوله: «لماذا نظرت إلى النادل بهذه الطريقة؟»

أنزلت قطعة الخبز المحمّص التي كنت أمسكها بيدي وأنا مندهشة للغاية. «ماذا تقصد؟»

أخذ موجو رشفة من الشاي وقال: «ربما لم تدركي ذلك، لكنك نظرت إليه لوهلة نظرة تنم عن الغطرسة».

كدت أبصق قطعة الخبز التي كنت ألوكها من فمي. قلت له: «لا أعرف عما تتكلم»، وقد ارتعش صوتي وكورّت قبضتيّ لأمنعهما من الإمساك بأي شئ يقع في متناول يدي وألقي به.

تحاشى موجو نظراتي، وقطع شريحة من لحم الخنزير ووضعها في صحني، وقال: «صدقاً لقد شعرت بذلك، وإني أشعر بذلك منذ فترة من الزمن، ومن الأفضل أن أصارحك بذلك. ربما كنت صريحاً أكثر من اللازم. أنا آسف».

وضعت منديلي على الطاولة، نهضت، وصعدت إلى غرفتنا.

غسلت وجهي بماء بارد، وعندما نظرت في المرآة، أحسست فجأة بشيء ينهار في داخلي، ليس بشكل كليّ، مثل الانهيار الاقتصادي الذي لحق بالبلد. كانت هذه هي أول مرّة ينتقدني فيها موجو بهذه الطريقة المباشرة، وبطريقة تخلو من اللباقة إلى حد لا يمكن تصوّره. وكان الجرح الحقيقي الذي أحدثه ليّ عندما قال إنه يشعر بذلك منذ مدة من الزمن. لقد جعلني ذلك أخجل من نفسي. لماذا لم أعرف ذلك منذ فترة؟ أعدت تمثيل ابتسامتي إلى النادل عدة مرات، وأنا أقول له شكراً،

وأمنحه إكرامية، لكني كنت لا أزال لا أفهم ما الذي فعلته لكي يحكم عليّ موجو بهذه القسوة.

كرهت الطريقة التي قال فيها أنا آسف. ففي كلّ مرّة يقول فيها إنه آسف كان يجعلني أشعر بوجود مسافة مستحيلة بيننا. فلم يكن يبدو أنه يعتذر حقاً، بل كان يعتذر عن الأشياء التي لم يكن يبدو أنها صحيحة تماماً. كنت أشعر أنه رجل مثالي، أما هذه المرّة فقد أحسست بأني يائسة وساخطة منه. من الناحية العملية كان رجلاً مثالياً، لكنه في الواقع كان هو الذي يمارس حظوة الكبرياء أمامي. إذ يمكنك أن تقول لامرأة: «إنك لا تحبينني كثيراً»، لكنك لا تستطيع أن تقول لها: «إنك متغطرسة بلا داع تجاه الآخرين قليلاً». فالآلهة فقط هي التي يمكنها أن تتحمل نبرة الصوت تلك.

أم كان ذلك خطأي؟ لأني كنت دائماً أحترم صدقه وكنت أراه كإله، أراه كقوة تستطيع أن تساعدني.

بدلّت ثيابي ونزلت إلى المقهى. ظل موجو على المرج ليلتقي بمعلّم اللغة الإسبانية الذي أوصى به بعض الأصدقاء الأرجنتينيين.

كان رأسي يؤلمني بسبب اللقاءات الصباحية مع الصحفيين. وكنت غالباً أنسى السؤال الذي يطرح عليّ وأنا في منتصف ردي.

كانت لديّ ثلاث ساعات حرّة بعد الظهر، لكن كان عليّ أن ألقي محاضرة في تلك الليلة أمام جمهور مؤلف من ثلاثة آلاف شخص في معرض الكتاب الدولي في بوينس آيرس.

وكنوع من الاعتذار لأنه كدّرني بعض الشيء في الصباح، طلب موجو سيارة لتنقلنا إلى أحد المطاعم الذي أوصى به عدد من الأصدقاء بالقرب من الميناء لتناول طعام الغداء خلال فترة بعد الظهر الحرّة.

ولسوء الحظ أضاع السائق الطريق، وأخذ ينعطف من هذا الطريق أو ذاك في الشوارع والأزقة، حتى ضاعت منا ساعة كاملة تقريباً. ولم يكن السائق يعرف الإنكليزية وبدا متوتراً. وحاول موجو الذي أخفى قلقه، أن يوّجه السائق مستخدماً خريطة، ولم تكن توجد أي وسيلة للتواصل باللغة الإسبانية تقريباً.

كنت أحدّق خارج النافذة. وعندما مرّت السيارة في أحد الأحياء الفقيرة، رأيت فتياناً يرتدون أسمالاً بالية ويلعبون كرة القدم في أرض فضاء. يبدو أن مارادونا كان أملهم الوحيد ليخرجوا من هذا الحيّ الفقير.

قدنا السيارة قرابة نصف ساعة أخرى، ولم نجد المطعم الذي اختاره موجو. فجأة قلت للسائق: «آسفة، أرجو أن تتوقّف هنا». وبما أنه لم يفهم لغتي الإنكليزية، حاولت أن أفهمه بالإيماءات.

توقّفت السيارة أمام مطعم بدا نظيفاً لكن رثاً. وكان السيّاح يمرون في الشارع. وفي مكان ليس ببعيد، كان هناك شاب وصبيّة يرتديان ثياباً جميلة ويرقصان التانغو تحت الشمس. كانت الفتاة جميلة، ساقاها طويلتان، ولها مؤخرة مرتفعة، ونهدان شهوانيان. كان جسدها متناسقاً في كلّ شيء. لو كانت في شنغهاي، لاستطاعت أن ترقص في أفضل النوادي الاجتماعية، أو لتزوّجت رجلاً ثرياً. وعندما انتهت الرقصة ومدّ الرجل قبعته يطلب أن يضع الناس فيها بعض النقود، تبدد الحشد.

جلست صامتة بكآبة.

قال موجو فجأة: «ألم تلاحظي؟ لقد كنت الآن متغطرسة مع السائق!» عندما قال ذلك بدا في عينيه تعبير صادق، لكنه مرتبك.

أجهشت في البكاء. أخفيت وجهي وراء قبعة الشانيل ونظاراتي

الشمسية الكبيرة من ماركة أرماني، وتبلل خدايّ بالدموع وتلاشى تقديري لذاتي.

أضاءت أشعة الشمس الصيفية الحارة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي الشارع المزدحم. جلست بهدوء في ضوء الشمس وأنا أشعر بأني جرحت وأسيء إليّ. حاول موجو أن يتكلم بلطف. «لا تبك يا حبيبتي. دعينا نتناول شيئاً الآن وإلا تأخرنا على محاضرتك. سنتحدث عن بعض الأشياء لاحقاً».

لم أقل شيئاً. كنت أشبه برجل من الثلج يذوب ببطء ويتلاشى رويداً رويداً في الشمس.

ضمني موجو إليه، وأخذ يقبّلني ويشجعني ويواسيني، وقد أسرف في الاعتذار، لكن بدون جدوى. انتابني شعور بالخوف والحزن. أحسست بأنّ الحبّ يغادرني ولم تعد لديّ القوّة على التشبث به.

كان عصر ذلك اليوم أكثر الأوقات خواء وكآبة. في عصر ذلك اليوم، حذرتني الآلهة بأن شخصاً يحبّك بصدق ويدللك ـ حتى لو كان شخصاً قريباً من الكمال، حكيماً ودافئاً ـ سيصبح في وقت ما جحيمك، عدوك القاتل. لا يوجد أحد مثالي في هذه الحياة، وبما أننا مجرد بشر ولسنا آلهة، فلا بد أننا سنتعرض للأذى ولسوء الفهم والظلم.

لم أتناول شيئاً وأسرعت إلى معرض الكتاب ووصلت قبل خمس دقائق تقريباً من بدء المحاضرة. كان القلق ينهش لوسي والآخرين. لم أتذكّر ماذا قلت إلى ذلك الحشد المؤلف من ثلاثة آلاف شخص. لم أكد ألحظ أنه كان يوجد عند حافة الصف الأمامي شكل مألوف يوّجه عليّ آلة تصوير الفيديو الصغيرة. كانت إحدى أصابع يده اليسرى مبتورة. كان يحبنّي حقاً، لكنه كان يجرحني أحياناً دون قصد منه. كنت أحبّه، لكني لم أكن أفهمه على الإطلاق في بعض الأحيان.

في آخر يوم لنا في بوينس آيرس، ذهبنا إلى ملعب كرة القدم لنتفرج على إحدى المباريات. كان هناك بحر هائج من البشر يلوّحون ويهتفون. ربما كان ذلك الشيء الحيوي الوحيد الذي بقي في تلك البلاد.

ثم توجهنا إلى أفضل محلّ كبير في بوينس آيرس. استرحت في المقهى في الطابق الأرضي، فيما راح موجو يتنقل بين المحلات. عاد وهو يحمل سبعة أو ثمانية أكياس في يديه، وينتعل حذاء جديداً ويرتدي بدلة جديدة.

أعطاني الأكياس الأصغر حجماً. قال: «هذه لك». كان في داخل الكيس كيس أصغر، وفي داخل الكيس الأصغر علبة صغيرة. عندما نظرت في داخلها، رأيت فيها قرطين من الياقوت وعقداً ذهبياً أبيض فيه ياقوتة على شكل قلب.

كانت تتلألأ بضوء عميق وحسّاس. كان اللون الأحمر جميلاً مثل نقطة دم العذراء. نظرت إليه وقلت: «شكراً».

قال: «لقد تعبت. إنك تستحقينها».

أوصلتنا لوسي إلى المطار. طارت الطائرة في الموعد المحدد، وكنا قبل أن نغادر قد نظّفنا جيوبنا وحقائبنا، وأنفقنا كلّ ما لدينا من بيزوات في مخازن المطار. اشترينا علبتين من الشاي الأرجنتيني المرّ، وعلبة من العلكة.

ولما لم يتبق معنا سوى دولارات أمريكية، عدنا إلى الولايات المتحدة.

٢٦

الأريج المغلّف بضياء الشمس

إنك تشم رائحة الزهرة، لكنك لا تعرف أنها تتضوع مني.

رابندرانات طاغور

جزيرة بوتوو ـ الخريف

بدأ سيد الطبيعة الفارغة يتماثل إلى الشفاء رويداً رويداً.

لكنه كان لا يزال يتناول قدراً يسيراً من الطعام، ولم يكن يتناول شيئاً بعد الظهر وفق الشريعة البوذية. ولم يكن يتناول سوى طعام الفطور والغداء. ففي الصباح، لم يكن يتناول سوى زبدية من عصيدة الرزّ بدون خضراوات. وبعد الظهر، كان يتناول وجبة من الرزّ والخضراوات المكوّنة من التوفو مع قليل من السلق والبازلاء والفطر، لكن بدون لحم أو سمك. هاتان الوجبتان فقط كلّ يوم.

وفي عصر يوم مشمس، رافقت السيد الذي دخل في فترة النقاهة في جولة في حدائق معبد المطر الورع.

عندما مررنا بالقرب من شجرة بو ـ تي أمام قاعة غوانين، كانت بعض الطيور تغرد بشكل جميل فوق أغصان الأشجار وكأن تغريدها معزوفات تنبعث من آلة القانون الصيني.

سألته: «أيها السيد، هل تسمع تغريد الطيور؟»

«نعم». هزّ السيد رأسه، ورفع رأسه لينظر إلى أغصان الشجرة.

طارت عدّة طيور صغيرة من بين أغصان الشجرة ذات الأوراق الكثيفة، وهي تصفق بأجنحتها واختفت عن أبصارنا.

ثم سألني السيد: «هلّ تستطيعين الآن أن تسمعي تغريد الطيور؟»

لوهلة لم أعرف كيف أجيبه. كنت أعرف بالغريزة أنني لا أستطيع أن أقول «لا»، رغم أن الواقع كان ذلك، لأن السيد كان يقصد في سؤاله شيئاً آخر تماماً.

استدار السيد وواصل سيره. مشيت وراءه وأنا أراقب ظلّ السيد وظليّ يتحركان ببطء تحت ضياء الشمس، ظلّ في الأمام، وظلّ في الخلف.

«أنا آسفة. لم أفهم ما تقصده»، قلت أخيراً.

ارتسمت على وجه السيد ابتسامة، وقال: «لكن أليس اسمك البوذي الحكمة!»

انفجرت في الضحك، وقلت: «هذا لأني أفتقر إلى الحكمة».

قال السيد، ذو الفودين الأبيضين بياض الثلج: «لقد خُلقت الأصوات مثل التراب وهي تتلاشى مثل التراب. فالقدرة على السمع لم تُخلق عندما خُلق الصوت، وهي لا تتلاشى عندما يتلاشى الصوت. إن البصيرة الحقيقية تتجاهل قدوم الصوت أو ذهابه».

توقّفت، صفقت قليلاً وقلت: «لقد فهمت».

لكن يبدو أن السيد لم يسمع. تابع خطواته إلى الأمام. رحت أتبعه بسرعة، واتكأ على يدي عندما بدأ يصعد الدرج.

رأيت التلميذ البوذي الشاب هوي غوانغ يندفع مسرعاً في ممر على أحد الجانبين. وعندما ذهبت لأنظر، رأيت طبقة من الورق قد مدت على المقاعد الحجرية، وفرشت فوقها باقة من أزهار الأقحوان البرّي

التي اقتطفت حديثاً. كان هوي غوانغ مطرقاً برأسه وكان يستخدم قصبة الخيزران بتركيز شديد ليفرش أزهار الأقحوان بانتظام كي تصلها جميعها أشعة الشمس.

«أيها السيد، لقد أتيت!» نظر هوي غوانغ إلى الأعلى ورآنا. استوى واقفاً بسرعة.

ربتّ سيد الطبيعة الفارغة على كتفه وقال: «لقد عانيت الكثير كي تتذكر، ونحصل على الأزهار بهذه السرعة».

«كما يجب على تلميذك أن يفعل»، قال هوي غوانغ ويداه مطبقتان أمامه بإحكام.

أشار السيد إلى المقعد الحجري الآخر وقال لي: «لماذا لا تستريحين هنا قليلاً».

وبابتسامة قال لهوي غوانغ: «دعنا نلعب «غو».

«سيذهب تلميذك في الحال ليحضر أحجار اللعبة والشاي». وعلى الفور انطلق هوي غوانغ.

بعد قليل بدأ السيد وهوي غوانغ يرتبان لوحة «غو»، ثم بدأا يلعبان ويحتسيان الشاي. وقفت جانباً ورحت أراقب المعركة، وكنت أقلّب أحياناً أزهار الأقحوان فوق المقعد الحجري، إذ يجب أن تصل أشعة الشمس إلى البتلات الحسّاسة الجميلة جميعها. وعندما يجف الأقحوان البرّي تحت الشمس، يوضع في كيس قطني ليصبح وسادة معطّرة من الأقحوان للسيد. فلا بد أن النوم على وسادة كهذه يجعل أذنِك وعينِك أكثر صفاء وحدّة، ويبعد عنك الحرارة والرطوبة الضارتين. وكان سيد الطبيعة الفارغة قد تحدث ليلة البارحة عن فوائد هذه الوسادة، ولم

يتوقع أن الراهب الشاب هوي غوانغ سيتذكّر ذلك وينهض مبكراً ليذهب في الصباح إلى الجبال ويقطف أزهار الأقحوان.

التفت لأرى هوي غوانغ يلاعب السيد، وقد ارتسمت تعابير جادة على وجهه الصغير. كان الرهبان التلاميذ الشبان في المعبد مثل ثمرة التفاح التي لم تثقبها الديدان، لا تزال روحهم نقية بشكل لا مثيل له.

أذكر أني سألته ذات مرّة: «هل فكّرت ماذا تريد أن تكون؟»

فقال: «أريد ان أكون مثل سيد الطبيعة الفارغة».

جلست مع الراهبين، أحدهما عجوز، والآخر شاب، لفترة طويلة، وأنا أشمّ ذلك العبير الذي يهبّ علينا برقة ويتسرب على الفور إلى قلبي. لم يكن ذلك عبير الأقحوان البرّي المجفف في الشمس فحسب، بل كان كذلك الشذى الذي يتضوع من الرجل الذي عاش مائة سنة ومن الشاب الذي كان لا يزال يمتلك براءة الطفولة في روح زهرة.

دُوِّن في الكتب المقدسة البوذية أن العطر يعبق من أجساد الذين يمارسون البوذية.

٢٧
عندما غادرت نيويورك، وغادرته

يجب أن تكوني مغرمة جداً بالرجال.
مغرمة جداً. يجب أن تكوني مولعة جداً بهم لكي تحبيهم.
وإلا فإنهم لا يطاقون.

مارغريت دوراس

اذهب، لقد حان وقت الذهاب.

لاو تزه

نيويورك ـ الصيف

ألقت أشجار الحور الخضراء ظلالاً هادئة، وكانت الشوارع والبنايات متألقة ومشعة تحت أشعة الشمس. كانت تباشير الصيف المبكّر قد بدأت تظهر في نيويورك.

جلست في أحد المقاهي في الطرف الشمالي الغربي من مانهاتن وأنا أضع نظارتي من ماركة شانيل، وأدوّن في مفكرتي، وأراقب المارّة، وأحتسي الشاي. فتاة صينية لا تحتسي شيئاً سوى الشاي في أحد المقاهي في مانهاتن ـ لقد وسمتني هذه الصورة بأني فتاة أجنبية، وهي صورة تكاد تكون لعنة. في حين أن ارتداء بنطال جلدي في شنغهاي والنوم مع الثقافة الغربية وسمني بأني امرأة لا منتمية. وفي نيويورك، كنت أيضاً امرأة لا منتمية تحتسي الشاي وترتدي أردية الكيباو الصينية

الحريرية. لقد سافرت كثيراً وجبت معظم بلاد العالم، ومع ذلك كنت غريبة أينما ذهبت، أحمل حقائبي وأمتعتي وأمسك بطاقة ركوب الطائرة بيدي.

كنت أحسّ أحياناً بألم حادّ في حنجرتي، وكأن عدم الإحساس بالانتماء شوكة عالقة فيها.

وبدأت أحلم مراراً بالجزيرة الصغيرة التي ولدت فيها «جزيرة بوتوو» وبالمعابد فيها. وكان الحلم يبدأ عادة وأنا أطوف فوق سطح البحر، منهكة تماماً، أبحث عن الجزيرة الصغيرة، وعندما أوشك على الاستسلام، كنت أسمع صوتاً من أعماق السماء يقول لي شيئاً، وكنت أنصت بكل جوارحي، لكني لم أكن أفهم ما يقال. وكنت أحلم ذات الحلم وأسمع ذات الصوت المنبعث من أعماق السماء، ليلة بعد ليلة. وعندما أستيقظ، كنت أشعر بأني مشوشة وضائعة ومحبطة لأني لم أسمع بوضوح ما كان يقوله لي ذلك الصوت الغامض.

وفي حلم آخر، كنت طفلة في الثانية أو الثالثة من العمر، أحاول أن أجتاز عتبة بشق النفس. وكانت العتبة مرتفعة جداً بالنسبة لي، لذلك كان عليّ أن أركّز كلّ طاقتي عليها. كان إجهاداً عظيماً بالنسبة لي، لكنني لم أكن أشعر بالخوف. لم يكن يوجد أحد، وكان كلّ شيء هادئاً ومضيئاً جداً.

كان موجو ما زال مشغولاً في المكتب. وإذا مكث في المكتب أقل من اثنتي عشرة ساعة، كان يشعر بالذنب.

لم يذكر أحدنا الجدال الذي دار بيننا في الأرجنتين، لكن لم يكن ذلك يعني أن أحدنا قد تفهم الآخر وغفر له. بل توصلنا إلى اتفاق ضمني بأن نتجاهل تلك الأمور في الوقت الحاضر. وأخذ أحدنا يركّز

على أفضل جانب في الآخر، ولكي نستكين في هذا الفضاء الهادئ مثل طيور أرهقها الطيران.

وفي الوقت نفسه، أصبح لديّ هاجس بأنني لن أمكث في نيويورك فترة أطول.

كان في صندوق البريد في الطابق الأرضي بعض الكتب التي أرسلها الناشر، وبعض العقود، وبطاقة بريدية من زوجة موجو السابقة كيتي (تتمنّى لموجو ولي كلّ السعادة)، وعدد من الفواتير وعدّة طبعات مقرصنة من روايتي «شنغهاي بيبي» التي أرسلتها لي إكسير من شنغهاي (كانت قد جمعت لي أكثر من ثلاثين نسخة مقرصنة، وكانت جميعها ذات أغلفة غريبة الشكل)، بالإضافة إلى قرص مدمج «سي دي» لسبيدرمان الذي يمكنك أن تشتريه بدولار أمريكي واحد عند ناصية أي شارع في شنغهاي.

وفي الرسالة المرفقة، حذّرتني قائلة: «لا تنفقي عشرة دولارات في نيويورك لمشاهدة آخر فيلم من أفلام هوليود التافهة؛ فعندما تعودين إلى الصين، ستحصلين بعشر دولارات على عشرة من تلك الأفلام!»

أقام موجو عشاء وداع، ليس لي، بل لبيتر الوسيم والنشيط في مكتبه.

فقد عثر بيتر على الوظيفة التي كان يحلم بها، وهي التدريس في إحدى الجامعات في سان فرانسيسكو. وفي هذه الأثناء، كانت شركة موجو تكافح لكي تظل واقفة على قدميها بعد أن بدأ عدد الزبائن يتضاءل، ولم يعد أمامها من خيار إلا أن تخفض عدد العاملين فيها، لذلك كان ذهابه أمراً جيداً لكليهما.

وأصبح المزاج على العشاء عاطفياً ومؤثراً. وكان موجو قد ثمل قليلاً، وكان يمسك بيد بيتر ولم يتوقف عن الكلام، عيناه تلمعان

بالدموع. فقد عملا معاً قرابة عشر سنوات. وكما قال موجو: «إني أحبّه كأحد أفراد أسرتي».

كان بوسع موجو أن يشيع بسهولة مشاعر أسرية مع الأشخاص الذين يعملون معه، مع أصدقائه، مع صديقاته السابقات، ومع زوجته السابقة، بل وحتى تجاه مواضيع أفلامه الوثائقية. أما أنا، فربما كنت معلّقة في مكان ما بين الأسرة والحبيبة؟ فقد أمضى موجو طفولة غير سعيدة، ثم قاطعته عائلته بسبب زواجه من فتاة يهودية. وكنت أحياناً أتساءل ما الشيء الذي يحتاجه موجو أكثر، الأسرة أم الحبيبة؟ ما نوع الحبّ الذي يكنّه لصديقاته السابقات - هل هو حبّ أسري أم حبّ رومانسي؟

انتهى العشاء عند حوالي منتصف الليل. وفيما كان موجو لا يزال منتشياً ومرهف الأحاسيس، أعددت بسرعة إبريقاً من الشاي في المطبخ، ثم جلسنا على الأريكة في غرفة الجلوس ورحنا نتحدث.

قال: «يعيش في داخل جسدي صبي صغير... أشعر أحياناً بأني طفل».

قلت: «أعرف». كان ذلك أمراً واضحاً للغاية. نظرت حولي إلى صور النساء العاريات وحبات الخوخ الصغيرة المجففة في الغرفة؛ نظرت إلى أسلوب ثيابه الجنوني لكن الجميل. ونظرت إلى وجهه المستدير وعينيه المقوستين وهو يضحك بصوت عال.

«أحيانا أتصرف بحماقة»، وأخذ رشفة من الشاي. ثم وضع فنجانه ومدّ يده وأخذ يفرك ظهري. من خلال ثيابي شعرت بالحرارة فوق أصابعه بسبب حرارة فنجان الشاي. «وأنت قد تتصرفين بحماقة أيضاً يا كوكو، مع أني أعتقد دائماً أنك أذكى مني».

ضحكت وقلت له: «شكراً، إنك أعقل وأكثر حكمة مني».

لم يضحك. ظلت يده تمسّد ظهري قليلاً. وحتى عندما لم يكن يقصد ذلك، لم تكن لمسته عادية وكان عليّ أن أكظم الرغبة في أن أموء مثل قطة كسولة.

«إننا لا نتنافس. إننا نتعلّم دائماً ونبحث عن إمكانية بيننا، أليس كذلك؟»

«إمكانية بيننا؟»

«ألا تعرفين؟ الزواج، الأطفال، تلك الأشياء التي يفكر فيها معظم الرجال والنساء عندما يعيشان معاً».

عندما سمعته يذكر هذه المواضيع الحسّاسة بصراحة شديدة وبشكل منفتح، اعتراني الذعر. فقد كانت هذه الأفكار تراودني كلّ يوم تقريباً. كنت أقلّبها هنا وهناك كالخضراوات التي تقلى في مقلاة صينية. لكن عندما طرح موجو الموضوع بغتة بهذا الشكل، لم أعد أعرف ماذا أقول. نهضت وذهبت إلى المطبخ. وقفت هناك أحدّق في الفراغ بضع دقائق، ثم تظاهرت بأني غسلت يديّ، وعدت.

«وما هي الإمكانية التي تظن أنها توجد بيننا؟» سألته، وأنا أحاول جاهدة أن أحافظ على توازن نبرة صوتي وكأني كنت مهيأة لأيّ شئ قد يقوله.

كان موجو متكأ على الأريكة. مدّ يده نحوي وشدني إليه ليصبح جسدي كله فوقه.

استلقينا هناك على الأريكة فترة من الوقت، لكننا لم نقل شيئاً. كان الصمت بيننا يعني دائماً شيئاً بالنسبة لنا. وبين ذراعيه وهو يضمني برقة وحزم، شممت رائحة الكحول والتيستستيرون. كانت رائحة حلوة ومزعجة.

«إننا لن نتزوّج، أليس كذلك؟» أخيراً فتحت فمي، لم أكن سعيدة بتلك النبرة الوادعة والجبانة في صوتي.

قال: «أنا... لا أعرف».

صمتّ. ومع أنه قال «لا أعرف»، إلا أني فهمت ما يقصده حقاً. «لماذا لا تعرف»، دمدمت، وأنا أحاول أن أنزل عنه، لكنه شدني إليه بقوة ولم يدعني أبتعد عنه.

بعد محاولة فاشلة، استكنت فوقه. وعندما لامس وجهي وجهه، أدركت أن وجنتيّ كانتا مبللتين. فقد كنت أبكي. «لا فائدة» لعنت نفسي في سريرتي. اللعنة على الدموع التي بللت وجهي، اللعنة على الرجل الذي قال «لا أعرف» لكنه لا يزال يضمني إليه بشدة ولا يدعني أذهب.

«حبيبتي»، قال وهو يموء، «عندما كنا معاً، إني واثق من أنه مرت أوقات شعرت فيها بأنك مشوّشة. إني واثق من أنه توجد أشياء فيّ لا تحبينها. إنك امرأة خاصة جداً، وقد يقع الكثير من الرجال في حبك. إنك أميرة. لكنني في بعض الأحيان أشعر بأني مشوّش بعض الشيء. يصعب عليّ إرضائك. فمهما فعلت، تظلين غاضبة». أصبحت نبرته لبقة، لكن تفسيراً مباشراً لكلماته يعني أننا منذ أن التقينا، كان موجو يشعر بالاضطراب. فقد وجد أني مدللة كثيراً ويصعب إرضائي إلى درجة أنه لم يستطع أن يتخيّل نهاية سعيدة لعلاقتنا.

نهضت من على الأريكة، ودخلت الحمّام وأغلقت الباب. فتحت الحنفية، وغسلت وجهي بالماء. أحسست ببشرتي تؤلمني قليلاً. من حسن حظنا أننا نشعر بالألم، لأن ذلك يثبت أننا لا نزال على قيد الحياة.

خرجت من الحمّام وقلت لموجو: «ربما آن الآوان لكي أعود إلى شنغهاي لأكتب كتابي الجديد».

في صباح اليوم التالي اتصلت بمكتب السفر. قالت لي الموظفة إن هذا الوقت وقت الذروة في فصل الصيف، وإن معظم الرحلات إلى شنغهاي محجوزة بالكامل. قلت لها: «إني أريد مقعداً واحداً فقط»، وأضفت: «من المؤكد أنك تستطيعين أن تساعديني في العثور على مقعد واحد فقط. ولا يهم إن كان ثمن البطاقة مرتفعاً».

وضعت سماعة الهاتف، وفجأة عادت الحياة صافية نقية. كنت مثل كويكب ضلّ طريقه في الفضاء، وعاد الآن إلى مداره ثانية. وحتى لو لم يكن هذا الاتجاه هو الذي كنت أريد أن أسلكه، إلا أنه من الأفضل على المرء دائماً أن يكون له اتجاه على أن لا يكون لديه أي اتجاه على الإطلاق.

وبدأت أرتب حقائبي، أنتقل من غرفة إلى أخرى، أمسك قائمة بيدي.

وكان في القائمة كلّ شيء أحتاج إلى أن آخذه معي، أشياء كبيرة وصغيرة على حدّ سواء: مرطّب أحمر شفاه ماركة كيهل بارني؛ شريط كهربائي لجهاز الكمبيوتر النقال؛ مسودّة فيلم لم يتح لي أن أظهّره؛ جميع المجلات الإباحية التي اشتريتها لإكسير (تعرض صور رجال عراة ذوي قضبان كبيرة)؛ حبوب أمريكية للدّوار لصديقي بياو يونغ، عازف الروك أند رول. فقد كان بياو يونغ عازف الغيتار في فرقة بكين للروك أند رول، مغرماً بالوشم والنساء. وكانت تنبعث من يديه رائحة الماريوانا. يدان يمكنهما أن تعزفا على الغيتار بطريقة مدهشة. وكانت نساء كثيرات يتمنين أن يكنّ غيتاراً بين يديه. أما نقطة ضعفه الوحيدة، فكانت أنه يشعر غالباً بدوّار السفر ولم يسعفه الطب الصيني؛ ولم يكن يساعده إلا الدواء الياباني أو الأمريكي.

فيما كنت أذرع الغرف وأنا أحزم أمتعتي، لاحظت فجأة الخزانة في

غرفة الجلوس. فأنا لم أرها مفتوحة أبداً. إذ لم أكن أظن أن محتوياتها مهمة بالنسبة لي، لأن موجو لم يكن يقفلها. بدا من السهل أن أتطفل عندما استطعت أن أقنع نفسي بأن الأشياء في داخلها لم تكن ذات قيمة كبيرة.

فتحت باب الخزانة. كان في داخلها درجان. وكان في أحدهما صناديق أحذية قديمة، وبدافع من الفضول، فتحت أحد الصناديق. كان في داخله مجموعة كبيرة من صور نساء لم أرهن من قبل. كان بعضهن وحدهن، وبعضهن مع موجو. كانت جميع صديقاته السابقات هنا!

قال لي صوت داخلي: «لا فائدة من ذلك، إذ إنك فتاة بالغة الآن»، لكن الصوت الآخر قال: «استمري، انظري إلى تلك الصديقات السابقات، ربما تصبحين وحدك قريباً!»

نظرت. لكني بعد فترة لم أعد أشعر بالحماس كما كنت أتوقع. فقد كان بعضهن أجمل مني، لكن معظمهن كنّ متوسطات الجمال. ومع ذلك كانت معظمهن جذابات بطريقة أو أخرى، وبدون استثناء كانت تبدو السعادة على وجوههن. قلّبت حوالي نصف المجموعة، ثم توقّفت. فمن حق موجو أن تكون لديه شؤونه الخاصة. إن محاولة فهم علاقتنا بالتجسّس على ماضيه تثبت أسلوبي الأخرق.

أغلقت الصندوق، وكنت على وشك أن أغلق الدرج عندما لفت انتباهي ألبوم صور مكتوب عليه «موجو». فتحته: كانت في داخله صور لموجو. شدتني صورة قديمة له وهو في الجامعة. كان يبدو فتى شقياً، يرتدي ثياباً جلدية، ويستند إلى الحائط وهو يدّخن. كانت عيناه عميقتين وغامضتين فيهما شوق حادّ. كان في الصورة القديمة بالأبيض والأسود جمال سريالي. فقد كان موجو يظهر تهوراً وهشاشة فقدهما منذ مدة طويلة. فالطيش والهشاشة من سمات الشباب.

أخرجت الصورة، وأغلقت الدرج والخزانة واتجهت إلى صندوقي الكبير. أخرجت علبة مليئة بالأشياء التذكارية: رسائل كتبها لي موجو، وأعقاب تذاكر الحفلات الموسيقية التي ذهبنا إليها، وأعقاب تذاكر طائرات من الرحلات التي سافرنا فيها معاً وأشياء تذكارية أخرى. وبحرص وضعت صورة موجو القديمة معها.

خلال الأيام القليلة الأخيرة المتبقية لي في نيويورك، تناولت الطعام مع جيمي ونغ، المحرّر في دار النشر، ومع أساتذة من جامعة كولومبيا، ومع خبيرة التجميل ناتاشا، ومع ريتشارد وزوجته وو، ومع إيريك، ناقد الكتب، إذ إن تناول الطعام وسيلة جيدة للوداع.

«يجب أن أعود إلى شنغهاي. فأنا بحاجة إلى خلفية صينية لكتابي الجديد. فأنا لا أزال أكتب بالصينية. هذا ما كنت أقوله دائماً على العشاء. وقد بدا لي أن الكتابة أصبحت عذراً جيداً لمغادرة نيويورك.

كان صديقي جيمي ونغ يواجه بعض المشاكل. فقد اكتشف أن العلاقة بين ابنته اللطيفة والذكية نانسي وأمها السليطة ذات الطباع المهيمنة قد انحدرت إلى أدنى مستوى لها، وأصبحت مثل النار والماء. إذ نظفت نانسي حوض المرحاض بفرشاة أسنان أمّها ثم هربت من البيت. وعندما لم تستطع أن تدفع ثمن البيتزا في أحد المطاعم في نيو جيرسي، اضطرت للعمل في المحل مدة ثلاث ساعات قبل أن تتصل بأبيها جيمي ليأتي وينقذها.

وفي إحدى المرات هربت لمدة أسبوع، وكاد جيمي وزوجته السابقة أن يفقدا صوابهما من القلق. واكتشفا أخيراً أن ابنتهما الغالية تقيم حفلات جنسية في البيت الصيفي لأحد زملائها الأغنياء في المدرسة: أطفال أغنياء في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر يتغيّبون عن

مدرستهم، يتعاطون المخدرات، ويبتلعون الحبوب، ويقيمون حفلات جنسية مشتركة.

ليس هذا فقط، بل كان جيمي قلقاً أيضاً لأن الحكومة كانت تجري معه تحقيقاً. فلم يجرؤ على القيام بأي شيء غير شرعي، لكن لا بد أن أحد زبائنه قام بتزوير بعض الوثائق. ولم يتطلع أبداً إلى فتاة بيضاء أيضاً، لأنه كان يخاف الشرطة السرية ـ أحياناً يكون ساذجاً للغاية.

نتيجة لذلك أصبح قلقاً وبدأ يزور معالجاً نفسانياً.

إن قصة جيمي لم تشد من عزيمتي فقط لمغادرة نيويورك. فهناك وقت لكلّ شيء، وقد حان الآن الوقت للمغادرة لفترة من الزمن.

ولدهشتي الكبيرة، استقال إيريك من عمله في جريدة النيويورك تايمز. وخطّط للذهاب إلى شنغهاي بعد شهر ثم سيتوجه إلى مكان يعتبره مقدساً للغاية ـ التبت. وستكون هذه أول زيارة له إلى الصين.

وقال إنه أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني إلى ابنة خالتي زو شا في شنغهاي. كان يريد أن يراها. في الحقيقة، فمنذ أن أعجب بزو شا في البداية، لم يستطع أن يبعدها عن تفكيره. كان مستميتاً لرؤيتها، سواء أحبته أم لم تحبّه؛ حتى لو كانت متزوجة.

نظرت إلى وجه إيريك الشاب والمفعم بالحماس ولم أعرف ماذا أقول له. هل هذه ملهاة أم مأساة؟

من المؤكد أن العلاقة المأسوية الكوميدية بين الذكر والأنثى تتبع هذا النمط: أنت تحبّني، أنا لا أحبّك؛ أنا أحبّك، أنت لا تحبّني؛ وهكذا. أما العلاقة بيني وبين موجو فكانت: أنا لا أزال أحبّك ويبدو أنك لا تزال تحبّني، لكن من الأفضل أن ننفصل لفترة من الوقت وننتظر ونرى ما يحدث.

في ذلك اليوم، عمل موجو استثناء للقاعدة التي يتبعها وأخذني إلى المطار. لم يكن قد أخذ أحداً إلى المطار منذ عشر سنوات. كنت قلقة طوال الرحلة إلى المطار، لأنني كنت متأكّدة من أني سأبكي عندما أودعه. لم أشأ أن أبكي. إني أؤمن بالخرافة التي تقول إن البكاء يجلب فألاً سيئاً عندما تودع أحداً وقد يجعله وداعاً دائماً.

في اللحظة التي وصلنا فيها. انحنى موجو الطويل الضخم، وضمني إليه وقبّل شفتيّ. لم أتوقع الشرارات الصغيرة التي انطلقت وتركت خدراً خفيفاً مؤلماً على شفتيّ.

«يا إلهي، الكهرباء الساكنة مرة أخرى»، دمدمت.

«نيويورك جافّة جداً»، قال. نظر أحدنا إلى الآخر وابتسمنا. كان علينا أن نكون زوجاً جميلا خاصاً لتوليد كهرباء ساكنة في أول وآخر قبلة لنا في نيويورك.

«اشربي ماء كثيراً في الطائرة»، قال، «وفي من حين لآخر وامشي في الممر».

ضحكت ثانية.

عندما جلست في مقعدي في الطائرة، أدركت أنني لم أبك. ولعل ذلك فأل حسن.

٢٨

السيد يقول: ابتسمي! ابتسمي!

سؤال: «كيف يمكن للمرء أن يتخلص من الهموم الدنيوية؟»
فأجاب المعلم زن: «ومن قيدك؟»

جزيرة بوتوو - الخريف

بعد أن هطلت أمطار خريفية غزيرة، ازداد الطقس برودة في جزيرة بوتوو، وذبلت الأزهار وانحنت سوق النباتات. وبدأ اللونان البني الغامق والأحمر يظهران في وسط اللون الأخضر الذي يكسو الغابة الجبلية. وفجأة أصبح المشهد مشرقاً ونقياً.

أمضيت أسبوعين في الجزيرة دون أن أشعر بذلك. وعندما اقترب موعد عودتي أرسل لي سيد الطبيعة الفارغة كلمة بواسطة هوي غوانغ بأنني يجب أن أراه مرة أخرى قبل أن أغادر الجزيرة.

يعيش سيد الطبيعة الفارغة في غرفة رئيس الدير في الجزء الشمالي الغربي من المعبد. والغرفة مزدانة ببساطة وأناقة، وفيها مقعد قديم، وطاولة قديمة وسرير خشبي واطئ تكسوه بطانية رقيقة. وإلى جانب الطاولة، كان يوجد ضريح صغير لكي يتكامل مع تمثال غوان ين. إنه أسلوب في الحياة يعود إلى قرن سابق.

تعبق في هذه الغرفة النقية رائحة عطرة ويشع منها دفء لا يمكن وصفهما. وقد لفتت انتباهي اللفيفة البيضاء الكبيرة المعلّقة إلى جانب

سرير السيد التي كتب عليها بالحبر الصيني الأسود وبخط سميك كلمة «الموت». وكنت في كلّ مرّة أنظر إلى هذه الكلمة، كان قلبي يخفق بقوة. وكنت قد فوجئت بها تماماً عندما دخلت إلى هذه الغرفة للمرة الأولى.

سألت السيد عن السبب الذي جعله يعلّق هذه الكلمة بالذات على الجدار. مسّد السيد شعره، وأجاب: «ينصرف الكثير من الناس بكل جوارحهم إلى الحياة ويهملون جانب الاستعداد العقلي لحتمية الموت. وهم ينسون أن يعيشوا حياة ذات معنى قبل أن يدركهم الموت». وقال لي في مرّة أخرى: «إن الجميع يخافون الموت، لكننا إذا لم نعرف الموت، فكيف يمكننا أن نعرف الحياة؟»

كان احترامي للسيد يزداد يوماً بعد يوم. إذ كان هذا الرجل العجوز الطيب يمثّل لي الحكمة. كان مثل جدّ يبارك الجيل الأصغر بأريحية وبدون أنانية ويحميه. وخلال وجودي معه، كان يبدو أن جميع مشاكلي وهمومي يمكن حلّها بسهولة. الرعب، الاضطراب، الحزن، القلق - ستتلاشى جميع الأشياء السلبية بشكل طبيعي. كان ملاذاً رائعاً. ففي هذا العالم الذي يعشق الشباب والجنس والقوة، كان السيد شيئاً ثميناً. رجل عجوز يتمتع بقدرة غير عادية لا يستطيع الناس العاديون أن يروها.

وفي عصر اليوم الذي حجزت فيه للعودة إلى شنغهاي، عدت ثانية إلى غرفة سيد الطبيعة الفارغة في معبد المطر الورع. ولمحت من بعيد هوي غوانغ وقد شمّر عن كميّه وراح ينظف زجاج النوافذ من خارج غرفة السيد، وعند قدميه دلو خشبي مليء بالماء.

حييته. التفت. كان وجهه المستدير مورّداً بسبب العمل الذي يقوم به، وابتسم لي وقال: «السيد في انتظارك»، وعاد يتابع مسح زجاج النوافذ ذات الإطارات الخشبية.

كان السيد جالساً على السرير الخشبي. كانت ساقاه متصالبتين، وكان يتدثر بعباءة رمادية. ومن الزاوية التي كنت أنظر منها، كانت كلمة «الموت» معلّقة فوق رأس السيد مباشرة، وبدا وكأن أي شيء قد يسقط من الأعلى في أي وقت. كان يبدو أن السيد نعس قليلاً، وقد بدا أن جسده النحيل قد اختفى داخل العباءة.

ضممت يدي معاً ووضعتهما تحت ذقني أحييه.

قال: «هل ستغادرين؟» وأشار إليّ بأن أجلس على المقعد القديم.

«نعم، سآخذ العبّارة صباح غد»، قلت بصوت أجش بعض الشيء، وأضفت: «لست متأكدة، فأنا لا أريد حقاً أن أغادر، لكن. . .».

«يمكنك أن تعودي في أي وقت»، قال السيد وابتسامة ترفرف على شفتيه، «عندما كنت في عمرك، كنت أتمنى حقاً أن لا أتوقف عن الجري، وأن لا أمكث في مكان واحد».

كان لابتسامة السيد قوة شافية، فقد تلاشى في تلك اللحظة الألم الذي كنت أشعر به في أعماقي. لم أتمالك نفسي عن الابتسام. قال السيد: «حيثما يوجد لقاء، يوجد فراق؛ وعندما يتم الفراق، سيكون هناك وقت للقاء ثانية».

«سآتي لزيارتك ثانية أيها السيد. وفي المرة القادمة سأجلب لك جاتو بالقشدة. يوجد مطعم نباتي كبير في شنغهاي يدعى «غونغديلن» - حيث يصنعون أيضاً جاتو بالقشدة للرهبان».

هزّ السيد رأسه، ونظر إليّ مبتسماً وقال: «يبدو أنك أصبحت تتمتعين بصحة أفضل مما كنت عندما وصلت».

قلت: «لقد نمت جيداً هنا. ولم أعد أحلم كثيراً، وعندما أحلم لم أعد أرى كوابيس».

«أخبريني ما نوع الأحلام التي ترينها».

«تتكرر بعض الأحلام، مثل أني أعوم في البحر وأحاول أن أعثر على جزيرة. أظن أنها جزيرة بوتوو، لكني لا أعثر عليها أبداً. ويظهر لي أحياناً سراب، ثم أسمع صوتاً من السماء يقول شيئاً لا أفهمه جيداً. وحلمت أيضاً أنني طفلة صغيرة أبذل جهداً لاجتاز عتبة. وحلمت مرّتين عن أشياء جرت لأصدقائي في نيويورك».

لم يقل السيد شيئاً. ومرة أخرى، ظهرت على وجهه تعابير شخص يضحك دون أن يضحك، ناعس دون أن يكون ناعساً. في تلك اللحظة، جاء هوي غوانغ وهو يحمل كوبين من الشاي الأخضر، ثم انسحب بهدوء من الغرفة.

بعد أن أشار إليّ بأن أتناول الشاي، أمسك السيد كوب الشاي المركون بجانب سريره بكلتا يديه، ونفخ قليلاً في الأوراق العائمة فيه وأخذ منه رشفة. حذوت حذوه ورشفت منه أيضاً. كان شاياً لذيذاً، كان الرهبان هم الذين قطفوا أوراقه، وحضرّوه بأنفسهم.

«منذ متى تدرسين اللغة الإنكليزية؟» غيّر السيد الموضوع فجأة.

«منذ خمس أو ستّ سنوات، ولا أزال أدرسها حتى الآن».

قال السيد: «إنها تتطلّب الكثير من الصبر»، وأضاف: «لكي يحسن المرء من شخصيته فإن التصرف بلباقة يحتاج إلى الكثير من الصبر، وقد تمضين حياتك كلها في عمل ذلك. أما النمو الروحي فهو يحتاج إلى العمر كله». كنت أحدّق بثبات في وجه السيد الطيب. انبثق من داخلي شعور عميق من الألفة يصعب وصفه.

قال السيد: «لديّ شيء لك»، وأشار إلى تحت السرير. أسرعت وأخرجت علبة خشبية. عندما فتحتها، كانت مليئة بالسوترا (الأدب

البوذي). استل السيد منها مجلداً رقيقاً بعنوان «رقى الرحمة العظيمة» وقدمها لي وقال: «إقرأيه عندما يتاح لك الوقت. إنه يساعد المرء كثيراً في اكتساب الحكمة والسكينة».

وبسرعة ضممت كفيّ معاً. لقد أثّر فيّ ذلك كثيراً، لكن لم تخطر ببالي أية كلمات شكر.

وقال السيد: «أعطاني هذا الكتيب الصغير راهب كنت قد التقيت به ذات يوم عندما كنت شاباً أجوب أطراف البلاد. وها أنا ذا أعطيه لك الآن، فلعله يساعدك». في هذه اللحظة، لم أكن مستثارة فقط، بل مندهشة أيضاً. لا ريب أن الهدية كانت ثمينة للغاية.

عندما نهضت لأغادر، ضرب السيد عصاه على الأرض بقوة وقال بصوت وكأنه يقرأ في السوترا: «ابتسمي! ابتسمي!»

حبست دموعي وأنا أغادر. ابتسم وقال: «يا طفلتي، إن جميع أسرار الحياة تكمن في الابتسامة. إنك شابة، فلا تكوني متجهمة دائماً. يجب أن تبتسمي، ومن الأفضل أن تكوني أحياناً مرحة ومليئة بروح الدعابة!» بعد أن قال السيد ذلك، لوّح إليّ، فانحنيت انحناءة كبيرة.

رافقني هوي غوانغ إلى خارج غرفة السيد ثم إلى خارج المعبد.

وقفت على الدرب الذي تكسوه الأشنة خارج المعبد، نظرت إليه وقلت: «سأشتاق إليك». أطرق برأسه، وركل بقدمه حجرة صغيرة بعيداً. مرة أخرى، شممت رائحة جسمه النقية واللاذعة قليلاً، التي تشبه رائحة عشب محترق. فهذه هي الرائحة التي تميّز راهباً شاباً وزاهداً.

بعد توقف طويل كسر الصمت وقال: اعتني بنفسك».

ابتسمت بفرح وقلت: «اعتني بسيد الطبيعة الفارغة. ولا تنم وأنت تتأمّل».

ابتسم وقال: «كدت أغط في النوم هذا الصباح أثناء درس».

«لماذا؟» سألته وأنا أضحك.

«استيقظت البارحة في الساعة الثالثة صباحاً بعد أن جافاني النوم فانسللت خارج المسكن واتجهت إلى الهاتف العمومي عند بوابة المعبد واتصلت بأمّي». كان يعضّ شفته قليلاً، وقد أشرق وجهه، ثم أضاف: «كانت تظن أنها تحلم». ابتسم ابتسامة عريضة، يغمره ذلك الشعور بالسعادة الذي أضفته عليه أمّه.

أطارت الريح التي هبتّ فجأة ورقة شجر حمراء ثم تلتها أخرى من شجرة قيقب قريبة.

كان لون الأوراق المتطايرة حمراء داكنة، جذّابة للغاية، جميلة جداً.

لوّحت إلى هوي غوانغ، ثم استدرت وعبرت بوابة معبد المطر الورع المزخرفة ذات القنطرة. جلست قليلاً على الشاطئ، ثم عدت إلى الحانة لأتناول طعام العشاء.

وفي وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، نهضت واغتسلت، وتناولت طعام الفطور ووضعت حقائبي وراء الكاونتر في الفندق. ثم توجهت إلى معبد المطر التقي، وأحرقت بخوراً، وصلّيت أمام تماثيل بوذا المختلفة.

مررت بعدد من السيّاح في ذلك اليوم، الذين كانوا يأتون ويذهبون عبر عتبة المعبد كالسمك المهاجر.

٢٩

كلّ شيء يأتي بسرعة في شنغهاي

كأن شعوب العالم قد أصيبت بالملاريا: فهم يشعرون بالحرارة لفترة قصيرة، ثم تعتريهم الحرارة لفترة قصيرة أخرى. وقبل أن يعرفوا حقيقة ما يجري، تكون حياتهم قد انتهت.

المعلّم فا يان

شنغهاي ـ الخريف

عدت إلى بيتي في شنغهاي. قبل أن أفعل أي شيء آخر، رحت أتصفح الرسائل في بريدي الإلكتروني. لم يكن ثمة أثر لأيّ رسالة من موجو. لكني لم أشعر بالوحدة أو عدم الأمان كما كنت أشعر بعد أن عدت من نيويورك. وتذكرت أن أبتسم حتى عندما أكون وحدي، فلن يتوقف العالم عن الدوران لأنني وحدي.

وخلال الأيام القليلة القادمة، رتّبت الشقّة ونظفتها بنفسي، وهو شيء لم أكن أفعله قبل أن أذهب إلى جزيرة بوتوو. فقد كانت أعقاب السجائر، وعبوات الأدوية، والمحارم الورقية، والصحون الوسخة، والمجلات القديمة، والجوارب والأحذية مبعثرة في أرجاء البيت، وكانت تفوح فيه رائحة غير مستحبة. لم أكن أعرف أنه توجد أشياء كثيرة يجب أن ألقي بها.

كانت بعض الأمور تكاد تكون نفسها: تنظيف الشقّة، الاستلقاء في صالون للتجميل للتخلّص من البشرة الميتة، الاستقالة من الوظيفة،

والانفصال عن الحبيب. كانت جميعها أشياء مزعجة في البداية، لكنها تجعلك تشعر بالتحسّن في نهاية الأمر.

خلال الأسبوعين القصيرين اللذين أمضيتهما خلال سفري، تغيّرت شنغهاي مرة أخرى. فقد انتهى العمل في الجسر الرابع الضخم على نهر بوجيانغ، أضخم جسر فولاذي في العالم، وسيفتتح قريباً أمام حركة المرور. ونجحت شنغهاي في استضافة معرض إكسبو ٢٠١٠، ولم يكن يتوقف صوت آلات الحفر في مكان قريب من بيتي على مدار الساعة، وتم رفع سن منح رخص قيادة السيارات من خمسين سنة إلى سبعين سنة، وازداد عدد الأشخاص الذين يملكون سيارات خاصة زيادة كبيرة. وظهر في الأسواق نوع جديد من فاكهة اليوسفي (الماندرين)، أطلق عليه «شاتانغ جو»، يبلغ حجم ثمرتها بحجم بيضة الحمامة، وهي شديدة الحلاوة.

وصادقت إكسير الآن شخصاً أسترالياً سخياً اسمه آدم، ذا قضيب كبير، ويشغل منصب المدير الإقليمي الآسيوي لشركة تكنولوجيا معلومات عالمية مشهورة. وكان يعمل بدأب ويلعب كثيراً، ويرتدي دائماً ثياباً من ماركات مشهورة، وينتقل من ناد إلى آخر، ولم يكن يغادر النادي حتى يسكر. ولم يكن قد أمضى وقتاً طويلاً في شنغهاي، ولا يوجد لديه عدد كبير من الأصدقاء، لذلك كانت إكسير تأمل أن لا يتمكن من اكتشاف سرّها.

لكنني لم أكن أبدي اهتماما كبيراً بعلاقتهما. واستمرت إكسير تحدثني على الهاتف عن عظمته، وكنت أستمع إلى قصة حبّها وأنا أرتّب خزانتي. فقد التقيا في مطعمها، وكان حباً من النظرة الأولى، حباً جياشاً، وكان يريد أن يراها طوال الوقت، يا إلهي، إنه رجل عظيم جداً. . .

وفي النهاية لم أتمالك نفسي عن إسكاتها فقلت: «إنك تتحدثين طوال النهار لكنني لم أسمع كلمة واحدة عن الشيء الذي يجعله عظيماً».

«انسي الموضوع. إنك لا تحبين أصدقائي أبداً» قالت مستسلمة.

«لا تقولي كلاماً سخيفاً. بالطبع أريد أن يكون لديك رجل يقدّرك كثيراً، وأن تحبيّنه وأن يحبّك، وأن يحبّ أحدكما الآخر حتى يغزو الشيب رأسك. وعندها سأعرف أنه يوجد أمل في الحياة».

قالت إكسير: «إني أحبّه حقاً».

قلت: «إذا كنت سعيدة، فأنا سعيدة».

«إنه أفضل رجل صادفته في حياتي، لا جسدياً وثقافياً فحسب، بل مالياً أيضاً».

كنت أصغي إليها دون أن أصدر أي صوت.

قالت إكسير: «إني أستحقّ أن يكون لديّ رجل ناجح وغني وذو قضيب كبير!» وأضافت: «إني أمضي وقتاً كثيراً وأنا أعتني ببشرتي مثل معظم النساء. وبالمال الذي أنفقه على الثياب وحدها يمكنني أن أشتري جزيرة صغيرة في المحيط الهادئ. أفلا يجب أن أحظى برجل كهذا؟»

وبما أن صديقها الأسترالي لم يكن في شنغهاي، فقد رافقت إكسير إلى حضور حفل زفاف لم أكن أعرف أحداً فيه. وكانت العروس إحدى زبونات إكسير. ولم تكن أول امرأة تدعو صاحبة المطعم الشهير في شنغهاي «العشيقة التي تقطع الرقاب» إلى زفافها. وفي الواقع، كانت إكسير تحضر حفلات زفاف كثيرة ـ لا أعرف تماماً كم بلغ عددها ـ كان زبائنها يدعونها إليها. فبين عشية وضحاها، أصبحت مهووسة بحفلات الزفاف.

ومثل إكسير، بدأت أستمتع بالتباهي بثوب السهرة الذي أرتديه، وبدأت أؤمن بأن ارتياد حفلات زفاف الآخرين يجلب لك حظاً سعيداً. ومثل إكسير أيضاً، أحسست باليأس من الزواج. فقد حضرت إكسير عدداً كبيراً من حفلات الزفاف، وكانت تعرف متى سيقام حفل زفاف من وأين.

في البداية، ذهبت إلى بيت إكسير، حيث كانت تستمع إلى أغنية ماريا كالاس «أيتها الجميلة» وكانت تضع على وجهها قناع تجميل، حيّتني ثم نظرت إليّ ملياً وقالت: «يا إلهي، لقد أثّرت جزيرة بوتوو عليك حقاً... إنك تبدين كالراهبة!»

ضحكت ونظرت إلى نفسي في المرآة. كنت أضع مكياجاً خفيفاً، ونظارات ذات إطار أسود لم أكن أضعها عادة، وفستاناً بسيطاً أبيض من الكشمير.

نظرت إلى إكسير ثانية. كانت تشبه نجمة سينمائية مثيرة ومدلّلة. وكان على وجهها قناع من مسحوق اللؤلؤ الطبيعي واللبن وغبار طلع أشجار الشاي وعصير الليمون لتغذية بشرتها. وكان ثمة خيط حريري أحمر يشد شعرها إلى الأعلى، وكانت ترتدي بيجامة حريرية كان قد خاطها لها خيّاطها الماهر، وتنتعل خفاً ذا كعب عال من الحرير الأحمر من ماركة غوتشي. وكانت تحمل في يدها اليسرى فستاناً ذهبياً فاهي اللون مقلداً من موديل فيرا وانغ، وتحمل في يدها اليمنى فستاناً طويلاً يصل إلى كاحليها من ماركة دولشي أند غابانا، وقد خاطهما لها خيّاطها.

لم تكن تعرف أياً من الفستانين سترتدي. وكنت قد ساعدتها في اختيار قماش الفستان الذهبي الفاتح من موديل فيرا وانغ. كان بدون حمالات، وكان موشّى برسوم ربطات عنق على شكل فراشة حول

الخصر. وكان فستان فيرا وانغ الأصلي قد ارتدته ساره جيسيكا باركر وظهرت فيه في صورة نشرت في إحدى المجلات، فأعجبت به إكسير كثيراً. وضعت الفستان أمام جسمها، وابتسمت ابتسامة عريضة جعلت القناع السميك على وجهها يتجعد قليلاً.

كانت إكسير فخورة بهذين السلاحين السريين، اللذين منحاها شعوراً بالأمان: الخيّاط سوبي الصغير الذي يستطيع أن يقلّد أيّ فستان على الموضة، وقناع الوجه للتجميل الذي اخترعته هي نفسها.

في شنغهاي، كنا أنا وإكسير نذهب إلى مصفّف الشعر، ومدّرب اليوغا، ومدرّب التنس، ووكيل السفر أنفسهم، إلا أن خياطينا كانا مختلفين. فقد كان خياطها يتمتع بمهارة كبيرة ويستطيع أن يقلد أي موديل بالدقة ذاتها التي يظهر في أيّ مجلة أزياء. أما خياطي ، فكان بارعاً في خياطة الكيباو الصيني الموشّى بأزرار معقّدة تجذب نظرات الإعجاب.

كانت إكسير تعرف أسرار الجمال. إذ كانت تعرف أنه يمكن علاج البثرات الصغيرة على الوجه بترطيبها بأوراق الشاي الأخضر المغلية، ويمكن إزالة البثرات السوداء بفركها بكرات من الرزّ المسلوق، ويمكن التخلص من أي شيء يعلق على التنورة بسبب الكهرباء الساكنة بوضع مرهم مرطّب على الجوارب الحريرية في الطقس البارد الجاف، وإلى ما هنالك. . . حتى أن إكسير كانت تعرف أنه يوجد بلسم من المسك من التيبت يمكنه أن يمنع الحمل لدى دهنه فوق السرّة قبل ممارسة الحبّ (يبدو أن هذا هو اهتمامها الأكاديمي الوحيد).

كانت إكسير تجد متعة كبيرة في هذه الأشياء.

نظرت إلى ساعتي وذكّرت إكسير بأننا يجب أن نسرع.

قالت وهي تتجه إلى الحمّام: «يمكننا أن نرتدي ثياباً على الموضة ونتأخر خمس عشرة دقيقة».

«مهما كان!» قلت ودخلت إلى مطبخها، ووجدت في الثلاجة نصف علبة اللبن المتبقية من قناع وجهها. أخذته إلى غرفة الجلوس، وجلست على الأريكة ورحت أتناوله ببطء.

لم يكن حفل الزفاف مميزاً. وكان قد أقيم في فندق من المفترض أنه فندق ستّ نجوم، لكن حتى الطعام كان دون الوسط، وكان كثير الدهون (ربما بسبب هبوط أسعار النفط مؤخراً؟) إلا أن إكسير قالت إن المشكلة تكمن في أن معدتي أصبحت حساسة ولم تعد تستطيع أن تهضم الطعام.

كانت إكسير تعرف جميع المدعوين إلى الزفاف تقريباً وكان الناس يدورون حولها ويكلمونها بدون انقطاع. وبناء على طلبي قدّمتني على أني صديقتها صوفي. وكنت سعيدة بأن أجلس في ركن بعيدة عن المشاكل.

وكانت إكسير قد أخبرت سراً عدداً من المدعوين من أنا. وكانت الأختان التوأمان اللتان ترتديان ثياباً فاخرة من رأسهما حتى أخمص قدميهما تنتميان إلى عائلة فقيرة. وقد تزوجت الأخت الصغرى من تريليونير ماليزي وعاشت الأخت الكبرى معهما؛ وعندما يكون صهرها أحياناً ثملاً أو يتظاهر بأنه سكران، كان يدخل إلى غرفة نوم الأخت الكبرى. وتلك المرأة التي تنتعل حذاء مسطحاً وذات تصفيفة الشعر التي تشبه مساعدة أستاذة جامعية، لم تكن في حقيقة الأمر سوى عاهرة مرتفعة الثمن. ويبدو أنها لا تقبل إلا العملة الأجنبية. أما الرجل الجذاب في متوسط العمر، فكان تاجر أسلحة من تايوان.

ذكّرتني بنيويورك.

لم أشأ أن أتذكّر. فقد عدت للتو من جزيرة بوتوو، لكن الشيء الذي عاد حقاً هو الجسد. إذ كانت لا تزال هناك أجزاء أخرى مني لم تعد. فقد كنت بحاجة إلى وقت.

كان رأسي يؤلمني، فودّعت إكسير وعدت إلى البيت.

وبعد أيام قليلة أحضرت ابنة خالتي زو شا ابنها ليتل وورم الذي لم يتجاوز الأربعة عشر شهراً من عمره لنتعشى في مطعم ياباني جديد.

كانت هذه هي أول مرة أرى فيها الرجل الصغير بدمه ولحمه. وأخذت الطفل من زو شا وحملته وأحسست بشيء من التوتر. وقد منحني وضعه في حضني إحساساً عجيباً، رقيقاً وثقيلاً. لقد أحببته على الفور، ولم أرغب في أن أعيده إليها إلا عندما بدأ يركلني في بطني بساقيه المكتنزيتن وأخذ يبكي بصوت مرتفع.

«في الواقع إنه يحبّ أن تحمله إحدى خالاته الجميلات. أما الرجال فلا يحلمون بلمسه، حتى أبوه لا يرغب في ذلك»، قالت زو شا وهي تنظر إلى ابنها بإعجاب.

حاولنا أن نتحدث عن أشياء أخرى، إلا أن المخلوق ذا الرجلين الصغيرتين الجميلتين لم يتوقف عن الحركة والتململ في حضنها، لفت انتباهنا وأمضينا معظم الوقت ونحن نتحدّث عنه، تحدثنا عن أبيه خلال ما تبقى من الوقت.

وحكت لي زو شا كيف أنها ووالد ابنها ينامان في غرفتين منفصلتين. وتنام هي وابنها في سرير، وينام أبوه في غرفة الضيوف. وفي الصباح، عندما كانت تذهب إلى عملها، تقوم مربية الأطفال برعاية الطفل فيما ينهمك الأب في رسم لوحات كبيرة في مرسمه، وعندما يشعر بالملل، كان يأتي ويلعب مع ابنه قليلاً.

«في إحدى المرات جعل آه ديك الطفل يقف على راحة إحدى يديه

وأمسكه من ثيابه، وأخذ يدور بالطفل حول الغرفة كالمجنون». ومدت زو شا ذراعها وحركت يدها تقلده. «إنه مجنون».

ومع أن آه ديك كان يبدي محبة كبيرة لابنه، إلا أن زو شا كانت تقول إنه لم يكن يحبّه، بل يغار منه لأنه سرق منه الكثير من الاهتمام الذي كان يحظى به ذات يوم.

«ربما كان عليك أن تعاملي آه ديك على نحو أفضل»، قلت وتذكرت ذلك الشاب، آه ديك، رسام الكاريكاتير، ذا الشعر المضفور مثل ذنب حصان في الحادية والعشرين من عمره، منذ أربع سنوات. ثم أصبح فتى مدللاً مترفاً تريد جميع نساء شنغهاي المسنات أن يأخذنه إلى سريرهن.

لاذت زو شا بالصمت.

عندما صمتت كانت في أجمل وأبهى حلة لها. فحسب كلمات إيريك، الذي وقع في غرامها من أول نظرة في نيويورك، كانت «جميلة مثل بوذا صيني». إذ كانت قسمات وجهها ومزاجها لطيفين وصافيين، امرأة صينيه كلاسيكية. ولو كانت قد ولدت قبل مائة سنة، لما جعلها نجاحها في عملها فظة أو شرسة كما هي الآن. فرغم أنها تعودت على إعطاء الأوامر في المكتب، كانت سمكة باردة في البيت. فلو عاشت قبل مائة سنة، لكانت قد ارتدت الحرير، وجلست برهافة قرب النافذة، تطرّز، وتحرق البخور، وتنتظر عودة زوجها عند مغيب الشمس. وبالطبع، قبل مائة سنة، كان قدماها سيربطان في زهرة لوتس ذهبية بحجم ثلاث بوصات، وهو شيء لن تستمتع به.

كان ليتل وورم يحدّث نفسه ويحدث جلبة، ووضعت زو شا بيضة مسلوقة صغيرة في فمه. كانت قنينة الحليب لا تزال على الطاولة، إذ لم

تكن زو شا ترضعه من ثديها لأن صدرها كان صغيراً جداً، ولم يكن يدّر حليباً.

«ما إن تنجبين طفلاً حتى تتغيّر حياتك كلها. فإن لم تكوني على استعداد نفسي تام لذلك، فمن الأفضل ألا تنجبي طفلاً»، قالت زو شا ذلك بنبرة شخص يعرف جيداً عما يتحدث عنه.

قلت لنفسي: ها هنا مثال على طفل يدّمر زواجاً. إذ كانت تقبّل ابنها مائة مرّة في اليوم، أما أبو الطفل فلم يكن محظوظاً كثيراً.

«هل تعرفين أن إيريك سيأتي إلى شنغهاي؟» قلت لأغيّر الموضوع.

تنهّدت زو شا، إلا أن تعابير وجهها أبدت عدم اكتراثها. «هل تصدقين ذلك؟ إنهم دائماً هؤلاء الشباب؟ فأنا لست مديرة مدرسة للأطفال».

«لأنهم شباب فهم يقعون في حبك من أول نظرة، ويقومون بأشياء مجنونة كالسفر عبر البحار إلى شنغهاي لرؤيتك. متى سيحدث لي شيء كهذا؟» تنهّدت وتذكرت موجو.

فجأة بدأ ليتل وورم يضحك، ويركل بقدميه حضن أمّه، ماداً يده نحوي. حملته وقبّلته.

في مساء ذلك اليوم، عندما وصلت إلى البيت أضاءت الأنوار كلها في البيت، ووضعت قرص سي دي لعازف الجاز اللاتيني العظيم غيلبيرتو بيبيل ورحت أستمع إلى معزوفة Tanto Tiempo التي لم أسمعها منذ فترة، وألقيت القمامة، وجلست على الأريكة التي يكسوها قماش أسود مائل إلى الأخضر. لم أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك.

لم أشعر بالرغبة في النوم. كان عقلي يقظاً، ولم أكن أشعر بالنعاس مطلقاً. أحسست بالوحدة، تلك الوحدة التي تشبه نور مصباح يخترق

وهجه أعمق أعماقك. كان صوت بيبيل الرقيق العذب يجعلك ترغبين في أن تجدي أحداً يشاركك الأمسية.

رحت أدندن بصوت خافت مع الموسيقى، مندهشة من أني اكتشفت فجأة أني لم أعد أرى في النور الخافت أية ظلال. كنت جالسة بمفردي على الأريكة، حتى بدون ظلّي.

لم يكن هناك أحد ينادي اسمي برقة، لم يكن هناك أحد يلمس ركبتي.

واصلت الدندنة، ثم توجهت إلى الحمّام، وملأت الحوض بالماء وأضفت إليه حبيبات معطّرة وتمددت في الحوض.

استلقيت في الماء الحار. فركت جسدي بليفة إسفنجية وردية مستديرة. كانت تنطلق من قرص السي دي موسيقى «وحيدة»، وكانت بيبيل تعيد هذه الكلمة مراراً: «وحيدة، وحيدة، وحيدة». كانت كلّ جارحة من جوارحي تغني معها «وحيدة، وحيدة، وحيدة». سمكة عالقة في شبكة تكافح للخروج منها، وردة تجاهد لكي لا يقتلعها أحد، امرأة منداة بالنشوة تصبح في طي النسيان. إلا أن ثمة شيئاً أو شيئين يظلان في مكانهما دائماً. فقد تشكلت في السكون قطرات من البخار وأضحت لآلئ صغيرة من الماء وراحت تقطر من السقف، محدثة صوتاً رقيقاً ضعيفاً.

خرجت من حوض الحمّام، وتدثرت بمنشفة كبيرة، ورحت أتعثر في مشيتي، منهكة، إلى غرفة النوم.

رنّ الهاتف. رفعت السماعة وسمعت صوتاً رقيقاً باللغة الإنكليزية يقول: «هل التقينا؟»

ذعرت. بدا الصوت مألوفاً، وكانت النبرة مألوفة أيضاً.

«رائع. إذن أنتِ في شنغهاي. . .» ضحك الصوت وأضاف: «قلت لك إني سأراك ثانية».

فجأة بدأ رأسي يلف ويدور. ففي كلّ مرّة يظهر فيها كنت أحسّ بالفراغ. ربما كان في جسده حقل كهرومغناطيسي خاص، وربما كانت نوعية الموجة التي يبعثها مغرية مدّمرة. كان يظهر مثل جسم طائر غريب، عندما لا تتوقعه.

«نِك!» صحت دون قصد، «هل أنت في شنغهاي؟»

٣٠

شجرة عيد ميلاد فراغامو

أستطيع أن أؤكد رسمياً بأن الطريق إلى قلب الرجل لم يعد في زمننا هذا عن طريق الجمال والطعام والجنس أو الجاذبية الشخصية، بل إن الطريق إلى قلبه يكمن في قدرتك على ألا تظهري له أنك شديدة الاهتمام به.

هيلين فيلدنغ، يوميات بريجيت جونز

كان يقف في بهو فندق ريتز كارلتون في بدلته السوداء ماركة أرماني، عندما دخلت من الباب الدوّار وعبرت المجرى المائي فوق جسر حجري مقوّس بعض الشيء.

كان نِك يبتسم ويمرر يده في شعره السميك. ثم توجه إليّ ليحييني. أمسك خصري برقة وطبع قبلة خفيفة على شفتي. كان رائعاً، أنيقاً ـ وكان الناس ينظرون إلينا.

«إننا الزوج المثالي هنا»، همس في أذني، وكانت عيناه الباسمتان تتنقلان من وجهي إلى ثيابي. كنت أرتدي ثوباً حريرياً أسود أيضاً، وكان جسدي كله أملس صقيلاً.

قال: «تبدين رائعة وأنت ترتدين الحرير». شكرته.

«إن رؤيتك مرة أخرى أشبه بالحلم. لا تعرفين كم أنا سعيد»، قال وأمسك يدي وقادني نحو قاعة الولائم في الطابق الثاني حيث كانت تقام حفلة خيرية كبيرة.

قلت: «أنا سعيدة أيضاً، لكنها لا تبدو حقيقية، إنك تجعل الحياة تبدو هزلية مثل فيلم من أفلام هوليود».

قال: «منذ طفولتي كنت أحبّ أن أكون مختلفاً. فالحياة العادية لا تناسبني». كنا قد وصلنا إلى باب قاعة الولائم وأومأ الندل وانحنوا لنا، وخاطبوه باسمه. كان من الواضح أنهم يعرفونه.

«في هذه الليلة لدينا مزيد من الوقت لكي يتعرف أحدنا على الآخر، لكن المهم أن تبدأي بالتعرف عليّ. إني نادم لأني لم أكتب كتاباً حتى تقرأيه وتتعرفي عليّ على نحو أفضل».

هذا يعني أن نِك قرأ كتابي.

«هل تظن أنك أصبحت تفهمني الآن؟» سألته بصوت منخفض.

قادتنا فتاة شابّة إلى طاولة قريبة من المنصة. أخذ يلوّح ويبتسم للآخرين، يحيّيهم. جلسنا.

«إن تطور شنغهاي مدهش حقاً. لم يكن أبواي يعرفان أين تقع شنغهاي إلى أن أرسلت لهما نسخة من كتابك، وقلت لهما أني قد أتزوّجك»، أنهى كلامه، وراح ينتظر ردة فعلي.

رمقته بنظرة وقلت: «شاهدت منذ فترة قريبة فيلماً يابانياً بالرسوم المتحركة مستمداً من قصة إيطالية، وكان فيه شخص أمريكي لم يكن يردد سوى عبارة «أريد أن أتزوجك».

«هل هذا يعني أنك ترفضينني؟» سأل.

«هل كنت تطلب يدي للزواج؟» رددت.

ضحك وقال: «أحبّ لسانك المعسول».

عند ذاك سار أمامنا رجل. أمعنت النظر فيه. لم أكن واثقة تماماً،

لكني أظن أني أعرفه. يا إلهي! فالرجل ذو الشعر الممشط بمزيد من التصنع، الذي يرتدي بدلة أنيقة، لم يكن سوى كي فيهونغ، خطيبي السابق. ولم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ خمس سنوات.

بدا أنه عرفني، فقال: «ياي ياي ياي، انظر من تكون». وعندما مدّ يده ليصافحني، انهمر سيل الذكريات، وعندما قال «يا يا يا» وجدت أن نبرة صوته لم تتغير أبداً. كان لا يزال متهكماً، فيه نزعة أنثوية. وددت لو أتمكن من أن أسدد لكمة إلى أنفه، وعندها سيقول لي: «آي ياي ياي، ماذا تفعلين؟»

أخذت نفساً عميقاً، وبدت على وجهي تعابير محايدة ـ كان هذا تمويهاً أستخدمه أحياناً ـ وقلت: «أوه، كيف حالك؟» ومددت ذراعي وصافحته.

بعد تبادل للتحيات بشيء يشوبه التوتر، وقعت عيناه على نِك. لا بد أن مظهر نِك الخارجي الشبه مثالي كان يترك انطباعاً عميقاً لدى الآخرين. فسألني باللغة الإنكليزية: «هل هذا زوجك؟»

هززت رأسي بسرعة واستغرق نِك في الضحك، وأخذ يربت على كتفه وقال: «هذا تداعٍ جيد للأفكار!»

نادى كي فيهونغ امرأة ترتدي معطفاً شتوياً من الفراء. كانت عروسه الجديدة. لم يكن ثمة عيب في قسمات وجهها، إلا أن وجهها كان من النوع الذي يصعب تذكره. وتذكرت كلمات إكسير بعد الزفاف: «مزهوة بنفسها، لينة الجانب، جميلة، وتفتقر تماماً إلى الجاذبية الجنسية».

تبادلنا التحيات، ثم جلسا إلى الطاولة المجاورة.

«يا له من عالم صغير»، قلت وابتسمت بتكلف.

قال نِك: «لم أعجبه، ألم تلاحظي ذلك؟»

قلت: «لن يحبك رجال كثيرون»، ثم نظرت إليه نظرة جانبية. كان نِك في قاعة الولائم هذه أنيقاً ورقيقاً ولبقاً، يتميز عن الآخرين. إن الله ليس عادلاً أحياناً.

بدأ الحفل. ألقى المضيف كلمة، ثم بدأ الندل يقدمون الطعام على الطاولات، ولم تكن عقول المدعوين تركز عليه.

بدأت بعض الشخصيات البارزة تلقي كلمات من المنصة، بدءاً من زوجة رئيس البلدية ثم رئيس الجمعية الخيرية، وانتهاء بالدبلوماسيين من البلدان التي لها سفارات في شنغهاي ممن كانوا برفقة زوجاتهم. وكان الأطفال من المؤسسات الخيرية يصفقون بشكل جماعي. ثم بدأ المزاد. في القائمة التي بين يدي، كان يوجد وشاح وقّع عليه مغني الأوبرا بلاسيدو دومينغو خلال حفل كان قد أقامه مؤخراً في شنغهاي، وقناني من النبيذ الأحمر الفرنسي الممتاز، وملصق موقّع من كأس بطولة التنس التي أجريت في شنغهاي في عام ٢٠٠٢، وشجرة عيد ميلاد فراغامو، ووجبة طعام تكفي لعشرة أشخاص يعدّها كبير الطباخين في فندق ريتز كارلتون، ودرس بيانو مجاني يقدمه عازف بيانو عالمي شهير، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

كان الدلاّل ينادي أسماء المواد بإيقاع موسيقي. وعندما وصل إلى شجرة عيد ميلاد فراغامو، شارك نِك في المزاد. قال: «أريد أن أقدّمها لك لكي تفكري بي حتى لو لم نمضي عيد الميلاد معاً».

بدأ المزاد على الشجرة بمبلغ ٨٠٠٠ آر إم بي، وبدأ يرتفع شيئاً فشيئاً حتى لم يبق يتنافس عليها أخيراً سوى نِك وكي فيهونغ.

قلت له هامسة: «كفى».

فقال نِك وهو يكوّر قبضتيه: «لم يعد الأمر يتعلق بالشجرة»،

وأضاف: «أصبح الأمر يتعلق بكرامتي كذكر. إنه شيء سخيف». ووسط صيحات الدلاّل، رفع نِك يده ثانية ليزيد الثمن.

«أنت مجنون»، قلت بصوت منخفض، «يمكنك أن تشتري سبعة أزواج من مانولو بلانِكس بهذا المبلغ».

قال: «لا تعجبني الطريقة التي يحدّق فيها خطيبك السابق في ساقيك». غيّرت وضعية ساقيّ.

«تذكّري أننا جئنا إلى هنا لنتبرع لهؤلاء الأطفال الجميلين». غمزني بعينه وابتسم لي. نظرت إلى الأطفال من المؤسسات الخيرية الذين كانوا يجلسون بجانب بعضهم بسعادة، فأغلقت فمي.

عندما انتهت الحفلة، سأله الندل أين يمكنهم أن يسلموه شجرة عيد الميلاد الغالية تلك. فقال نِك: «من الأفضل أن نذهب إلى بيتك الآن. يمكنني أن أقترح عليك المكان المناسب الذي تضعينها فيه».

قاطعته قائلة: «ربما كان علينا أن نضعها في غرفتك أولاً، وعندما تغادر، يمكنك أن ترسلها إلى بيتي». نظر نِك إليّ وكأنه يراني من الداخل فابتسمت قليلاً وقال: «لا تقلقي يا طفلتي، سنفعل ما تريدينه».

استدار وقال للنادل: «أرجو أن تأخذها إلى غرفتي». ظننت أن هذه كانت فرصة جيدة لكي أودّعه وأذهب.

قلت: «يجب أن أذهب. شكراً لدعوتك لي، فقد أمضيت وقتاً ممتعاً هذه الليلة».

أمسكني من ذراعي بقوة وقال وهو يحدّق في عينيّ: «عشر دقائق فقط! لنذهب إلى غرفتي. فقد نسيت أن أقدم لك هديتك، إنها هناك، وتستطيعين أن تغادري عندما تشائين، اتفقنا؟ أعدك بذلك».

لم أستطع أن أقول لا.

كنا نسير كموكب وراء شجرة عيد الميلاد الضخمة. أخذنا المصعد ومشينا في الممر. وحيثما ذهبنا، كان الناس يحيوننا. وعندما وصلنا إلى جناح نِك المؤلف من أربع غرف، وضع النادلان الشابان وهما يزفران وينفخان، الشجرة الضخمة الزاهية الألوان بجانب الأريكة في غرفة الجلوس. «ممتاز!» وأعطى نِك النادلين إكرامية وأغلق الباب. كانت في عينيه نظرات هيام.

وقفت مذعورة قرب الشجرة، وذراعاي مثنيان بإحكام. الآن ماذا يجب أن أفعل؟ حتى امرأة غبية يمكنها أن تتوقّع ما الذي سيحدث بعد ذلك. «لكن ليس الليلة. . .» : قلت لنفسي. يجب أن أحافظ على عفتي، على الأقل هذه الليلة.

سألني: «هل تريدين أن تشربي شيئاً؟» كانت هناك نبرة متوترة واضحة في صوته. كانت شهوته تتأجج وتتصاعد من باطن قدميه.

فقلت: «لا شكراً»، مع أني كنت اشعر بالعطش، ونظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار.

كان من الواضح أنه كان حساساً إزاء موقفي، وقال بسرعة: «قلت لك عشر دقائق! ربما بقي لدينا أربع دقائق». ثم اندفع إلى إحدى الغرف حيث توجد حقائبه وفتش فيها بسرعة، ثم أخرج شيئاً ملفوفاً بورقة أرجوانية اللون.

«لا أعرف إن كانت ستعجبك أم لا. إنه كتاب قرأته عدة مرات». فتحته ورحت أقلّبه. كانت رواية «ذئب البوادي» لهيرمان هيسة. أخذ يراقب قسمات وجهي ثم سألني: «ألم يعجبك؟»

لم أعرف كيف أجيبه. فقد كان عملاً مثيراً آخر! ولم يكن يلعب وفق القواعد المعروفة. إذ كان يفاجئني دائماً، لكن هديته هذه كانت أكثر خطورة. فقد حوّلت أهمية الكتاب الأمور بيننا إلى شيء جدّي. إذ

إن تقديم كتاب لامرأة لا يمت بشيء إلى تصرفات كازانوفا. ولم أشأ أن أربط ذلك بالسعادة العادية السهلة المنال.

إذ سيظل دائماً الجسم الطائر الغريب المتنكر في زيّ كازانوفا، يظهر في المكان والزمان اللذين لا يتوقع أن يظهر فيهما، لكنه سرعان ما يختفي ثانية.

«لا»، قلت بحذر، «لقد أعجبني. شكراً».

لم أقل له أن هيسة كان قد أصبح في الآونة الأخيرة أحد الكتّاب الأثيرين لديّ.

«ما زال لديّ دقيقة»، قال بصوت منخفض، «دعيني أوصلك إلى المصعد».

خرجنا من الغرفة. «ألا ترغبين حقاً في أن أوصلك إلى البيت؟» سأل مرة أخرى.

ابتسمت وقلت: «إن شنغهاي أكثر أماناً من نيويورك».

قال متنهداً: «إن هذا يحزنني». لكنه قرّر بسرعة أن يبدو مبتهجاً، وابتسم ثانية. «في الأيام القليلة القادمة، هل ترغبين في أن تريني معالم شنغهاي؟»

كانت هناك هالات داكنة تحت عينيه. ربما كان ذلك بسبب إرهاق السفر.

عندما وصلت في مساء ذلك اليوم إلى البيت ونمت، كان الأرق أشبه بسحابة دخان تنبعث من مصباح علاء الدين وتغلّف رأسي.

قرّرت فجأة أن أنهض وأتصل بموجو في نيويورك. بعد أن ضغطت على أرقام هاتفه، سمعت صوته من جهاز تسجيل المكالمات. لم أترك له رسالة، بل وضعت سماعة الهاتف واتصلت مرة أخرى. لم يكن

هناك ردّ. بعد أن استمعت إلى رسالته ثانية، وضعت السماعة. كان يكفيني مجرد سماع صوته. فقد أصبح صوت موجو الأجش على جهاز تسجيل المكالمات وسيلة الاتصال الوحيدة مع الحياة في نيويورك.

ثم خابرت إكسير. كانت مشغولة آنذاك في مطعم «شنغهاي ١٩٣٣». لم أشأ أن آخذ كثيراً من وقتها، بل أردت أن أخبرها أني رأيت بالصدفة خطيبي السابق في مزاد خيري أقيم في فندق ريتز كارلتون.

«هل رأيت كي فيهونغ؟ هل رأيت زوجته؟ ما رأيك بها؟» انطلقت الكلمات بسرعة من فم إكسير.

«لا يوجد فيها شيء مميز»، قلت بلا مبالاة.

«تماماً»، قالت موافقة. إذ يحبّ الرجال أن يختاروا ذلك النوع من النساء كزوجة لهم. وفجأة تذكّرت شيئاً، فسألتني: «وماذا كنت تفعلين في مزاد خيري في ريتز كارلتون؟»

«هممم» تلعثمت، ولم أعرف كيف أحدّثها عن نِك. كان الشيء كله أشبه بمسلسل تلفزيوني، وخشيت أن يثير ذلك فضولها. قلت لها بطريقة مراوغة: «في الواقع لا شيء، فقد دعاني أحد الأصدقاء».

«يا إلهي، انتظري حتى يصبح لديّ وقت، يجب أن تخبريني بكلّ شيء عن هذا الصديق الغامض»، وضحكت بصوت مرتفع. ودّعنا بعضنا بسرعة وأغلقت سماعة الهاتف.

ثم بحثت عن المجلد الرقيق «رقى الرحمة العظيمة» الذي كان قد قدمه لي سيد الطبيعة الفارغة قبل أن أغادر جزيرة بوتوو. رحت أقرأه بتمعن ثم داعب النوم أجفاني.

في صباح اليوم التالي، كنت لا أزال أحلم عندما أيقظني رنين الهاتف. كنت أعرف تماماً من هو المتصل.

قال نِك: «عندي اجتماع طوال النهار، لكني اعتذرت عن جميع ارتباطاتي هذا المساء. هل يمكنك أن تقترحي عليّ مكاناً يمكننا أن نتناول فيه العشاء؟»

«شنغهاي ١٩٣٣».

كانت ثياب إكسير، صاحبة المطعم، مبهرجة مثل شجرة عيد ميلاد ليلة البارحة. وكان جسدها كله يشع ويومض. وكانت النساء من رواد المطعم يرتدين أفخر وأبهى ثيابهن إلى درجة أنه خيّل إلينا أننا ندخل عرين ثعلب بالخطأ. وشاعت الصدف، أن إكسير كانت تقيم حفلة تدعى «ليلة الفاتنات». وكانت قد قالت لي على الهاتف: «في الواقع إنها لعبة تشتري فيها النساء الرجال». وقد ازداد حماس نِك للذهاب عندما سمع ذلك.

سألته: «هل تريد حقاً أن تذهب؟ فهي ستكون مليئة بالنساء اللاتي لا يشعرن بالرغبة في الرجال، وبعض المثليين وبعض الرجال المسنين المولعين بالصغار».

قال: «فلنذهب».

جلس معنا آدم، صديق إكسير الجديد، إلى الطاولة. كان لهذا الأسترالي ذي العينين الخضراوين، بشرة متوردة، وأنف بارز يجعلك تفكر على الفور بالجزء الآخر من جسده. كان أنيقاً في ثيابه، لكن كان ثمة خطأ في أسلوبه وكلامه. كان ثمة شيء على غير ما يرام. وكانت روح الدعابة لديه تخلو من الذوق أحياناً. ففي آخر مرّة اتصلت فيها بإكسير، ردّ على الهاتف وقال: «إكسير؟ إنها مشغولة بشيء في حضني الآن. ها ها، إني أمزح ، ها هي قادمة».

كانت إكسير مشغولة مع الزبائن. جاءت بعد نصف ساعة، ونظرت خلسة إلى نِك نظرة فيها الكثير من الدلال، ثم جلست وقبلّت آدم وقالت: «إن الحفلة على وشك أن تبدأ!»

أخذنا نأكل ونشرب. ثم توقّفت الموسيقى بغتة. ألقى رجل يضع مكياجاً بضع نكات، ثم خرج رتل من الشباب وراحوا يسيرون تحت الأضواء. كان هناك رجال من جميع الألوان، إلا أن معظمهم كانوا من البيض، وكانوا جميعهم وسيمين، وكان أحدهم يشبه توم كروز.

سألتها: «يا إلهي، من أين أتيت بهم؟»

«نصفهم يعمل في المطعم، ونصفهم الآخر طلاب أجانب. فقد وضعت إعلاناً في قسم الإعلانات باللغة الإنكليزية، وجاءني خمسون رداً على الفور. إذ يوجد الآن الكثير من الأجانب الفقراء في شنغهاي»، قالت إكسير، وأخذت نَفَساً من سيجارتها.

هزّ نِك رأسه وقال لي: «لا تحدقي كثيراً في هؤلاء الفتيان».

بدأت الزبونات يسلكن على سجيتهن. وكنّ يطلبن شاباً يحظى بإعجابهن فيتوجه إلى طاولتهن ويقوم على خدمتهن، فيصب لهن النبيذ، ويشعل لهن سجائرهن ويبقى في صحبتهن. وبالطبع يدفعن له إكرامية سخية لقاء ذلك. وقد لفت «توم كروز» انتباه عدة نساء، وبدأت في الحال حرب المزايدات عليه. وفي النهاية، كسبت طاولة النساء اللاتي دفعن مبلغاً أكبر.

«أمر ميئوس منه»، قالت إكسير وهي تفرغ كأس النبيذ في جرعة واحدة.

فقلت: «لكن هذه فكرتك».

فقالت إكسير: «إن الزبونات يحببن ذلك».

ثم قال آدم: «إن لهذا علاقة بالطاقة. طاقة عصرنا. فالرغبة في الحصول على حقوق المرأة أصبح شيئاً غير عادي. وإن هذا سيدمر العالم في نهاية المطاف».

ذهبنا أنا وإكسير إلى حجرة المعاطف. وما أن دخلنا حتى سألتني: «من أين عثرت على هذا الرجل؟» ووضعت يديها على صدرها، وأغمضت عينيها وأطلقت تنهيدة، ثم أضافت: «يا إلهي، كم هو جذاب. لقد وقعت في غرامه أيضاً!» وعانقتني.

فقلت: «إذن خذيه، فهو لك»، ورفعت حاجبيّ ورحت أسوّي شعري في المرآة.

«بجدّ، إنه أفضل من جميع أصدقائك القديمين مجتمعين. وأخذت ترتب شعرها في المرآة.

نظرت إليها باستغراب. فهذه أول مرّة لا تنتقدي فيها رجلاً أرافقه، بل راحت تكيل له المديح بسخاء شديد.

«يجب ألا تفكري بموجو، ويجب ألا تفكّري بالحبّ الأبدي. فرجل مثل نِك جدير بهذا حتى لو كانت هذه العلامة مجرد علاقة عابرة»، قالت وهي تضع أحمر الشفاه بعناية أمام المرآة، ثم أردفت وهي تقهقه: «إذا لم يعجبك، فما رأيك في أن تعيريه لي لليلة واحدة؟

لم أرغب في أن أعترف بذلك، لكنني وافقت على ما قالته إكسير. إذ أن معظم النساء يفكرن بذلك. فليس من المحتمل أن تصادفي في هذه الحياة رجلاً يمكنه أن يرضي جميع أحلامك مثل نِك. فهو يتمتع بجميع المزايا، تماماً كالأزهار التي تتفتح براعمها في الليل: رائع إلى درجة لا تصدق، ثم يختفي دون أن يخلّف وراءه أي أثر.

سألتني: «ما رأيك بآدم؟»

قلت: «أفضل مما كنت أظن، بما أنك تحبين الرجال المجانين».

خرجنا من حجرة المعاطف، وجلسنا قليلاً.

قال نِك: «يجب أن نذهب»، ثم التفت إلى إكسير وقال: «هل تريدين أن نلتقي في حانة أخرى أم نودّع بعضنا الآن؟»

«ستنتهي الحفلة في وقت متأخر». قالت إكسير وغمزتني: «أرجو أن تمضيا وقتاً ممتعاً».

٣١

هل أنت بحاجة إلى سبب لكي تحبّين؟

لا تهددني بالحبّ، يا حبيبي.
هيا لنمشِ تحت المطر.

بيلي هوليداي

في جناحه الفاخر، كانت الأضواء المتعددة الألوان تتلألأ فوق شجرة عيد الميلاد.

جلسنا على الأريكة نشاهد فيلم فيديو كنا قد اشتريناه اسمه «هوية بورن» من بطولة مات دامون وفرانكا بوتينت. وكانت توجد مجموعة كبيرة من أفلام الفيديو فوق جهاز التلفزيون. فعندما يأتي الأجانب إلى شنغهاي، يندهشون عندما يكتشفون أنهم يستطيعون شراء فيلم بدولار واحد من الشارع. لم يعجبني الفيلم لكني أحببت فرانكا، التي تناولت معها العشاء وتجاذبنا أطراف الحديث ذات يوم عندما كنت في زيارة إلى ميونخ. فقد كانت لديها تعابير صارمة لا تجدها في هوليود غالباً، وأظن أنها أجادت في فيلم «اهربي لولا، اهربي»، وكان نِك من المعجبين بها أيضاً.

ألمّ بي صداع في منتصف الفيلم.

قلت: «يجب أن أذهب».

أمسك وجهه وأطلق تنهيدة: «منذ أن التقينا، لم تكفي عن ترديد هذه العبارة».

أطرقت برأسي.

«ألا أعجبك أبداً؟» سألني وعيناه مثبتتان على الشاشة، وارتسمت على وجهه تعابير قانطة. «هل أستطيع أن أجعلك تحبينني قبل أن أجعلك تقولين «يجب أن أذهب» مرة أخرى؟» كانت عيناه لا تزالان مثبتتين بعيداً عني.

أثارت تعابير وجهه القانطة حنقي. فالحقيقة أني أُفسدت منذ أن رأيته أول مرة، وكأني كنت أريد أن أتهاوى.

سألته: «هل تحبّني؟» لا بد أنه كان سؤالاً غبياً. التفت وقال مبتسماً: «ماذا تظنين؟» مستمتعاً بحماقتي.

سألته: «ماذا؟»

فأجاب: «هل أنت بحاجة إلى سبب لكي تحبين أحداً؟»

قلت: «لا أزال على علاقة بشخص آخر». وانهمرت دموعي.

«حسناً!» تنهّد وضمني بين ذراعيه، وراح يمسد شعري. «إن هذا يجعلني أزداد رغبة في أن أقع في حبّك. أريد حقاً أن أحملك إلى السرير، لكنني لا أريد أن أستغل كرب أحد، إلا إذا جاء يوم وأردت أن تنامي معي»، وأمسك يدي ووضعها أسفل بطنه. كان شديد الصلابة، بل كان هناك أثر خفيف من النداوة في بنطاله. لكني أبعدت يدي على الفور.

«هل يمكنني أن أوصلك إلى البيت؟» سألني برقة.

ودعَّ أحدنا الآخر عند باب منزلي، وقال: «هل لديك وقت غداً؟

أريد أن أراك كلّ يوم قبل أن أغادر»، ثم أضاف: «فكّري في الأمر. فعندما نكون معاً، تصبح كل ثانية متعة، حتى عندما نشاهد فيلماً معاً! إن هذا يجب أن يعني شيئاً. إني أحبّك حقاً، وإلا لما قدمت لك هيرمان هيسة. انظري إليّ، أصغي إليّ يا حبيبتي، إنك تختلفين عن الأخريات، إنك مليئة بالتناقضات، وأنا يفتنني ذلك».

وبعد ذلك، بدأنا نرتاد كلّ ليلة مختلف المطاعم والحانات في شنغهاي. وفي بعض الأحيان، كان يحضر معه مساعده، رجل أمريكي يضع نظارات، لذلك دعوت زو شا وإكسير لتنضما إلينا كذلك.

كان نِك يعرف أن إيريك سيأتي إلى شنغهاي، فقال لزو شا: «إني أخشى على إيريك. فقد يبدو عقلانياً في الظاهر، لكنه في الواقع يدمن التخيلات».

فقالت زو شا: «وأنا أخشى على نفسي. فأنا لا أشعر بشيء تجاه الرجال الآن».

وقالت إكسير: «لقد قرأت مقالة تقول إن الأشخاص ذوي الشفاه الرقيقة يكونون عادة غير مبالين وباردين، أما الأشخاص ذوو الشفاه الغليظة فهم جديرون بالثقة».

فاستدرنا جميعنا لننظر إلى شفتيّ نِك. ابتسم لنا، كاشفاً عن صف من الأسنان البيضاء كالثلج.

وصف نِك حياة الليل في شنغهاي بأنها «حياة ليل نموذجية في المدن الكبيرة». صحيح أن حياة الليل في شنغهاي ازدادت فسقاً وتعقيداً، لكنها تغيّرت كثيراً خلال السنوات الثلاث منذ أن كتبت رواية «شنغهاي بيبي». فقد ظهر الآن فنانون يتحدون التقاليد، وازداد عدد المديرين التنفيذيين الذين يرتدون بدلات ضيّقة.

كنت أتفحص دائماً حجرات المعاطف في المطاعم. إذ يخيّل لي أنك تستطيع أن تعرف نوعية المطعم من مراحيضه ـ ويُعرف ذلك «بفحص النمر من بقعة واحدة».

في حجرة المعاطف في مطعم TMSK ، كانت توجد زهرة لوتس كبيرة من الكريستال. وكنت عندما تلمسها، تطلق رذاذاً من الماء بشكل آلي. ويبدو أن لها أهمية دينية لصاحب المطعم.

وعلى باب حجرة المعاطف في النادي «رقم ٧»، توجد صورة كبيرة لرجل بدين منحن وهو يعدّ رزمة سميكة من النقود. وكان النادي مسكن دو ييشينغ، رئيس عصابة إجرامية في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي. وفي حجرة المعاطف في نادي «الأبواب» توجد مرايا مزخرفة يمكنك أن ترى فيها عدداً لا يحصى من الانعكاسات عن نفسك. وفي «الغرفة فا فا» جدار عليه نماذج مختلفة من الفراشات الرائعة، إلا أن النظر إليها لوهلة أثار الذعر في نفسي. وكان الجدار الخارجي لحجرة المعاطف في فندق «غراند هايات ٨٨» من الزجاج الشفاف، يجعلك تشعر وكأنك تتبوّل على مرأى من المدينة كلها. أما حجرات المعاطف في «بارك ٩٧» فهي الأكثر إثارة في شنغهاي: مصابيح وردية، أريكة حمراء كبيرة، أزهار بيضاء. وهي تشبه بيتاً قديماً للدعارة في شنغهاي. إذ تبدو بشرة المرأة تحت ذلك الضوء الوردي، دافئة وملساء ونقية، حتى أن الهالات تحت عينيها تختفي. وعند افتتاحه، كانت تقف أمام الباب امرأة من شنغهاي متوسطة العمر ترتدي قميصاً أبيض. وكانت تُجلس الضيف على كرسي وتقوم بتدليكه لقاء مبلغ زهيد.

أتذكّر بإعجاب تلك المدلّكة ذات القميص الأبيض. فقد كانت تقوم بعملها وتظهر على وجهها تعابير حيادية، لكن كانت تنبعث من ثنايا قميصها الأبيض الفضفاض رائحة الخزامى المجفّف، وكأنها خرجت من صندوق خشبي قديم معطّر بالخزامى.

في ذلك اليوم، هطلت أمطار غزيرة وفجأة أصبح الطقس بارداً. جلست في غرفتي ورحت أدوّن في مفكرتي.

كانت المدفأة موقدة. وكانت الغرفة دافئة، إلا أن عالماً آخر كان يقبع وراء النافذة الزجاجية. فأنا لا أحبّ الطقس البارد، لكنني أجد متعة دائماً بالأيام الماطرة. قال لي موجو يوماً إن هذا هو سبب طاقة ين المفرطة في جسدي، مع أني كنت أظن أن هذا سببه انخفاض ضغط الدم. كما قال موجو إنه لم ير امرأة فيها متناقضات كثيرة، وإن جسدي مليء بطاقات متصارعة ـ وفي التعابير الطاوية هناك فيض من اليانغ، بالإضافة إلى فيض من ين.

أغلقت المفكرة، ووقفت أمام النافذة ورحت أراقب المطر. كانت السيول تجري، وبدا أن العالم كله سيتهاوى. وقد زاد ذلك من الإحساس بالهدوء والأمان في الداخل. لم أتمالك نفسي عن أن أبتسم.

كان هذا هو آخر يوم لنِك في شنغهاي. وكان سيأتي بعد ساعة ويصطحبني لنتناول العشاء في مطعم إيطالي. فقد كنا نتناول العشاء معاً طوال فترة إقامته في شنغهاي ـ لكن لم يحدث شيء آخر.

ستكون هذه المرّة مختلفة بعض الشيء. كان ثمة تفاهم ضمني بيننا. لم أكن أخشى أن أنام مع رجل ـ بل على العكس تماماً، كنت أجد متعة في ذلك. أما عندما كنت أواجه نِك، وهو شيء يدعو للغرابة، كانت تراودني كلمة «العفة»، عفة من الممكن أن تجسدّني.

ومما يثير الدهشة، إن نِك كان يشعر بأنه مقيد أكثر مما لو كان في نيويورك أو في إسبانيا ـ وإلا لما تمكنا من قضاء أيام سهلة عديدة معاً.

رحت أجول من غرفة إلى أخرى. كنت قد غيّرت ثيابي، وارتديت كالعادة فستاناً من الحرير الأسود فيه مسحة من اللون الأخضر وضيّقاً

جداً. ثم خطر ببالي أن ثمة شيئاً ناقصاً. في الحمّام وجدت قرط الياقوت الذي كان موجو قد اشتراه لي في الأرجنتين، وعلقته في أذني. لم أتمكن من وضع العقد الذهبي الأبيض لأنه لم يكن يليق بالثوب. ابتسمت للفتاة في المرآة ـ لا بد أنها تحبّ الأوضاع المعقّدة وأنها كانت مليئة بالتناقضات.

رنّ الهاتف. كان نِك ينتظر في الطابق الأرضي في السيارة. انتعلت حذاء ذا كعب عال من ماركة فيا سبيغا وهبطت الدرج.

فتح باب السيارة وجرى إليّ ممسكاً بمظلة. «أسرعي يا حبيبتي، وإلا سنذهب سباحة إلى العشاء».

قاد السائق السيارة ببطء تحت المطر الذي كان يهطل بغزارة شديدة. كانت ساعة الازدحام.

تململ نِك، وبدا أنه أصبح نافد الصبر.

لمست يده وابتسمت له وقلت: «كيف تشعر الآن؟»

قبّل يدي وقال: «أفضل بكثير». ولم يعد يحدّق في السيارات المبللة بالمطر التي كانت تتحرك ببطء في هذا الازدحام الشديد. وفي النهاية قال لي: «أتعرفين؟ لقد أصبحت مختلفة عن المرّة التي رأيتك فيها أول مرّة».

نظرت إليه مبتسمة، وتساءلت عما سيقوله بعد ذلك.

ثم قال: «يا للعجب. إنك تبتسمين أكثر مما كنت تبتسمين عندما كنت في نيويورك أو في إسبانيا».

ابتسمت حتى ازورّت عيناي، وقلت: «في الحقيقة، أنت أصبحت مختلفاً أيضاً».

«كيف؟» سأل بفضول.

«أصبحت تلاحظ أشياء أكثر مما كنت تفعل من قبل. فأنا لا أزال أنا، أنا، أنا، لكنك بدأت تلاحظ شيئاً فشيئاً أشياء أبعد من نفسك».

ضحك بصوت مرتفع وقال: «إنك حلوة للغاية».

كان اسم المطعم «شنغهاي رقم ١». كان مطعماً إيطالياً، ويرتاده مشاهير مثل بافاروتي عندما يأتون إلى المدينة.

جلسنا. جاء النادل مليئاً بالابتسامات. «هل عندكم كمأة بيضاء ونبيذ أحمر جيد؟» سأله نِك. ثم التفت إليّ وقال: «سأعلمك كيف تستمتعين بتناول الطعام غير الصيني».

«لا تهتم بذلك»، قلت ورفعت قائمة الطعام. كانت هناك ترجمة بالصينية لأسماء الأطباق.

لم نقل شيئاً عندما طلبنا الطعام وبدأنا نأكل.

«قل شيئاً» أنزلت شوكتي ونظرت إليه. فلم أكن معتادة على صمت نِك.

«ابق معي الليلة»، قال، ونظرته الزرقاء التي لا يرّف لها جفن تخترقني، وقد التوت زاوية فمه نحو الأعلى. كان يبدو في تلك اللحظة أنه مستعد لسحق أي شخص يقف في طريقه.

عندما تناولنا الطعام وسددنا الفاتورة، حملني نِك على ظهره، وهبط بي الدرج من الطابق الثالث إلى الطابق الأول. في البداية حاولت جاهدة أن ينزلني من على ظهره، ثم خشيت أن يتمزق ثوبي الضيق فهدأت واستسلمت. تركته يحملني على ظهره، وكانت ساقاي تخرجان من الفتحتين على جانبيّ الكيباو، ومرّة أخرى أصبحنا فرجة للناس. فلا عجب أن نِك كان يجد متعة كبيرة في أن يبدو متميزاً عن الآخرين.

جلست على الأريكة إلى جانب شجرة عيد ميلاد فراغامو، ومددت

ساقيّ وأسندتهما فوق المنضدة الصغيرة أمامي، ورحت أغيّر قنوات التلفزيون بالريموت. أذيع خبر على محطة السي إن إن يقول إن البيت الأبيض لا يستبعد إمكانية القيام بعمل عسكري ضد العراق. وكانت محطة البي بي سي تتحدّث عن مشكلة الأسلحة النووية في كوريا الشمالية. وأخيرا انتقلت إلى محطة إم تي في ورأيت فتيات يرتدين ثياباً تشبه المصاصات وهنّ يغنين ويرقصن.

في هذه الأثناء، كان نِك ينقل أشياء من غرفة إلى أخرى. قال «كم أكره أن أرتب أمتعتي بنفسي. لو تزوجنا، فهل ستحزمين لي أغراضي؟»

«إذا حزمت لك أغراضك، فهل تتزوجني؟» أجبت، وعيناي مشدودتان إلى التلفزيون.

وضع كأس عصير جزر ولوحاً من الشوكولاته تحت أنفي.

قلت: «شكرا، إنك حقاً طيب القلب».

قال: «الليلة أنا عبدك المطيع. إذا لم أرضيك، يمكنك أن تصفعيني على مؤخرتي».

استعمل كلّ منا حمّاماً مختلفاً. جعلني أستعمل الحمّام الأكبر والأجمل. جلست في حوض الحمّام أقضم أظافري وأحدّق في الفضاء حتى أخذ يقرع الباب.

قلت: «بعد خمس دقائق». كنت أحسّه واقفاً ينتظر في الخارج. وبعد خمس دقائق قرع الباب ثانية.

«كوكو، هل أنت على ما يرام؟»

قلت: «أنا على ما يرام»، ونهضت ببطء وخرجت من حوض الحمّام. جفّفت جسدي ودهنت بشرتي بمرهم مطرٍ. ثم عدت وارتديت ثوبي الأسود المائل للأخضر وعلقت قرطيّ الياقوت على أذنيّ.

فتحت الباب ونظر نِك إلى ثيابي مندهشاً وقال متساءلاً: «ماذا ستفعلين؟»

تمددت على السرير. أخذ يلمس الحرير الناعم الزلق الذي يكسو جسدي. «إنه جميل جداً. من المحزن أن أمزّقه». كان يتطلع إليّ ويلهث مهتاجاً.

منحته قبلة طويلة، ثم تركته يفعل ما يشاء. دمدمت: «هيا، أرجوك. كم أحبّ صوت الحرير وهو يتمزّق ـ إنه أكثر الأشياء إثارة للشهوة في العالم».

«ماذا سترتدين غداً لكي تعودي إلى بيتك؟» سألني فجأة.

قلت له: «عندي ثياب أخرى في حقيبتي». نظر أحدنا في وجه الآخر بضع ثوان، ثم انفجرنا ضاحكين.

قال: «يا إلهي، لم أر في حياتي امرأة مثلك»، وأضاف: «سأعود في الحال». توّجه إلى خزانة المشروبات وهو عاري الصدر.

بعد أن جرع نِك عدّة كؤوس، تحوّل إلى باخوس، إله الخمر والعربدة، وبغتة أصبح متوحشاً، همجياً، وراح يمزّق الحرير الملتصق بجسدي بمهارة. وأصبح الحرير الممزّق مثل بتلات ورود رائعة. كان صوت التمزيق رقيقاً، حساساً لا يضاهيه شيء، مثيراً نشوة في أعماق الجسد.

وبعد أن جاشت الشهوة في نفسينا، استسلمنا لكلّ شيء، كلّ شيء... فقد مُزّق العالم، وأصبحنا نحن الأجزاء الممزقة تتطاير بصمت في الهواء، تتطاير وهي غائبة عن الوعي، تعوم...

لاهثة. ثم ثبت إلى رشدي. وبذعر، أحسست بالرطوبة بين ساقيّ ـ إذ لم يستعمل واقياً ذكرياً. قفزت من السرير وهرعت إلى الحمّام.

تبعني وضمني إليه من الخلف. «يا إلهي، هل أنت على ما يرام؟» هززت رأسي وقلت: «لا أعرف». فتح الصنبور وساعدني في أن أغتسل. كان في غاية اللطف، وأحسست بأني أفضل حالاً بكثير.

«الآن ساعديني» قال وهو يغلق الصنبور.

«ماذا؟» قلت.

وقف أمام المرحاض.

وقفت إلى جانبه، أمسك قضيبه بيدي لأساعده في أن يتبوّل. قلت له: «يا لك من رجل منحرف، فلم يطلب مني رجل أن أفعل له ذلك من قبل».

قال «لقد أفسدتني ـ ثم ندت عنه تأوهة ـ إنه لا يخرج، إن ذلك يجعلني أنتعظ مرة أخرى». نظرت إلى الأسفل، وكان هذا حقاً ما حدث.

زأر كنمر، رفعني، فتح ساقيّ ولفهما حول خصره. أغمضت عينيّ، وأحسست به يلجني للمرة الثانية.

في صباح اليوم التالي، قبّل أحدنا الآخر قبلة وداع سريعة. توجّه هو إلى المطار، وعدت أنا إلى البيت. وبعد فترة من الزمن، نقل موظفو الفندق شجرة عيد ميلاد فراغامو إلى شقّتي.

٣٢

شخص يغادر وشخص يصل

سؤال: الريح تهب والراية ترفرف. هل الريح هي التي تتحرّك، أم الراية؟

المعلّم زن هوي نينغ: لا الريح ولا الراية تتحرّكان؛ بل قلبك هو الذي يتحرّك.

كان صباح اليوم الذي ودعت فيه نِك، بارداً وغائماً ورائحة الفحم المحترق تملأ الهواء. اختفت العصافير، وسقطت آخر ورقة من الأشجار.

عدت إلى البيت منهكة واتجهت مباشرة إلى الهاتف. عندما سمعت صوت موجو على جهاز تسجيل المكالمات، اعتراني شعور بالعجز. لم أفهم ما الذي يحدث من حولي، ولم يكن عليّ إلا أن أتقبّل الأمر.

قال موجو إنه سيأتي إلى طوكيو لحضور مهرجان صانعي الأفلام المستقلين، بسبب مشاركته في الفيلم الوثائقي الذي أعدّه عن المغني الدومنِكي خوليو. كان مشغولاً كثيراً مؤخراً في إعداد المونتاج الأخير للفيلم. وقال إن لديه عدداً من الزبائن التجاريين الجدّد أيضاً.

وقال موجو إنه سيأتي إلى شنغهاي بعد يومين. قرار اتخذه في آخر دقيقة، لأنه شعر فجأة بالرغبة في أن يراني. وترك لي رقم هاتفه في طوكيو وأحدث صوت قبلة عالية وقال: «أراك في شنغهاي!»

أعدت سماع الرسالة عدة مرات، لا لأسمع صوته، بل لأحاول أن أستحضر رائحته. ما هي مشاعره إزاء علاقتنا الآن؟ بماذا يفكر؟ هل سيأتي إلى شنغهاي ليلتئم شملنا، أم ليعلن انفصالنا التام، ونصبح مجرد صديقين عاديين؟

خابرت إكسير. كانت لا تزال نائمة وأجابتني وهي لا تزال تترنح: «أرجوك أيتها الجميلة، انتظري حتى أفيق، سأتصل بك مرة أخرى»، ووضعت السماعة.

خابرت زو شا. كانت في اجتماع مهم. تركت لها رسالة لدى سكرتيرتها ووضعت السماعة.

في تلك اللحظة لم يكن هناك أحد يشاركني إثارتي.

قرّرت أن أتناول طعام فطوري، استحمّ، ثم أتأمل، وأصلّي للآلهة في الأعلى.

جاءت إكسير بسيارتها الصغيرة الخضراء الفولكس فاغن السلحفاة بالطريق السريع. ركبت إلى جانبها في السيارة، وانطلقنا إلى مطار بودونغ. كانت الموسيقى تلعلع في السيارة، لتصرف اهتمامي قليلاً.

لم تكّف إكسير عن الكلام: «أريد أن ألقي نظرة فاحصة لأعرف من هو ذلك الشخص الذي يستحقّ شرف أن تستقبله الحاشية الملكية في المطار. أصدقك القول، إن ما يزعجني هو أنك تبدين اهتماماً كبيراً برجل. تذكري ـ فعندما كنت في نيويورك لم يستقبلك في المطار على الإطلاق. اللعنة، لماذا هذا العدد الكبير من السيارات؟ إذا استمرت زحمة المرور بهذا الشكل، فسيأخذ الطريق أكثر من ساعة لنصل إلى هناك».

رحت أمضغ علكتي، ولم أنبس بكلمة.

«لماذا؟ لماذا؟» قالت إكسير بصوت غنائي، «لماذا النساء غبيات جداً؟»

توقفت إكسير في ساحة وقوف السيارات في المطار. ذررت وجهي بقليل من المسحوق، التفت وسألتها: «كيف أبدو؟»

«وكأنك لم تضعين مكياجاً»، قالت وهي ترمقني، فقلت: «هذا ما أريد».

كانت منطقة الانتظار شديدة الازدحام. كانت تقف امرأة شديدة التبرّج تحمل بيدها باقة من الأزهار.

«سأموت قبل أن أحضر أزهاراً للقاء أي شخص»، قلت بهدوء لإكسير.

ثم أعلنت مكبرات الصوت عن وصول طائرة موجو.

وعلى الفور اعتراني شعور بالقلق، ورحت أذرع الصالة ذهاباً وإياباً، وأخذ العرق ينضح من راحتيّ كفي. أبعدت إكسير نظاراتها الشمسية، وأسندتها إلى رأسها. وبعينين نشيطتين ثاقبتين أخذت تتفحص سيل المسافرين المتدفق عبر البوابة، ثم همست: «يجب أن ألقي نظرة فاحصة عليه».

انتظرنا فترة طويلة دون أن يظهر أثر لموجو. لكنني عندما أدرت رأسي، رأيته فجأة. فقد برز بطوله الفارع من بين ذلك الحشد من الوجوه الآسيوية. كان يبدو أنه فقد الكثير من وزنه. وكان قد خرج من بوابة أخرى، وما أن رآني حتى أسرع نحونا وهو يجرّ حقائبه.

كان أحدنا خجولاً تجاه الآخر على نحو غريب. عانقنا بعضنا بسرعة. لم يكن لقاء حماسياً كما كنت أتخيّل وأنا في طريقي إلى المطار. ثم عرّفته على إكسير فمدّت يدها لتصافحه، لكن موجو مال

إليها وقبّلها على وجنتيها. لم تتوقّع ذلك، وتوردت وجنتاها. تزداد إكسير جمالاً عندما يتورّد وجهها.

لاحظت إكسير طِرف إصبع موجو المبتور. وقالت لي فيما بعد إنها تظن أنه رجل غامض ومن الطراز القديم.

استغرق طريق عودتنا إلى وسط المدينة قرابة الساعة. ناورت إكسير بسيارتها الخنفساء الخضراء ببطء عبر إشارة المرور بهذه السيارة، التي تجلس فيها فتاتان نحيفتان في المقعد الأمامي، ورجل ضخم يشبه الدبّ يجلس مكوراً في المقعد الخلفي. إذ صُمّمت هذه السيارة للنساء، وتستبعد بحجمها الرجال ذوى الأجسام الضخمة. لكن موجو تحمّل هذا الإزعاج بسرور، سعيداً بأن فتاتين جاءتا إلى المطار لاستقباله. إن أيّ رجل سيشعر بسعادة بالغة بهذا التكريم غير المتوقّع. كان موجو وإكسير وسيارتها رائعين إلى أبعد درجة.

عندما وصلنا إلى بيتي، ذكّرتنا إكسير بموعد عشائنا، وذهبت. ساعدت موجو في نقل حقائبه إلى الداخل. بدت الدهشة على وجه موجو عندما رأى البيت من الداخل، فقال: «لم يكن يخطر لي أنه بمثل هذه الأناقة». فلا بد أنه تذكّر نيويورك، عندما كنت أحدث فوضى في المكان الذي أقيم فيه، وأضاف: «لقد تغيّرت كثيراً منذ نيويورك. إن شقّتك جذّابة حقاً». كان يشير إلى طراز الفيلا الفرنسية التي تعود إلى الثلاثينات من القرن الماضي، ذات صحن الدرج الخشبي وشرفتها الضخمة. فقد كانت هناك عدة فيلات كهذه من فترة الامتيازات الأجنبية السابقة، أما الآن فلم يعد هناك سوى حفنة منها.

ثم رأى موجو شجرة عيد ميلاد فراغامو، تبدو مثل إحدى دعامات حرب النجوم. اقترب منها وتفحّصها للحظة، ولم يقل شيئاً. عندما خرجت من المطبخ وأنا أحمل كوب الشاي، ورأيت تعابير وجهه وهو

يتفحص الشجرة، خشيت أن تكون حاسته السادسة قد جعلته يشعر بوجود رجل آخر.

حملنا أكواب الشاي معنا ونحن نتجول في البيت. قال: «لقد أحببت بيتك».

«هذه غرفتك»، وأشرت إلى غرفة فيها طاولة مكتب، وكرسي، ومصباح قراءة جميل، وجهاز فاكس، وبعض الألعاب المصنوعة من الخوخ. نظر إلى حبات الخوخ، ثم نظر إليّ. ابتسمت قليلاً، وابتعدت وكأني لم ألحظ شيئاً.

طوقني موجو من خصري بذراعيه من الوراء، وقال: «لا أستطيع إلا أن أحبّك»، ونفخ هواء دافئاً في أذني، فذبت. سرت رعشة في أنحاء جسدي، وتسارعت خفقات قلبي، وأغمضت عينيّ. كان تفاعلاً كيميائياً، بل مجرد استجابة نفسية.

أمضينا فترة بعد الظهر كلها في السرير، نمارس الحبّ، نتبادل أحاديث غرامية، ثم نعود إلى ممارسة الحبّ.

كانت هذه أول مرّة يزور فيها موجو شنغهاي. شنغهايي أنا، شقتي الفرنسية القديمة، سرير عملاق تنبعث منه رائحة مطر وأزهار خفيفة - لقد شكّل كلّ هذا بيئة سحرية لا تقاوم: سحر شجي من الحبّ والشهوة الشرقية التي لا يمكن لأحد أن يكسره.

استلقينا عاريين تحت الملاءة الحريرية ذات اللون الذهبي الفاتح، وتحت رأسينا وسادات حريرية من اللون ذاته. أخذ يلّف حول أصابعه عدة جدائل طليقة من شعري الطويل، يداعبها ويعبث بها بهدوء.

كان يبدو أن أحدنا لم ير الآخر منذ زمن بعيد. كنت أعرف أنه لا يزال يحبّني وأن جذور حبّه قد امتدت عميقاً أكثر من قبل.

«رائحتك حلوة» قال موجو. كان يردد هذه العبارة دائماً عندما نمارس الحبّ. كان يشم الرائحة التي كانت تنبعث مني بعد أن تأتيني الرعشة. فالنساء يشبهن البخور، وتشبه ممارسة الحبّ إيقاد هذا البخور ليملأ شذاه المكان.

استكنت وتكوّرت بين ذراعيه.

ثم قلت له برقة: «اترك أثراً منك على جسدي».

نظر إليّ.

انقلبت على بطني وتحركت نحوه ببطء ورحت أقبّل رقبته بقوة لفترة طويلة. برزت بقعة حمراء رائعة. «مثل هذه» قلت بلطف، «افعل لي ذلك. يمكنك أن تفعل أي شيء تريده لجسدي، إنه ملك يديك، لكن يجب أن تحبّه، ولا يمكنك أن تتوقف عن حبّه».

أغمض عينيه، وضمني إليه وهو ساكن تماماً، ثم قال: «لا أستطيع أن أتوقّف عن حبّك». وبعد برهة طويلة فتح فمه وقال: «أحياناً عندما ينفصل شخصان، يظن الآخرون أن جذوة حبّهما قد انطفأت، أو يظن هذان الشخصان أن حبّهما قد ذوى، لكن هذا ليس صحيحاً. فالحبّ لا يزال موجوداً. حتى لو لم يدركا ذلك، فالحبّ لا يختفي، إنه يستمر».

أغمضت عينيّ وأحسست بموجة عاصفة غير ملموسة تعصف بالغرفة. كنا نطفو فوق تلك الموجة، وعبير زنبق الماء يتضوع في الغرفة. لم يكن هناك وجود آخر، هذا العالم المتأنّي فقط، نحن الاثنان، أنا وهو، أحدنا يتعلق بالآخر برقة، يستكين أحدنا في الآخر.

«أحبّك». سمعت صوتي وكأني في حلم. يتشابك الحبّ بطريقة ما مع الأحلام.

ذهبنا إلى مطعم شنغهاي ١٩٣٣ مشياً على الأقدام. لم يبق لموجو في شنغهاي سوى يومين، لذلك سيتيح له المشي الفرصة لرؤية بعض

معالم المدينة التي لا يمكنه أن يراها في السيارة. إن وسط مدينة شنغهاي يشبه مانهاتن تماماً ـ فالسير يمنح نكهة وإحساساً بطاقتها.

فيما كنا نتمشى في أحد الأزقة الصغيرة، رأينا مجموعة من الناس. اقترب موجو والتقط بألة تصويره صورة لأربعة رجال مسنين يلعبون «ما هجونغ». وكانت أعمارهم مجتمعين تصل إلى ثلاثمائة سنة. أدخل هذا الحدث السرور إلى قلب موجو. فقد أشبع الرجال العجائز ولعبة «الما هجونغ» فضوله عن الثقافة الصينية.

كانت تحّف الزقاق الصغير من الجانبين بنايات عالية، شاهقة إلى حدّ أنك لا تستطيع أن ترى قممها حتى لو رفعت رأسك. وكان إلى جانبها مبنى لم يكتمل بناؤه بعد، وكانت واجهته مكسوة بشبكة أمان خضراء عملاقة.

سرنا باتجاه شارع هويهي. قال موجو: «إن نساء شنغهاي أرقى من رجالها».

«ربما تظن ذلك لأنك بطبيعتك أكثر حسّاسية تجاه النساء، تلاحظهن أكثر»، قلت أستثيره. إلا أن ما قاله في الحقيقة كان صحيحاً ـ فهي مدينة نسائية.

وصلنا إلى مطعم شنغهاي ١٩٩٣. كانت إكسير قد حجزت لنا ركناً مريحاً بكراسي حمراء وعليها مساند خضراء أكثر نعومة ـ تمنحك الأحاسيس الصينية تماماً، ويمكنك أن ترى من خلالها أنوار الشارع المتلألئة.

برزت إكسير المتشحة بالسواد من باب مؤلف من أعواد الخيزران الخضراء وهي تحمل قفص طيور فارغاً. كانت تبدو حزينة قليلاً، وقالت: «لقد نفق طير صغير»، وعانقتنا. تضوعت منها رائحة عطر أوبيوم.

«سأعود في الحال». وعادت واختفت وراء أعواد الخيزران. كانت إكسير تخطر في مشيتها، ولم يتوقف موجو عن التقاط الصور. «كلّ شيء يشبه فيلماً هنا»، قال موجهّاً عدسة كاميرته إليّ.

«أهلاً بك في مطعم شنغهاي ١٩٣٣!» ونفخت قبلة إلى الكاميرا. أحضر النادل قوائم الطعام. كان موجو يستطيع أن يقرأ القليل من الصينية، لكن أسماء الأطباق كانت مكتوبة باللغة الإنكليزية أيضاً. كان أغلى طبق يدعى «ذبح العشيقة من الرقبة». سأل عن مكوناته، وقلت له إن هذا هو الاسم الذي يطلق على إكسير، صاحبة المطعم، وألمحت إلى أنها رفعت سعر هذا الطبق؛ سكين خفي لسرقة الزبائن. واسم الطبق الأصلي «بوذا يقفز فوق الحائط»، الذي كان الطبق الرئيسي في مأدبة مانتشو وهان الأسطورية. وحسب العادات الجارية، يتم تناول مأدبة مانتشو وهان مدة ثلاثة أيام متتالية، وتضم ١٠٨ أطباق مختلفة، تشمل مكوناتها شرائح من خيار البحر، وزعانف سمك القرش، وبيض الحمام، ولحم خنزير طرياً، ودجاجاً، وبطّاً، وأكثر من عشرين نوعاً آخر، بالإضافة إلى مرق نخاع العظم، ونبيذ الرزّ، واللفت، وخضراوات أخرى ممزوجة بالتوابل بطريقة تعود إلى قرون عديدة. وتتطلّب فترة ودرجة تسخينها عندما تطبخها دقة كبيرة. ثم توضع في جرّة كبيرة فيها مشروب كحولي وورقة لوتس وخبز، وتطهى بدرجة حرارة منخفضة حتى تنضج. وعصيرها رقيق ورائحتها تجعلك تشعر بالثمل والخدر، ومن هنا جاء التعبير «عندما تهب رائحة الطعام إلى جيرانك، حتى بوذا يتوقف عن تأمله ويأتي ويتسلق الحائط».

كان موجو ينصت، وكان وجهه مليئاً بالحب. قال: «لقد سال لعابي. هيا لنجربه».

قلت: «إنهم لا يقدمون هذا الطبق دائماً. وسبب ارتفاع سعره أن الزبائن نادراً ما يطلبونه، كما أن بعض المكونات النادرة لا تتوفر دائماً - يجب أن تسأل كبير الطباخين أولاً».

في تلك اللحظة ظهرت إكسير وفاحت منها رائحة عطر أوبيوم.

«هل يوجد عندكم بوذا يقفز فوق الحائط؟» سألها موجو.

«تقصد «ذبح العشيقة من الرقبة؟» صححت إكسير ما قاله بسرعة، وأضافت: «إن هذا الطبق يسبب لنا مشاكل كثيرة» وأشارت إلى نادل ذي عينين زرقاوين. «اذهب واسأل كبير الطبّاخين إن كان عندنا «ذبح العشيقة من الرقبة».

قلت لموجو: «إذا طلبته فلن تطلب معه شيئاً آخر»، ومددت ذراعي وطوقت خصر إكسير الأهيف وقلت بصوت يشبه مواء القطة: إكسير، ذبح العشيقة من الرقبة... أميرة شنغهاي».

دفعت يدي جانباً وقالت: «حسناً، حسناً - إذا دفعت ثمن الطبق، فسأقدم لك أيّ طبق آخر بالإضافة إلى قنينة من أفضل نبيذ الرزّ، وأقدم لك شاياً من الدرجة الممتازة بلا حد - إذا كان بإمكان معدتك أن تهضم كل هذا».

من حسن الحظ أنه كان يتوفر في المطبخ هذا الطبق، فقد كانوا يعدونه لأحد الزبائن إلا أن طارئاً حدث، ولم يتمكن ذلك الزبون من الحصول عليه. فأخذناه نحن.

قبل أن يتذوق شيئاً منه، التقط موجو صوراً للصينية الكبيرة التي تفيض بأطايب الطعام في القدور الخزفية، وقال: «عندما أشعر بجوع شديد سأرى الشريط»، وأضاف: «من السيئ أن لا يستطيع المرء التقاط الرائحة أيضاً».

أرسلت إكسير عدداً من الأطباق الإضافية، حتى قال موجو: «كفى». فالطعام في نظر موجو منحة تقدمها لنا الأرض.

قالت إكسير: «إن الناس شرهون بطبيعتهم»، وأضافت: «وعليك أحياناً أن تستغل قلوب الناس الشرهين لتكسب المال».

وبتعابير شرهة أخذت إكسير تشرح لموجو عن مأدبة مانتشو وهان الغامضة والفريدة.

قال موجو: «سمعت أنه لكي يواصل المرء تناول الطعام ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة، يتناول البعض مسهلات ويبتلع آخرون شراب الدودة الوحيدة».

قالت إكسير: «هذا لا شيء. قبل مائة عام، عندما أعدّ مطعم في غوانغزو مأدبة مانتشو وهان كاملة، تناول أحدهم حشرات أم أربع وأربعين، وجرذان صغيرة ملفوفة في معجنات. فالناس في غوانغزو يأكلون كلّ شيء».

قلت: «كفي.. إني سأتقيأ»، ونهضت وهرعت إلى المغسلة.

عندما عدت، كانت إكسير قد طلبت من أحد النادلين أن يصنع لي إبريقاً من شاي وولونج. نظرت إليّ وسألتني: «هل أنت على ما يرام؟ هل سبب ذلك الطعام؟ إنك تكثرين من الطعام دائماً».

وقال موجو أيضاً: «إنك تبدين شاحبة».

فقلت: «توقفا عن هذا الهراء. كلّ ما أريده أن أحتسي كوباً من الشاي».

في مساء ذلك اليوم، شاهدنا بعض المناطق الهامة. لم تتوقف كاميرا الفيديو التي يحملها موجو عن التصوير. كان يريد أن يستمد الحكمة والطاقة من كل ثانية في تلك التجربة، وإلا فإنه سيشعر بأن

حياته ستهدر. انضم إلى حشد من الراقصين. لوّح إليّ، وراح يهز كتفيه ومؤخرته بشكل مبالغ فيه، ويبتسم ابتسامة عريضة مثل شاب مراهق.

وقفت إكسير إلى جانبي تشرب التاكيلا وتدخّن سيجارة، «إنه شاب لطيف جداً»، صاحت وكان صوتها يعلو على صوت الموسيقى.

«أعرف»، أجبتها بصوت عال.

«أي منهما تختارين؟ نِك؟ أم هو؟» واصلت إكسير صياحها.

نظرت إليها مندهشة وهززت كتفي، ثم قرّبت فمي من أذنها وقلت: «أتظنين أن لديّ الحق في الاختيار؟ إن القدر هو الذي سيختار يا عزيزتي. فكلّ ما نستطيع أن نفعله، هو أن نواصل الابتسام والدعاء».

«أتعرفين؟ لو كنت في مكانك، لاخترتهما كليهما!»

ضحكت إكسير بمودة. كانت ذقنها مرتفعة ورأسها مائلاً إلى الوراء. وبخلاف زو شا، لم تكن إكسير تضع يدها على فمها عندما تضحك.

«إذن لن تحصلي على أي منهما»، قلت بهدوء، وبالطبع لم تسمع ما قلته.

في اليوم التالي ـ آخر يوم لموجو في شنغهاي ـ بحثنا عن مطاعم جيدة، وذهبنا إلى المخازن الكبرى الغالية، وزرنا المتحف. وفي المساء، بعد أن أرهقنا المشي، ذهبنا إلى صالون لتدليك الأقدام ـ في شارع فوكسينغ الذي أخذتني إليه إكسير عندما عدت إلى شنغهاي. ذكرت لي إكسير أن الشاب ذا الخمسة عشر ربيعاً قد ترك العمل، ولا يعرف أحد إلى أين ذهب.

قلت لموجو: «هذا أفضل صالون لتدليك الأقدام في شنغهاي».

«عظيم»! قال موجو، وألقى بنفسه على الأريكة المخملية. وعلى

الفور خرجت فتاتان وقدمتا أكواب الشاي. ثم أحضرتا حوضاً من الأعشاب الصينية البنية اللون، وغطّسنا أقدامنا فيه.

«يا له من إحساس رائع» قال موجو متنهداً، «يجب أن أنتقل إلى شنغهاي».

أغمضت عينيّ وتخيّلت أني أعيش مع موجو في شنغهاي، ولدينا كلب، وسمكتان ذهبيتان وأربع أو خمس أصص من النباتات وغرفة مكتبه في الطابق الأرضي، وغرفتي في الطابق العلوي، وتهّب من الغسّالة رائحة الملابس النظيفة المعطّرة؛ ونستأجر خادمة تجيد الطبخ، وسائقاً جيد الطباع له لحية غير حليقة، يأخذ موجو إلى العمل في الصباح، ويأخذني إلى صالون تجميل أو إلى مقهى أو مكتبة بعد الظهر، ونشاهد في الليل أفلاماً أو نلعب الما هجونغ مع إكسير وزو شا، ثم نصحو ذات يوم ونكتشف فجأة أننا شخنا وأصبحنا أسطورة لا يكف الناس عن التحدث عنها.

سمعت شخيراً ناعماً، وفتحت عينيّ لأجد موجو يغط في النوم على الأريكة، والمدلّكة الشابة لا تزال تفرك قدميه بيديها.

في مساء ذلك اليوم، حزم أمتعته. ساعدته في إخراج ثيابه الداخلية الجافة وجواربه من الغسّالة. كنا مشغولين ونحن ننتقل من غرفة إلى أخرى، مستغرقين بمهام صغيرة لملء فراغ الخوف من الفراق.

كانت معزوفة كازابلانكا تنبعث من التلفزيون في غرفة الجلوس. عندما مررت بجانب التلفزيون نظرت إلى الشاشة. كان آخر مشهد في الفيلم في المطار ويودع العاشقان أحدهما الآخر. عندها يقول همفري بوغارت إلى إنغريد بيرغمان: «إننا نعرف أنك تحبين فيكتور. إنك جزء من عمله، سبب بقائه. وإذا حلقت تلك الطائرة ولم تكوني معه، فإنك ستأسفين على ذلك. ربما ليس اليوم، ربما ليس غداً، لكن قريباً

وخلال ما تبقى من حياتك»، وتسأل بيرغمان: «لكن ماذا عنا؟» فيجيب بوغارت: «ستكون باريس لنا دائماً».

لم نقل شيئاً عندما استلقينا في السرير. يومان قصيران مرا كومضة عين، كالحلم.

رحت أتقلّب إلى جانبه، وأصدرت النوابض صريراً.

«هل أنت على ما يرام؟» سألني موجو أخيراً.

سألته: «كيف كان شعورك؟».

«ماذا تعنين، كيف؟»

«كيف كان شعورك في الأيام القليلة الماضية التي أمضيتها في شنغهاي؟» قلت، منزعجة قليلاً لأنه يسأل سؤالاً يعرف جوابه.

قال: «كان شعوراً رائعاً. فهناك امرأة طيبة هنا، وطعام لذيذ. إنها أفضل أيام أمضيتها منذ أن رأيتك في آخر مرّة في المطار».

«امرأة طيبة وطعام لذيذ»، تمتمت، غير واثقة في داخلي إن كنت أرغب في أن أصبح واحدة منهن.

ضمني إليه وبدأ يقبّل أذني وعنقي ببطء شديد. سألته: «ماذا يجب أن نفعل الآن؟» أحاول جاهدة أن أبقى يقظة تحت قبلاته.

لم يقل شيئاً، لكنه استمر في تقبيلي. كانت قبله تجيش بالأحاسيس، وفيها الكثير من الاهتمام والحرص ـ لم تكن مجرد رغبة جنسية. بعد أن اعترتني هذه الأحاسيس، استرخى جسدي كله وأصبح دافئاً على الفور. بدأت أبادله القبلات.

ثم بدأت بشرتي تحترق شهوة. كان الجنس اللاهب مع موجو يساعدني على التخلص من مخاوفي ويجعلني راضية تماماً، قادرة على

أن أكتشف ثانية كلّ الحبّ الذي لا يزال موجوداً، جزءاً طبيعياً من جميع الأشياء العالقة بين السماء والأرض والتي تبعث الطاقة والنور.

وبغتة، ودون سابق إنذار، أحسست بموجو يقذف في داخلي ـ أول مرة يقذف فيها منذ أن عرفته. صُدمت حتى أنه كاد يغشى عليّ.

٣٣
ثمرة الحبّ

لا أستطيع أن أختار الأفضل، بل الأفضل هو الذي يختارني.

رابندتانات طاغور

بعد أن اشتدت برودة الطقس، وظهرت الكآبة على وجوه الناس الذين تقوقعوا كالأقزام داخل ثيابهم السميكة، وهم يغذون الخطى في الشارع ورؤوسهم مطرقة إلى الأسفل. وكانت الأشجار على جانبي الطريق قد تعرت، وبدت أغصانها المتغضنة جميلة تحت أنوار الشارع. فقد استحضرت أشكالها صوراً غريبة مثل تفاصيل في لوحة سريالية.

أحبّ أن أرى الفروق التي يعرضها كلّ فصل من الفصول، أنواع الجمال المختلفة. فهي تزيد من قدرتي على فهم الحياة وتقييمها.

بعد أن غادر موجو، لم أشعر بالوحدة. فقد طرأ تغيير دقيق في داخلي.

وتذكّرت ما قاله لي سيد الطبيعة الفارغة في جزيرة بوتوو. ففي داخل كلّ شخص يوجد عالمه الصغير التام. ومن المؤسف أن الكثيرين، الذين لا يدركون الكمال الكامن في ذواتهم، تحكمهم عواطفهم المشوّشة. ويعذّبون أنفسهم ويعذّبون الآخرين بشعورهم بعدم الأمان.

لم أكن واثقة إلى أي مدى سأمضي قبل أن أرى العالم المثالي

المتواري في داخلي، لكن أصبح بوسعي الآن أن أبتسم عندما أكون وحدي، وأعيش كلّ يوم إلى أقصى مدى فيه.

في اليوم التالي لمغادرة موجو انتابتني أعراض الزكام: عطس، برودة شديدة، دوخة طفيفة. لم أتوقف عن شرب الماء الحار، ورفعت درجة الحرارة في البيت، وارتديت أربع بلوزات من الصوف. لكنني وجدت أن هذا لم يؤثر على مزاجي. وكالعادة فقد رحت أقرأ وأتأمّل وأمشي.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام، اتصلت بي إكسير وراحت تشتكي وتجهش بالبكاء لأن صديقها الأسترالي آدم بدأ يعاملها ببرود. وقال إنها تشك بأنه اكتشف أنها أجرت عمليه تحويل الجنس: فالإشاعات والوشايات تسري في شنغهاي حتى أسرع من انتشار الإنفلونزا.

رحت استمع إليها نافدة الصبر وهي تتناوب بين البكاء على آدم والبكاء على الناس الذين تشك بأنهم أذاعوا الخبر؛ ثم قالت إنها لا تستطيع أن تبقى في شنغهاي، لأن الكثيرين أضحوا يعرفون سرّها. وقالت إنها ستهاجر إلى أمريكا ولن تعود أبداً.

«حسناً. يمكننا أن نعيش في نيويورك معاً. يمكنك أن تفتحي مطعماً آخر في مانهاتن وسيجري وراءك عشرات الرجال من الأمريكيين الأغنياء، مع أنهم ليسوا أفضل من الرجال هنا، بل ربما كانوا أسوأ. لكنهم لن يعرفوا سرّك» قلت لها مواسية.

قالت: «إني جادة في هذا الأمر».

قلت لها: «لكن لماذا لا تحدثين آدم؟ فلعله ابتعد عنك لسبب آخر».

قالت: «يجب أن أكون سحاقية. اعتباراً من هذه اللحظة، لن أخرج إلا مع نساء». ضحكت ضحكة عالية، ثم تنحنحت.

«هل أنت مريضة؟» سألتني.

«يبدو أنه زكام»، أجبت.

«ها»، صاحت، ثم قالت شيئاً أذهلي: «قد تكونين حاملاً».

«ماذا؟» سرت القشعريرة في جسدي كله.

«اسمعي»، قالت بابتهاج. «قالت لي إحدى الزبونات إنها تصاب في الأيام القليلة الأولى بعد الحمل بجميع أعراض الزكام. وقد حملت ثلاث مرات، وفي كلّ مرة، كانت تأتيها الأعراض ذاتها، وحالما تشعر الآن بالزكام يعتريها القلق.

قبضت سماعة الهاتف بصمت، لا أعرف كيف أردّ عليها. فقد كانت إكسير تحصل على الكثير من المعلومات الغريبة من زبائنها.

«صدقيني، منذ أن أصبحت امرأة بدأ حدسي يصبح أفضل، وأصبحت أكثر حسّاسية من امرأة ولدت طبيعياً» قالت بشكل يقيني.

«ماذا يجب أن أفعل؟» سألتها أخيراً.

«تبيع الصيدلية أجهزة اختبار حمل: هل أشتري لك واحداً الآن وأجلبه لك؟» وبغتة أصبحت إكسير مبتهجة، وظهرت نبرة حماس في صوتها. فقد كانت إكسير ترجوني منذ سنوات أن أقسم لها بأن تكون هي العرآبة الوحيدة للطفل الذي أنجبه، لا ابنة خالتي زو شا التي لديها طفل. وبما أنه لا توجد لدى إكسير مبايض ورحم، فقد كانت فرصتها الوحيدة في أن تصبح أمّاً لطفل تكمن في الأمل في أن تعود في حياتها التالية امرأة «حقيقية» ويصبح بإمكانها أن تحبل وتلد. بالطبع لم يكن بإمكاني أن أرفض طلبها. وكانت إكسير تتطلّع إلى قدوم طفل صغير

أكثر مني، إلى حد أنها قالت لي ذات مرّة: «هيا، ابحثي عن متبرع بالحيوانات المنوية. وسأدفع نصف تكاليف إعالة الطفل».

«انتظري بضعة أيام وسنرى!» قلت مترددة، وأضفت: «إذا لم تأتني الدورة الشهرية بعد عدة أيام، يمكنك بالطبع أن تأخذيني إلى المستشفى لأجري اختباراً».

قالت: «يجب أن تخبريني».

فقلت: «سأفعل».

عندما وضعت سماعة الهاتف اعترت الحمى جسدي كله، واشتعل وجهي بالحرارة. وفجأة تلاشت أعراض الزكام. «لعلها ليست حقيقية»، قلت لنفسي. لكن التفكير بإمعان في الليالي التي أمضيتها مع نِك وموجو، لم أستطع أن أستبعد إمكانية الحمل مطلقاً. لكن الحبل مِنْ مَنْ؟ وطفل من سيكون؟

جلست على الأريكة ووجهي مدفون بين يديّ أتأوه من الألم. ثم اتكأت على الوسادات ورحت أحدّق في السقف. وظهر وجه نِك ووجه موجو، تلك الليالي، تلك المداعبات، تلك الرعشات والصيحات. أوه! أغمضت عينيّ ثانية وندت عني تأوهة أخرى.

يا إلهي، يا إلهي، لم أستطع أن أفكّر بالأمر. كان عليّ أن أخرج لأتمشى، لأتنشق هواء منعشاً. لكن انتظري لحظة، هل سيؤثر الهواء البارد على الطفل؟ يجب أن أرتدي طبقة أخرى من الثياب. لقد تغيّر العالم برمته، فقد أصبح كلّ شيء مختلفاً. ومع أنه لا يوجد لدي إثبات نهائي، بدا أنه من الممكن أني سأصبح أمّاً.

ارتديت معطفاً وقبعة ووشاحاً كنت قد اشتريته منذ سنتين ولم ألبسه من قبل، وتمشيت في الشارع بضع دقائق، وفجأة لوّحت إلى سيارة

أجرة، وأعطيت السائق عنوان خيّاطتي. فقد كنت قد طلبت منها أن تخيط لي كيباو ضيقاً من الحرير، لذلك أردت أن أطلب منها أن تعدّل قياسات الكيباو، إذ يجب توسيعه عند الصدر والخصر والورك.

عندما سألتني كم أرغب في توسيعه، لم أجد الكلمات لأرّد عليها، وقلت: «فقط. . . أكبر». وقلت في داخلي، حتى لو كان إنذاراً كاذباً، فيجب أن أتمكن من ارتداء كيباو أوسع قليلاً. أخفضت رأسها ودّونت المقاييس الجديدة على قصاصة من الورق.

سرّني أن الخيّاطة كانت امرأة هادئة ومتحفظة. فلم تكن تسأل زبائنها أية أسئلة. حتى عندما كانت تأتي إلى محلها وجوه مشهورة من التلفزيون، كانت تبدو هادئة، وتأخذ مقايسهن وتصنع لهن ثيابهن حسب الطلب بسلوكها المهني المعتاد. كنت متأكدة من أن عدداً من زبوناتها نجمات ازداد حجم صدرهن مقياسين فجأة، لكنها كانت تسجل حجم الصدر الجديد بهدوء، ولا تلق نكاتاً، مهما كانت لطيفة.

كانت تلك هي خياطتي في شنغهاي.

مرّ بضعة أيام ولم تأت دورتي الشهرية. كنت أدخل إلى الحمّام كلّ ساعة تقريباً أبحث عن بقعة حمراء على سروالي الداخلي.

أخيراً اتصلت بإكسير وقلت لها بصوت يصدر فحيحاً كالأفعى: «لنذهب إلى المستشفى».

«سأكون خارج بيتك بعد عشرين دقيقة»، قالت بطريقة حاسمة.

كان المستشفى يزدحم بأناس متجهّمين، متراصين كتفاً لكتف، يأتون ويذهبون ببطء وبشكل عشوائي وسط روائح المطهرات الكريهة، مما يذكّرك فجأة بوجود ١.٣ بليون شخص في هذه البلاد. على أية

حال فإن المستشفيات هنا رخيصة، إذ دفعت نصف دولار أمريكي لقاء التسجيل، ودفعت نصف دولار آخر ثمن كوب بلاستيكي صغير.

سلّمت حقيبتي وسترتي إلى إكسير، ودخلت إلى الحمّام القذر قليلاً وتبوّلت في الكوب البلاستيكي الصغير، ولوثت يدي، مع أن احترام الذات في المستشفى والكياسة ليسا ضروريين.

غسلت يديّ وحملت كوب البول. كان بعض الرجال يمرّون من أمامي في تلك اللحظة ورأوا ما أحمله. أعطتني إكسير صحيفتها، التي استخدمتها لأحجب بها الكوب.

«إني أفقد صبري. أشعر أني في حالة سيئة»، قلت بامتعاض.

«أنت من أراد أن يأتي إلى هنا. قلت لك إنه توجد أجهزة اختبار حمل في الصيدلية» قالت إكسير عابسة. كانت ترتدي سترة من الفراء ذات قبعة من طراز الإسكيمو التي لم تكن تلائم هذا الفصل وحذاء عالياً. كنا نبدو وكأننا ذاهبتان إلى عرض أزياء في مخيّم للاجئين. كان الجميع يحدقون فيها.

قلت: «من الأفضل أن يكون المرء حذراً في هذه الأمور. فأنا أخشى أن تكون النتيجة غير صحيحة إن فعلتها بنفسي». وتوجهت إلى نافذة المختبر وأنا أحمل كوب البول بحرص شديد.

يمكنك أن تعرفي النتيجة بعد ثلاث دقائق.

وقفت خارج نافذة المختبر أخبط قدميّ بالأرض. كان بوسعي أن أسمع دقات قلبي. لم أكن أعرف أن ثلاث دقائق قد تكون طويلة جداً. ابتسمت إكسير ووضعت يدي الرطبة في جيب معطفها الفرو. وانتهزت الفرصة وأسندت رأسي على كتفها. «لم أرك ضعيفة إلى هذه الدرجة من قبل. إنها صفة أنثوية جداً»، همست إكسير في أذني.

ثم جاءتنا نتيجة المختبر: إني حامل!

صاحت إكسير على الفور. كانت شديدة الحماس، لكني رحت أراقبها بهدوء. كان عقلي خاوياً.

عندما غادرنا المستشفى، رفضت طلب إكسير أن توصلني بسيارتها وأصررت على أن أعود إلى البيت سيراً على قدميّ. «حسناً. سأتصل بك الليلة». عانقتني، وابتسمت وانطلقت بسيارتها بسرعة كبيرة.

مشيت في الشارع أحاول أن أتنفس بعمق من بطني. لم ألحظ فرقاً في بطني. لكن سواء لاحظت ذلك أم لا، فقد كانت تطرأ عليّ بعض التغيرات. ولم تكن هذه التغيرات ملحوظة، لكنها كانت تثير الدهشة. إنها ستغير مسار حياتي.

شعرت بالرغبة في البكاء، ثم بالرغبة في الضحك لأعبّر عن مشاعري في هذه المناسبة الحاسمة. فهي تشكل حداً فاصلاً بين حياتين، مثل خط الاستواء الذي يقسم شمال نصف الكرة الأرضية عن جنوبها. شعرت بأنني يجب أن أطلق صيحة.

لكني لم أبك ولم أضحك. بل رحت أتسكع الهوينى في الشوارع. ولم تكن أصوات المشاة والسيارات التي تمرّ إلى جانبي ورائحة الغبار تؤثر عليّ. بل تابعت سيري بهدوء، أحدّق في كلّ شيء أراه لكني لم أكن أسجل شيئاً في عقلي.

وصلت إلى أحد الشوارع ورأيت الناس يخرجون راكضين من بيت قديم يتصاعد منه الدخان. وكان أحدهم يصرخ «حريق، حريق» وانطلقت ألسنة اللهب فجأة من المبنى وأضاءت السماء. ازدادت النار عنفاً وازداد قلق الحشد المتجمهر.

توقّفت عن السير ورحت أحدّق، مشدوهة، في المبنى المحترق.

كان المبنى يترنح، تغلفه ألسنة اللهب، وبدا وكأنه سيتهاوى في أيّة لحظة.

وفجأة غمرتني موجة لا اسم لها من المشاعر الحادّة. وجدت أني بدأت أبكي، وبكيت بحرقة، وقرفصت على الرصيف.

عبر غشاوة دموعي رأيت أن النار العنيفة بدأت تنتشر في كل مكان، فأثارت فيّ مجموعة من الذكريات والعواطف الجوهرية والعميقة. فمن ناحية ثمة دمار، ومن ناحية أخرى ثمة حياة جديدة.

إن الحياة تتحرك في دوائر، مثل الفصول التي تعود في ترتيب لا يتغير. شابّة مثلي، في داخلها خصوبة الربيع، تسافر في رحلتها وتجتاز الصيف والخريف حتى تصل إلى لغز ورهبة الشتاء. وتعبر الذكريات الجبهة البيضاء النظيفة، وفي الرحم ـ تتعمد بالنار والدم ـ تنمو بذرة، بهدوء وسكينة...

الخاتمة

أفكّر بأعمار أخرى طافت فوق جدول الحياة وأصبح الحبّ والموت في طي النسيان، وأشعر بحرية الموت.

رابندراناث طاغور

استجمعت إكسير شجاعتها وعادت إلى بيتها، في قرية محافظة في جنوب هانان. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تذهب فيها إلى بيتها لزيارة أبويها منذ أن أجرت عمليتها. ولم تكن أمّها ترغب في أن تراها، أما أبوها فقد اصطحبها إلى أفضل مطعم في البلدة لتناول العشاء. وفي اليوم التالي، امتلأت القرية الصغيرة بالثرثرة بأن أبا إكسير وفتاة شابّة يلتقيان سراً. وعندما عادت إكسير من القرية، اعترتها شجاعة كافية لأن تخبر صديقها آدم عن سرّها.

في البداية، قرّر آدم أن يتخذ من إكسير صديقة له فقط. لكنه وجد أنه كان لا يزال منجذباً إليها. فقال لها: إني عاجز، ربما ليس العالم هو الذي تغيّر، بل أنا». وبمساعدة آدم، حصلت إكسير أخيراً على تأشيرة وهما يمضيان العطلة حالياً في البلدة التي يقيم فيها آدم في ملبورن.

عاد إيريك إلى شنغهاي، وبعد أن التقى بزو شا، مكث فترة من الزمن. وفي نهاية رحلته أمضى بضعة أيام في زيارة التبت بحثاً عن بيته الروحي.

وحسب ما قالته لي زو شا، لم تفعل هي وإيريك شيئاً، لكن سرت شائعات بأنها على وشك الطلاق من آه ديك. وفي الوقت نفسه،

وبسبب إنجازاتها في العمل، كانت تأمل في أن تترقى بسرعة وتصبح مديرة إقليمية للشركة في الصين. لكن النجاح لم يكن الشيء الذي كانت زو شا تسعى إليه حقاً. فعندما كانت صغيرة وكانت تمرّ في مرحلة تعليم صارم، كانت العبارة التي تتردد على مسامعها: «لكي تكوني امرأة لا يمكنك أن تكوني قوية جداً» و «يشعر المرء بالوحدة عندما يكون في القمة».

أنهى أبي محاضراته في سنغافورة. وعاد هو وأمّي إلى شنغهاي. وكنت أزورهما كل يوم تقريبا ونتناول العشاء. وكنت قد أصبحت في نظرهما أكثر بدانة بعض الشيء، بل وحتى أكثر جمالاً من قبل.

كنت أحتاج إلى قدر أكبر من الشجاعة لكي أخبرهما بالحمل. إذ يصعب التحدث عن امرأة عزباء حامل في الصين.

لكنني ذكرت ذلك في رسالة أرسلتها إلى سيد الطبيعة الفارغة في جزيرة بوتوو. وكان ردّ السيد بأن أرسل لي لوحة تصور مشهداً طبيعياً ماطراً مرسومة بالحبر. وكتب إلى جانب اللوحة: «مع المطر يأتي محصول وفير، ومشهد ألف جبل يبعث على البهجة ـ فإذا كنت راضياً ومرتاحاً في ذاتك، فإنك ستشعر ببهجة عظيمة».

أما موجو ـ فأنا لا أزال أحبّه، تماماً كما قلت في بداية هذا الكتاب. إن حبّي لموجو كان أكثر من حبّ، كان نوعاً من الخلاص الذاتي.

ونِك. . . أظن أني أحببت نِك أيضاً بشكل ما، رغم سمعته السيئة كزير نساء.

لكن لم يعرف أحد منهما أني حامل، ولم أكن أعرف تماماً من منهما أبو الطفل.

وفي مساء أحد الأيام، حلمت ثانية بأنني أعوم فوق سطح بحر لا حدود له، أبحث عن الجزيرة السماوية التي تعلق بها قلبي. وعندما

اعتراني ذلك الشعور المألوف بأني عاجزة، رنّ في أذني الصوت القادم من السماء مرة أخرى. وهذا المرة، سمعته أخيراً بوضوح.

وكان ما قاله الصوت: «تزوجي بوذا».

الفهرس

١ ـ العودة إلى شنغهاي ٥
٢ ـ الجنس والسلوى ١٥
٣ ـ وصولها إلى نيويورك ٢٢
٤ ـ في منتهى الإثارة ٣٣
٥ ـ عيد ميلادها التاسع والعشرون ٤١
٦ ـ الثلج ٤٩
٧ ـ زِنْ والجنس في المطبخ ٥٥
٨ ـ إعداد العشاء لموجو ٦٥
٩ ـ طرف الإصبع المبتور ٧٨
١٠ ـ هذا هو الحبّ إذن ٨٤
١١ ـ كآبتها ٩٤
١٢ ـ إنه يحبّ الطعام اللذيذ ويحبّ النساء أيضاً ١٠٣
١٣ ـ المؤلفون والنقّاد الرجال ١١٣
١٤ ـ سرّ عن الحفلة الموسيقية ١٢١
١٥ ـ في معبد المطر الورع ١٣١

١٦ ـ عيد ميلاد موجو ١٣٩
١٧ ـ نِك القاتل ١٥٠
١٨ ـ يوميات العيش معاً ١٦٣
١٩ ـ الزوجة السابقة في المطبخ ١٦٨
٢٠ ـ راهبان ١٧٩
٢١ ـ في مدريد ١٨٦
٢٢ ـ إنه جذّاب، لكنه سامّ ١٩٤
٢٣ ـ في برشلونة ١٩٨
٢٤ ـ مثل فيلم من أفلام هوليود ٢٠٦
٢٥ ـ شيء من الحبّ يتلاشى في بوينس آيرس ٢١٢
٢٦ ـ الأريج المغلّف بضياء الشمس ٢٢٣
٢٧ ـ عندما غادرت نيويورك، وغادرته ٢٢٧
٢٨ ـ السيد يقول: ابتسمي! ابتسمي! ٢٣٨
٢٩ ـ كلّ شيء يأتي بسرعة في شنغهاي ٢٤٤
٣٠ ـ شجرة عيد ميلاد فراغامو ٢٥٥
٣١ ـ هل أنت بحاجة إلى سبب لكي تحبّين؟ ٢٦٧
٣٢ ـ شخص يغادر وشخص يصل ٢٧٧
٣٣ ـ ثمرة الحبّ ٢٩١
الخاتمة ٢٩٩

هذا الكتاب

لم أكن أعرف إن كنت سأكون سعيدة كما كنت، وفي أيّ طريق سأتجه، أو إن كنت سأتمكن من مواجهة العالم بعينين حكيمتين وجريئتين. لم أكن أعرف إن كان موجو لا يزال يحبني، أو إن كنت أريد أن أنجب منه طفلاً. لم أكن أعرف إن كانت طبقات الأشنة الكثيفة التي تكسو ثنايا ذاكرتي تعني أني لن أكون قادرة على أن أستدير وأن أجري.